سلسلة الأعلام 1

مذكّرات
عفيف البهنسي

إعداد وحوار
سعد القاسم

وثيقة وطن
منشورات مؤسسة وثيقة وطن

عفيف البهنسي

1928-2017م

مذكرات

عفيف البهنسي

إعداد وحوار

سعد القاسم

منشورات مؤسسة وثيقة وطن

2018

سورية – دمشق – أبو رمانة
شارع أحمد شوقي – خلف السفارة السعودية
هاتف: 00963-11-3311272
فاكس: 00963-11-3311262
info@wathiqat-wattan.org
www.wathiqat-wattan.org

جميع الحقوق محفوظة

لا يمكن إعادة طباعة أو تخزين أو نقل أو إنتاج أي جزء من هذه الوثائق أو كامل الوثائق، بالوسائل كافة المتاحة إلكترونياً أو تصويراً أو تسجيلاً أو على شكل سيناريو أو بأي وسيلة أخرى

دون الحصول على إذن من مؤسسة وثيقة وطن

الطبعة الأولى 2018

أُعد هذا الكتاب بالاستناد إلى جلسات حوار مسجلة مع الدكتور البهنسي خلال أشهر شباط وآذار ونيسان وأيار 2017، بلغت نحو عشرين ساعة، وإلى وثائق، وشهادات معاصرين. وتوفي صاحب السيرة قبل انجاز العمل بأشهر قليلة.

الغلاف: ميدالية من عمل الدكتور عفيف البهنسي (صورة ذاتية)

ليست لنا أي حيلة حين تسنح الفرصة في التعريف بأقدار عبقريات بلادنا وإسهامها في مضمار الإنتاج والابتكار

الدكتور سليم عادل عبد الحق

من رسالة إلى الدكتور عفيف البهنسي

وثيقة وطن

ينتمي كل إنسان إلى أرض تحتوي تراث وطنٍ عبر تاريخ طويل ترسم معالمه الوثائق المكتشفة تحت الأرض وفوقها، وكان على علم الآثار في سورية مهمّة توثيق هذا التاريخ بلغة مكتوبة، مقروءة، مشخّصة، تكفّل علم الآثار بالكشف عنها تمهيداً لإعادة كتابة تاريخنا وحضارتنا كاملة. هكذا امتدّت أعمال التنقيب والحفر على مساحة الوطن لكي تكشف عن وثائق تصحّح حكايات الأساطير، وتحلّ محلّها في إعادة كتابة التاريخ على وجه علمي، يعتمد على وثائق حملت أخبار وعقائد الوطن الذي نشأنا عليه منذ بداية التاريخ. وعلى امتداد عقود من الزمن الجديد كانت المتاحف السورية تزداد ذخراً بهذه الوثائق المتمثّلة بالرُقم المكتوبة، وبالتراث الأثري الشاهد دوماً على تطور الحضارة والتاريخ.

وفي هذا الكتاب عرض لمسيرة جادّة تكاتفت فيها وثائق وطننا، وأصبحت متداولة على صفحات مؤلفات مرجعية تركها لنا مواطنٌ عالمٌ، عرضنا سيرته كاملة، مع شهادات واعترافات علماء جيله بدوره الريادي الفعّال في بناء وثيقة وطننا سورية.

الفهرس

تمهيد 15

الباب الأول - الدراسة 19

الفصل الأول - حي الشعلان 21

الفصل الثاني - الطفولة والمدارس الأولى 29

الفصل الثالث – دار المعلمين وكلية الحقوق 41

الفصل الرابع – المحكمة الجمركية والخدمة العسكرية 63

الفصل الخامس – الدراسة في فرنسا 67

الباب الثاني - العمل الإداري والتعليمي 73

الفصل السادس - وزارة الثقافة 75

الفصل السابع - مديرية الفنون التشكيلية 81

الفصل الثامن - المعهد العالي للفنون الجميلة 89

الفصل التاسع - نقابة الفنون الجميلة 97

الفصل العاشر - في عالم الآثار والمتاحف 101

الفصل الحادي عشر - المنجزات الآبدة 181

الفصل الثاني عشر - جمعية أصدقاء دمشق 185

الفصل الثالث عشر - مع المنظمات الدولية 189

الفصل الرابع عشر - على منابر التدريس الجامعي 195

الباب الثالث - التراث الفكري والفني 203

الفصل الخامس عشر - في رحاب الفكر والإبداع 205

الفصل السادس عشر - ممارسة فن التصوير والنحت 227

الباب الرابع - شهادات معاصرين 237

الفصل السابع عشر – الإنسان والأسرة 239

الفصل الثامن عشر - رسائل 243

هوامش 247

بطاقة السيرة الذاتية للدكتور عفيف البهنسي 258

خلاصة تجربة حياة - وثيقة وطن 263

المؤلف 265

تمهيد

بين التكليف والتأليف

تعود معرفتي بالدكتور عفيف البهنسي إلى سنوات الطفولة الأولى، فقد كان أول اسم رسخ في ذاكرتي مقترناً بالفن التشكيلي السوري، حين وقعت عيناي في مكتبة جدّي، وأنا في الصفّ الأوّل الابتدائي، على كتابه القّيم «الفنون التشكيلية في الإقليم السوري»، لم أكن - بطبيعة الحال - قادراً على قراءة محتواه، لكن صور الرسمات والرسامين فيه أثارت اهتمامي كثيراً، وحفظت ذاكرتي بعضها، وحفظت اسم المؤلف الذي تكرّر أمامي مراراً، وخاصة حين جمعته الصداقة مع عمي هشام منذ دراستهما معاً في باريس.

بحكم ما سبق، وسواه، كنت أعرف أن الدكتور عفيف البهنسي هو المسؤول عن الفنّ التشكيلي في الإقليم الشمالي السوري من الجمهورية العربية المتحدة، وفي وقت لاحق شاهدت بعض أعماله النحتية، وقرأت اسمه على كتب، ومقالات. غير أن علاقتي الحقيقية مع مؤلفاته بدأت في عام 1974، ففي ذلك العام عقدت العزم على الانتساب إلى كلّية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، وكان يعوزني الكثير من المعلومات حول المدارس الفنية والفنانين، وبشكل خاص حول المسار التاريخي للتطوّر الفنّي، وطلبت مشورة أحد الأصدقاء العارفين فاقترح علي كتاب «تاريخ الفن والعمارة» للدكتور البهنسي، مردفاً اقتراحه بالقول: «إنه أفضل كتاب باللغة العربية يمكنه تقديم المعلومات التي ترغب بها»، وما أن حصلت على الكتاب وبدأت بتقليبه حتى وجدت نفسي، وما زلت، متبنّياً لرأي الصديق.

في العام التالي عدت لقراءة الكتاب مجدّداً، إنما هذه المرة كوني طالباً في الكلية، وقد وجدت نفسي منجذباً إلى مادة «تاريخ الفن»، بعد أن تعرّفت عليها في الفترة السابقة بشكل مقبول من خلال كتاب «تاريخ الفن والعمارة»، وعزّز هذا الإحساس أن الدكتور عفيف كان أستاذ المادة، فلم يكن هناك أدنى تباين بين ما قرأته سابقاً، وما سمعته في المحاضرات بعد ذلك من المؤلف ذاته خلال سنوات الدراسة الخمس، ومن ثم أثناء دبلوم الدراسات العليا. وبعد سنوات طويلة من انتهاء الدراسة بقيت محتفظاً بالكتاب، لا بصفته كتاباً دراسياً، وإنما كمرجع لا غنى عنه. وقد شاءت المصادفة وحدها أن أكلّف من قبل وزارة الثقافة بالحديث عن هذا الكتاب تحديداً ضمن مؤلفات الدكتور البهنسي في الفن والعمارة خلال الندوة التكريمية التي أقامتها الوزارة له. وشاءت أن أكلّف مطلع عام 2000 بتدريس المادة نفسها في المعهد العالي للفنون المسرحية، ومن ثم في المعهد العالي للموسيقا، فاعتمدت، وما أزال، الكتاب الذي درسته حين كنت طالباً، وقرأته قبل ذلك.

بحكم عملي في الصحافة الثقافية، تعمّقت معرفتي بالدكتور عفيف البهنسي من خلال متابعتي لعمله الريادي في مجال تأسيس هيكل المؤسّسة الفنية التشكيلية من مراكز لتطوير مواهب الهواة، ومعهد أكاديمي للفنون، صار كلّية جامعية، ونقابة للتشكيليين، ومعارض فنية على درجة عالية من الأهمية، ومن ثم من خلال مواكبتي لعمله الاستثنائي على رأس المديرية العامة للآثار والمتاحف، والذي توثّقه نتائج عشرات البعثات الأثرية العلمية التي غيّرت مفاهيم العالم عن منطقتنا، وتاريخ البشرية عموماً، ومتاحف للآثار انتشرت على مساحة الوطن، ومعارض آثار عملاقة طافت العالم، تحمل في طياتها تاريخ وإبداعات أبناء هذا الوطن. وبين هذه وتلك مساهمة ثرية في مجال الفكر والفلسفة والفن تحفظها عشرات الكتب التي تحمل اسمه، واسم كبريات دور النشر في العالم.

تكرّرت لقاءاتي مع الدكتور عفيف مكرّسة ذلك الشعور القديم بالاحترام العميق والتقدير والمودّة، وقد شاركت إلى جانبه في أكثر من مناسبة ثقافية منها ندوة عن الفن التشكيلي في بينالي المحبة الخامس باللاذقية عام 2003، وأحدث محطات هذه اللقاءات كانت الصيف الماضي حين أقام اتحاد التشكيليين السوريين

احتفالاً تكريمياً له، تعبيراً عن التقدير للعطاء الكبير الذي قدّمه خلال مسيرة حياته الحافلة، للحركة الفنية التشكيلية، وهو من كان أول مدير للفنون الجميلة، وأول نقيب للفنانين التشكيليين، ومن بعض ما قدمه لهم الشقق السكنية الفاخرة في شارع فايز منصور (أوتوستراد المزة) التي حصل عليها بمبالغ زهيدة كثير من الفنانين سواه. وقد عرضت أثناء احتفالية التكريم إحدى حلقتين خاصتين به من برنامج «ملوّنون» تتضمن لقاءً تلفزيونياً مطولاً أجريته معه قبل بضعة أشهر. أما المحطة الأكثر حداثة فكانت في مشاركته المترفة خبرة ومعرفة في الاجتماعات التأسيسية لجمعية الباحثين والنقاد التشكيليين السوريين، واعتذاره عن تسلّم رئاستها كما رغب الجميع، الذين أصروا مقابل احترام رغبته على تسميته رئيساً فخرياً للجمعية.

حين طلبت مني السيدة الدكتورة بثينة شعبان، رئيس مجلس أمناء مؤسسة وثيقة وطن، أن أقوم بإعداد هذا الكتاب ضمن سلسلة من الكتب التي تزمع المؤسسة إصدارها تكريماً للأعلام الذين أسهموا في تطوير وتفعيل ثقافة الوطن وتسجّل تاريخهم الشفوي، استعادت ذاكرتي في لحظات كل الذكريات السابقة، والكثير غيرها. كان التكليف في واقع الحال مفاجأة سعيدة، تحوّلت إلى مشاعر اعتزاز عميقة عندما أخبرتني الدكتورة بثينة شعبان أن الدكتور عفيف هو من اقترح اسمي حين مفاتحته بالمشروع، وآمل الآن أن يكون المنجز على قدر الثقة. وقد سعيت مدفوعاً بكل المشاعر الطيبة التي أحملها لأستاذي العريق، وبكل الإحساس بالمسؤولية الثقافية الوطنية، أن أحيط جوانب تجربته الثرية جميعها على خلفية واقع الحياة السورية، وقد استلزم الأمر، إضافة إلى قراءة عدد كبير من النصوص والحوارات، جلسات تسجيل في بيته بشارع الروضة الذي يعيش فيه منذ عام 1970 مع أسرته، والذي يتضمن مكتبته العامرة، ومرسمه المليء باللوحات الفنية. في هذا البيت المحاط بالحدائق والزهور، والمجاور للمراكز الثقافية وللسفارات الأجنبية والعربية، والمتاخم لشارع الجلاء (أبي رمانة) كان حوارنا الذي استمر بضعة شهور شكّلت بحد ذاتها ثمرة هذا الكتاب الذي أطلق عليه عنواناً منسجماً مع أهدافه: «وثيقة وطن.. في تراث عفيف البهنسي». ولقد سعيت أن أعرض أجوبته بالصيغة التي تحدث بها.

آمل أن يكون هذا الكتاب قد نجح بالإحاطة بسيرة هذه القامة الثقافية السورية العربية والعالمية التي يتجسّد عملها اليوم بعشرات الشواهد الآبدة في الفن والفكر والعمل الأثري والمتحفي.

دمشق في 3/ 7/ 2017

سعد القاسم

الباب الأول - الدراسة

الفصل الأول - حي الشعلان

الفصل الثاني - الطفولة والمدارس الأولى

الفصل الثالث - دار المعلمين وكلية الحقوق

الفصل الرابع - المحكمة الجمركية والخدمة العسكرية

الفصل الخامس - الدراسة في فرنسا

الفصل الأول - حي الشعلان

يقع حي الشعلان خارج أسوار مدينة دمشق التاريخية إلى جهة الشمال، وقد جاء اسمه من بناءٍ اتخذه سكناً له الأمير نوري ابن شعلان أمير عشائر الرولة التي انتشرت في جنوب حوران وبادية الشام. ويمتد هذا الحي اليوم من شارع الحمراء شرقاً إلى شارع الجلاء (المعروف بشارع أبو رمانة) غرباً، ومن بناء مدرسة دار السلام جنوباً إلى ساحة 8 آذار (عرنوس) شمالاً. ويشتهر اليوم بأسواقه التي اقتحمت أطراف مساكن عائلات أفرزت أعلاماً ومثقفين كان لهم دور واسع في نهضة دمشق وتاريخ سوريه، وحمل شارع رئيس فيه عام 2011 اسم الدكتور عفيف البهنسي الذي أمضى مراحل حياته كافة في هذا الحي وجواره. وكان ثاني شارع يطلق اسمه على شخص حي يرزق بعد نزار قباني عام 1998.

ومع أن التنظيم العمراني للحي ظل ثابتاً منذ منتصف القرن الماضي، إلا أنه شهد الكثير من التغيرات المعمارية التي تناولت الأبنية القديمة تعديلاً أو تحديثاً أو إضافة. وإلى ذلك تم عام 1949 إحداث شارع الجلاء الذي التهم جميع البساتين التي كانت تحد امتداد هذا الحي غرباً، مثل بستان الملا والعلاّمة والسبكي، ويعرف هذا الشارع شعبياً باسم شارع أبو رمانة، نسبة لشيخ كتّاب كان يقوم بتدريس التلاميذ تحت قبة تظللها شجرة رمان كبيرة في أعلى الشارع. وقبيل منتصف القرن الماضي كانت تقوم في أقصى الشرق من الحي على تخوم حي الشهداء، طاحونة تعتمد على مياه فرع من نهر ثورا تعرف باسم طاحون الوز، يليها منزل فخم ذو حديقة كبيرة كان من أملاك حسني البيطار الذي كلف بمنصب رفيع في حكومة المديرين، ومعه ابنه الدكتور منير عميد كلية الطب، وخلف هذا المنزل يقع مسكن

الأستاذ صلاح الدين البيطار. وقد أزيلت هذه المجموعة السكنية بعد إحداث شارع الحمراء أواخر سبعينات القرن الماضي. وبعد مجموعة جامع الشنواني، كان ثمة نزل (بانسيون) تديره السيدة ليّا من بلودان، أقام فيه على التعاقب المفكر زكي الأرسوزي والأديب عبد السلام العجيلي والباحث أنطون مقدسي. ثم نصل إلى مصلبة الشارع حيث يتقاطع مع الطريق الشمالي الجنوبي، ومن أبرز الأبنية فيه عيادة زعيم الثورة السورية ضد الانتداب الفرنسي في دمشق الدكتور عبد الرحمن الشهبندر التي شهدت جريمة اغتياله[1]. ثم نصل إلى مجموعة أبنية الشعلان ومازالت كلها قائمة رغم قدمها وعدم العناية بها، ويليها طاحونة أبو أحمد النويلاتي. وكان يتولى تنظيم الاحتفالات الشعبية أيام الأعياد، ويشارك في ألعاب السيف والترس، وبناء الشعلان هذا كان ملكاً لـ طه باشا الهاشمي (الضابط العراقي الذي أشرف على جيش الانقاذ عام 1948) انتقل بدعم رسمي إلى ملكية نوري ابن شعلان، وكان يعيش مع ولدي أخيه نواف: الأمير فواز الذي أصبح نائباً في المجلس النيابي وتزوجت ابنته نورا من ملك السعودية، والأصغر نايف. ومن أبرز مساعدي الأمير نوري الشيخ أبو محمد النويسر والشيخ أبو محمود النعما، وأولادهما الذين كلفوا بمهام عالية في حكومة الرياض. وفي هذا المربع المعماري كان منزل السيدة نهلة القدسي التي أصبحت زوجة الموسيقار محمد عبد الوهاب. وكانت زميلة عفيف البهنسي في مدرسة الجامعة العربية للأطفال. ويمتد هذا الرصيف من الأبنية إلى أن نصل بيوت آل الزهراء وعلى رأسهم الدكتور عبد القادر (الذي كان من مؤسسي معهد الطب العربي بدمشق) وولده الدكتور أحمد، ويليه منزل الطبيب عبد القادر راضي وكان سخياً في خدمة المرضى من السكان. ثم منزل حقي الشريف وأولاده سهام وعصام والعالم الموسيقي صميم الشريف الصديق الأقرب لـ عفيف البهنسي. وتتابع الأبنية حتى تنتهي عند عمارة الحديثة للشيخ العالم بهجت البيطار الحديثة. وخلف هذه الضفة الجنوبية، توزعت بيوت عائلات لبنانية عريقة من أسرة النعماني وشاتيلا ودمشقية ومشنوق في حي الحبوبي، وما زال قائماً مسكن المناضل والمؤرخ عبد العزيز العظمة (شقيق يوسف العظمة) وولديه الوزيرين نبيه وعادل والد صديق البهنسي عصام الذي أصبح مديراً للمصرف العربي في جنيف.

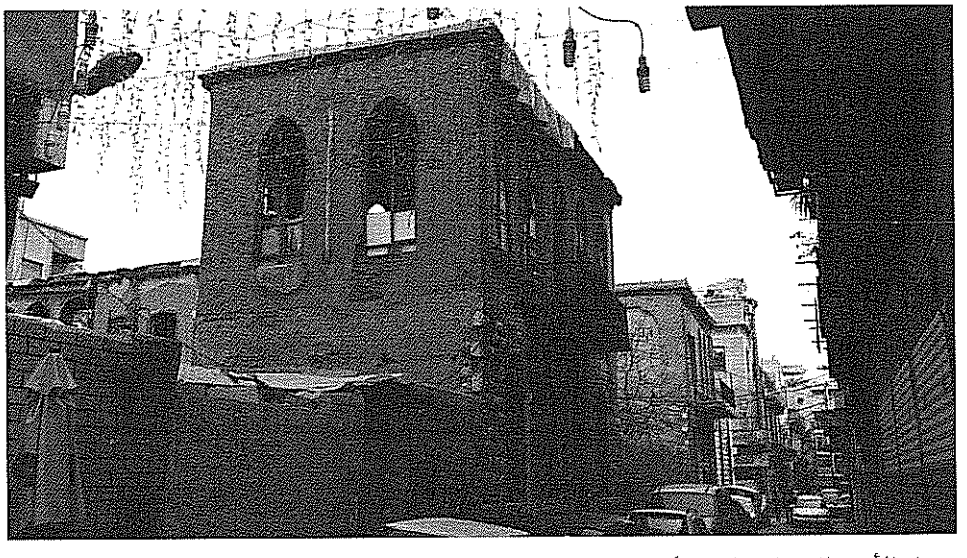

منزل الأمير الشعلان الذي أخذ الحي اسمه منه

ونترك البساتين الغربية التي أصبحت أحياء جديدة تضم شارع الجلاء أبو رمانة وشارع المالكي، لكي نتابع وصف السكان في الضفة الشمالية من الشارع. ونبدأ جنوباً ببيوت أنشأها تجار دمشقيون مشهورون من عائلات الحامض والسراقبي والجابي، وفي مصلبة الشارع نقف عند بناء الشيخ الصالح ياسين الفرا. ثم نتابع المسير حتى نصل إلى بناء اللواء عبد الله عطفة أول رئيس أركان في سورية بعد الجلاء، ومن أولاده الطبيب بدر الدين وكان صديق طفولة عفيف البهنسي، ونطل وراء هذا البناء على بستان السبكي وأصحابه أبو حمدي وأبو صبحي قبل أن يزول، محتفظاً بحديقة عامة تحمل هذا الاسم. وكان هذا البستان مرتع طفولة عفيف البهنسي وأصدقائه من أسرة الطباع وأبنهم اللواء تيسير، ومن أسرة المحاسب أبنهم عدنان أول المختصين بعلم الذرة، والفيلسوف مطاع صفدي. في الأبنية المشرفة على بستان السبكي أقام عفيف البهنسي مع أسرته وأهله، وكان بجوارهم مسكن مجموعة من الشباب العروبيين الذين هاجروا من لواء اسكندرون، من أبرزهم الاستاذ زكي الارسوزي والشاعر سليمان العيسى والدكتور وهيب الغانم والكاتب صدقي إسماعيل. وإلى جانب المنزل مقر مختار الشعلان عم والده الشيخ شفيق البهنسي إمام جامع الشهداء،

وفي مقابله منزل أسرة صديقه الأديب الدكتور شاكر مصطفى قبل زواجه من شقيقة الدكتور عبد الله عبد الدايم وانتقاله من الحي. وليس بعيداً ما زالت تقوم شقة كانت مسكناً لصديقه الكبير الفيلسوف القومي الدكتور بديع الكسم وأعقبه فيها أخوه الدكتور عبد الرؤوف الذي تقلد منصب رئيس مجلس الوزراء ما بين عامي 1980 و1987. وسنقف بالقرب منها أمام منزل ذي حديقة كان أول مقر لحزب البعث العربي وعلى رأسه ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وعلى امتداده شرقاً كان مقر عصبة العمل القومي عضوية فهمي الرئيس كان عبد الرزاق الدندشي وكان فهمي المحايري عضواً فيه وكانت زوجته الأستاذة منيرة مديرة مدرسة روضة الأطفال في بناء زيوار العظم الذي هدّم وأصبح ثانوية تجارية للإناث. وليس بعيداً عن هذا المقرّ مازال منزل السيدة نازك الحريري زوجة رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان السابق، والدها أسعد عودة الصيدلي في سوق الحريقة، في حين هدّم مسكن الثري الكبير أكرم العجة ووالدته أم أكرم عند إنشاء شارع الحمراء.

وكامتداد مكاني لحي الشعلان نحو الشرق يقوم حي الشهداء الذي يعود إلى زمن سابق للحرب العالمية الثانية أي إلى الثلاثينات من القرن الفائت. حيث كانت المنطقة مجموعة من البساتين هي ما تبقّى من قرية أرزة التي نزلها العرب في بداية فتح دمشق، ثم اضمحلّت وأصبحت بساتين محاطة من الشرق بـ «بساتين شرف» ومن الغرب ببساتين السبكي وعلاّمة والملاّ والصباغ. ومنذ بداية القرن العشرين ابتدأت حياً سكنياً أنشئت بيوته حسب أسلوب عمارة البحر المتوسط، وكان من سكانها دمشقيون انتقلوا من المدينة القديمة أو من الصالحية، إضافة إلى بعض السكان الأرمن، واعتمد هذا الحي في كيانه العمراني على وجود جامع قديم أطلق عليه اسم جامع الشهداء ومنه اسم الحي، ولقد جدّد هذا الجامع في نهاية القرن التاسع عشر. وبشكل موازٍ لهذا الحي من جهة الغرب كان طريق الصالحية الذي حفل بدكاكين الباعة لسدّ احتياجات سكّان هذا الحي وسكّان حارة بندق المقابلة. لم تدخل السيارة إلى هذا الحي، بل كان الحصان وسيلة انتقال بعض السكان إلى مزارعهم في الغوطة وكان الباعة الجوالون على الدواب، يغادرون الغوطة على محمولهم من الخضار والفواكه جاؤوا بها من البساتين الواسعة، وتداهم الجمال

حي الشعلان اليوم

الحي لنقل الحطب، وتتزاحم قطعان الماعز لتوزيع الحليب. ولم تكن الكهرباء والمياه قد امتدت إلى جميع المساكن، ومع ذلك كان حي الشهداء حياً راقياً من أحياء دمشق مطلع القرن العشرين.

ويمكننا أن ندخل هذا الحي اليوم باتجاه الغرب من طريق الصالحية إلى الشمال من الجامع لنرى إلى يسارنا أول بناية جديدة كانت ملكاً لأسرة الدكتور أسعد أسطواني، وبعدها ما زالت مصبغة شبيب قائمة، ويقع تجاهها منزل رفيق الكزبري وشقيقاته المهذبات، ثم نصل إلى تقاطع طريقين لنسير أولاً باتجاه الجنوب في طريق أصبح يحمل اسم جادة الكويت، وكان اسمه حارة النهر، وإلى اليمين كان منزل المالكي وأولاده زياد وغسان وتميمة ومهيبة من حملة الشهادات العليا . وبعده كان منزل العيطة الكبير، ويليه منزل القابلة (الداية) أم علي الحمصي صاحبة دكان لبيع المواد الغذائية، هذه الداية كانت القابلة الوحيدة التي ساهمت بولادة أكثر أبناء الحي ومنهم عفيف وأخيه خالد . بعد هذا المنزل كان بيت الخطيب وأولاده

لوحة شارع عفيف البهنسي

هشام الذي أصبح طبيب تخدير وشقيقتاه المربيتان المعلمتان براءة ونجاة، وكانت أمه معلّمة أيضاً. وبالعودة إلى بداية هذا المنعطف نتجاوز بيت الكزبري في الزاوية إلى بيت أبو شفيق البستاني حيث كان يسكن أحمد رفيق البهنسي والد عفيف البهنسي مع أخوته فريد وشوكت وأبيه محمد أديب رئيس ديوان محكمة التمييز. وبالمسير بعد هذا المسكن نصل الى بيت زياد ساعاتي ثم بيت الخياطة (السيدة برصا) ثم بيت الأرمن وبعده بيت شيخ قطنا، ثم نصل إلى طاحونة الوز. وكان ثمة فرع من نهر تورا يسير تحت هذه البيوت وهذا سبب تسمية الطريق بحارة النهر.

نعود إلى تقاطع الطرق متجهين نحو الشمال ومتجاوزين بيت الدقر وأولاده عدنان الذي أصبح عميداً في الجيش وأخوته وأصبحوا موظفين في وزارة الخارجية، ثم نصل إلى عيادة الدكتور خير ومقابله منزل آل الداغستاني والشابة أميرة وقد أصبحت زوجة الدكتور شفيق الصفدي. وقبله كان ثمة بيوت سكنتها عائلات دمشقية وأرمنية. ثم نعود ثانية إلى تقاطع الطرق لكي نتابع استقامةً باتجاه الغرب لنرى طريقاً قطعه شارع الحمراء، وكان مستقيماً يصل إلى حي الشعلان، وكان على يمينه، في ذلك الوقت، بيت سعيد وزكي الحواصلي يليه عدد من منازل أقرباء عفيف البهنسي وجيرانهم، بدءاً من بيت جده، ثم بيت فهمي المحايري، أحد زعماء عصبة العمل القومي وزوجته منيرة معلمة عفيف في دار الحضانة، ثم منزل خالته وزوجها جمال صدقي وابنهما المستشار عادل، ومقابله منزل العميد برهان داغستاني وأمه سيدة المجتمع التركية الأصل أم برهان صديقة جدته لوالدته

عائشة الشيشكلي. ومن بيوت هذا الطريق من الجهة الجنوبية بيت السراقبي ومنزل خال والدة عفيف البهنسي القائد أبو الخير الجابي الذي شارك في موقعة ميسلون، وابنه الطبيب اللواء أحمد وابنه الثاني رفيق، وفي نهاية هذا الطريق نصل إلى حيّ الشعلان.

ملاصقاً لبيت جد عفيف البهنسي محمد أديب كان منزل والدته مكية العش تقطن مع أمها كاتبة الجابي، وكانت فرصة الجوار سبب زواج والده والسكن في بيت والدته وجدته، وفي هذا البيت الذي مازال قائماً بعمارته المتوسطية ذات الواجهة الحجرية، ولد عفيف البهنسي.

الفصل الثاني - الطفولة والمدارس الأولى

يبدأ د.عفيف البهنسي بسرد سيرة حياته بالحديث عن الشهر والسنة التي اضطرت فيهما السلطة الفرنسية المحتلة للاستجابة لمطالب الشعب السوري بإجراء انتخابات عامة في نيسان (أبريل) 1928 وإنشاء المجلس التأسيسي الذي انعقد في حزيران 1928، وقام بوضع دستور للبلاد. ففي هذا التاريخ ولد في دمشق عن أبوين سوريين وأجداد عاشوا فيها منذ ألف عام، وتشاء المصادفة الطيبة أن يتزامن يوم ميلاده بعد ذلك باليوم الذي يحتفل فيه أبناء بلده بعيد الجلاء، بعد رحيل آخر جندي من جيش الاحتلال الفرنسي عن الأرض السورية. ففي بيت تملكه والدته بني في عصر الانتداب من طابقين وسقف جملوني وفسحة سماوية من الطراز المتوسطي، ولد عفيف البهنسي في السابع عشر من شهر نيسان (أبريل) عام ألف وتسعمئة وثمانية وعشرين، وفي يوم ولادته دوّن والده هذا التاريخ بخط يده بأعلى سقف منخفض في غرفة ملاصقة لجامع الشهداء حيث كان الشيخ شفيق عمّ والده إماماً لهذا الجامع ومدرّساً فيه. وهو جامع عثماني أنشئ على قبور دارسة لمجموعة من الشهداء يقال إنهم من الصحابة. وكان اسم هذه المنطقة أرزة، وهي قرية كانت تقع على درب الصالحية الذي يصل المدينة بسفح جبل قاسيون، حيث أقامت جماعة من الصالحين من بني قدامة كانوا قد نزحوا من القدس بعد أن اجتاحتها جيوش الفرنجة عام 1099م. يتضمّن كتاباً موجوداً في المكتبة الوطنية شجرة عائلة البهنسي، ورد فيها أسم والده رفيق ابن أديب ابن سعيد وصولاً إلى المهلّب البهنسي في القرن الرابع الهجري. وفي شجرة العائلة أسماء أجداد تولّوا دائماً أمور القضاء والفقه والسياسة، ولقد سكنت هذه الأسرة دمشق منذ ألف عام، وترك الوزير المجد البهنسي في القرن العاشر المدرسة

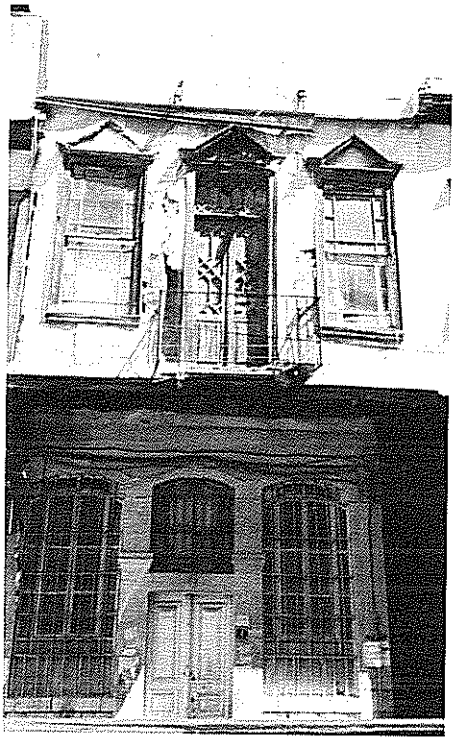

البيت الذي شهد ولادة عفيف البهنسي وطفولته

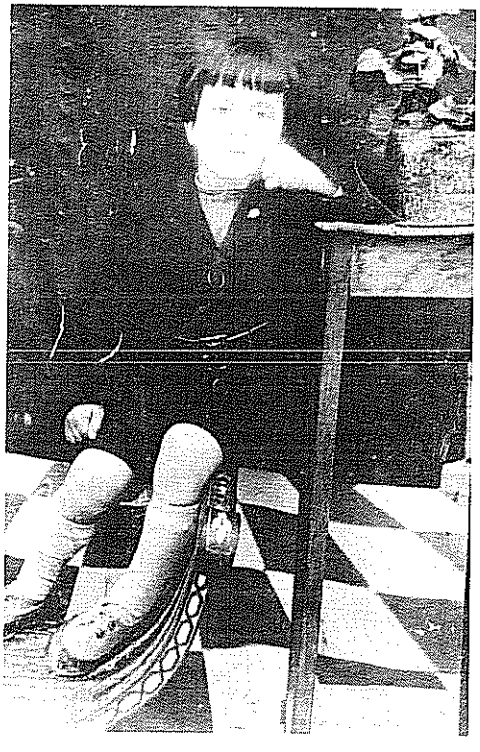

عفيف البهنسي في الخامسة من عمره

البهنسية التي ما زالت آثارها في دمشق وراء جامع العدس، والحديقة البهنسية التي ضمت إلى قصر تشرين. وفي مصر هناك عائلات بهنسي والبهنساوي نسبة لمدينة البهنسة الموجودة في جنوبي مصر، وهناك أسطورة البهنسية التي تقول إن السيدة مريم العذراء وابنها الطفل عيسى عليهما السلام عندما نزحا إلى مصر نزحا إلى مدينة البهنسة. وهي أسطورة مكتوبة ومطبوعة ولكن كل ذلك له علاقة بمدينة البهنسة، تلك المدينة التاريخية، ولا يعتقد أن له علاقة بعائلة «البهنسي» الدمشقية.و قد تكون التسمية جاءت من كلمة تبهنس وهي كلمة عربية تعني تحفز. وقد وردت في بيت شعر قديم جاء فيه: تبهنس إذ تقاعس عنه مهر.

في الخامسة من عمره دخل عفيف البهنسي إلى روضة الأطفال وكانت ملحقة بالمدرسة التجهيزية للبنات، وكان مقرّها في بناء متاخم للمشفى الإيطالي تماماً،

كان يملكه زوار باشا العظم وأصبح ملكاً للدولة، واستعمل مدرسة للطب عام 1903 ثم أصبح ثانوية للإناث، قبل هدمه وبناء مدرسة تجارية للإناث فيه. وكانت المدرسة التجهيزية للبنات الأولى في كل سورية وتأسّست في الثلاثينات. وكانت تديرها معلمة قديرة هي منيرة المحايري التي كانت من خيرة المعلمات وكانت تحنو على أطفال الروضة، وكان من بينهم بعض من استمروا من أقرب رفاق عفيف البهنسي مثل صميم الشريف العالم الموسيقي، وبشير زهدي أمين المتحف الوطني ونجاة علبي الخطاط المعروف.

يقول الدكتور عفيف البهنسي عن تلك الأيام:

انتقلتُ بعد الروضة إلى مدرسة التطبيقات المسلكية التي حُشرت في بناء المدرسة التجهيزية وهو بناء فخم أنشئ في عام 1936 واستعمل أولاً لإقامة معرض دمشق الأول (وهو غير معرض دمشق الذي بدأ عام 1954، ووفق د. سامي مبيّض أقيم هذا المعرض في التجهيز الأولى - جودت الهاشمي) وسوقها وقد صمّمه المهندس المعمار اللبناني يوسف افتيموس وأشرف على تنفيذه رئيس مهندسي الأشغال العامة سليمان أبو شعر، حسب الطراز المعماري العربي الحديث، وأعيد بعد انتهاء المعرض لوظيفته التعليمية تحت اسم المدرسة التجهيزية ثم أصبح اسمها مدرسة جودت الهاشمي تخليداً لأسم مديرها القدير الأول.

وفي مدرسة التطبيقات أمضيت عامين، وكان مديرها رمزي الركابي، وكان أستاذ الرياضة فيها أكرم العجة الذي فارقنا عام 1938 إلى فرنسا ليستفيد من بعثة تتعلق بالرياضة، ولكنه استوطن هناك وتزوج من سيدة فرنسية وكان له ما كان من ثراء. ومن الرفقاء غياث الكيالي - إبن الوزير عبد الرحمن، وغسان الإلشي - إبن الوزير جميل، ومجد قاوقجي - ابن المجاهد فوزي، ومنير الأطرش - شقيق المطرب فريد. وتشكلت فرقة كشفية عامة يرأسها بكري قدورة تحت رعاية القائد العام للكشافة علي عبد الكريم الدندشي. وقد مضينا في رحلة إلى لبنان وتدمر وتل كلخ، لأول مرة في حياتي.

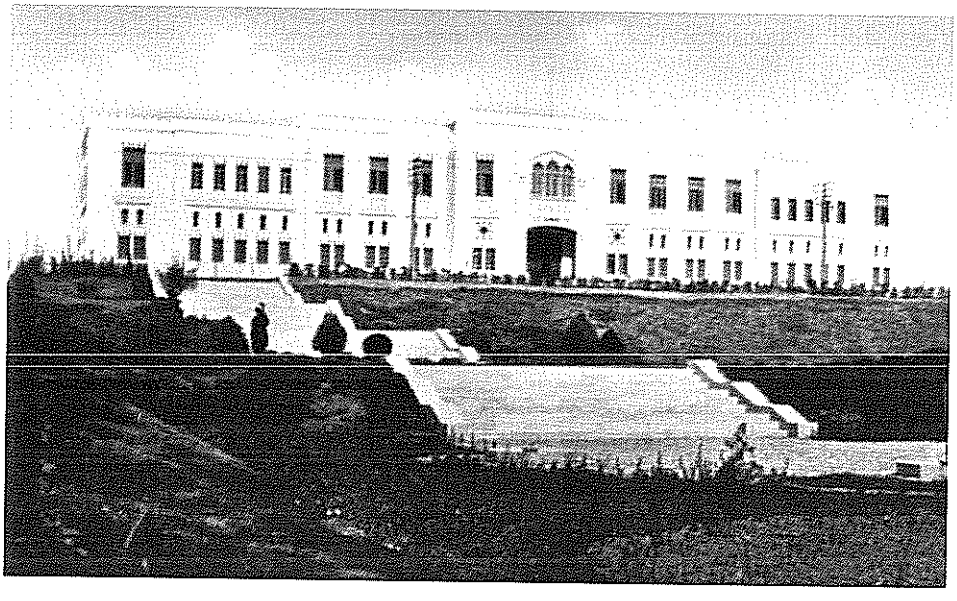

ثانوية جودت الهاشمي

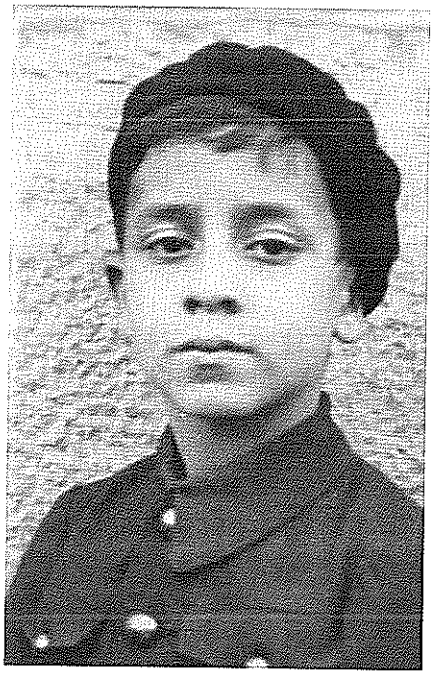

في مدرسة هنانو 1983

في الكشافة 1936

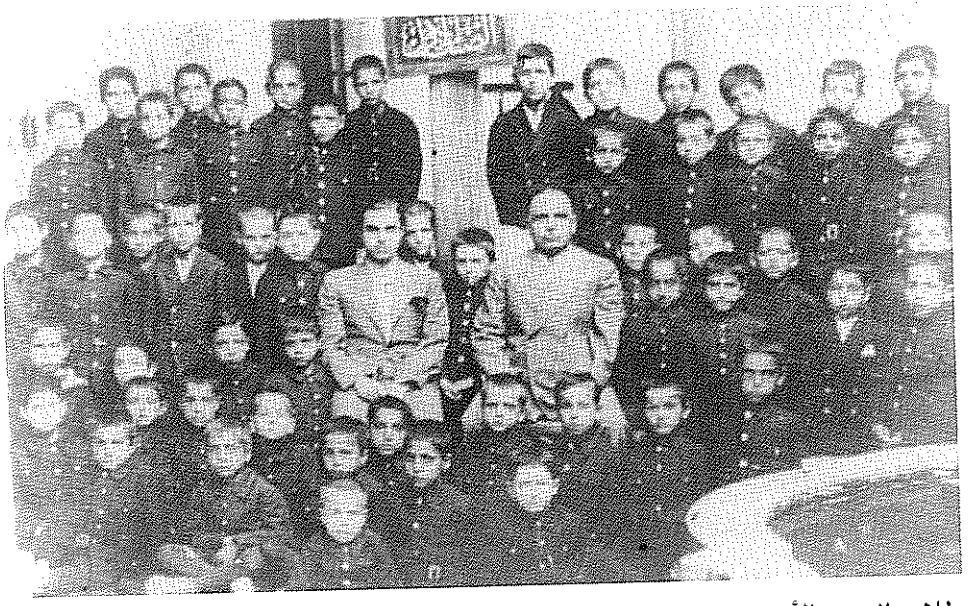

طلاب الصف الأول في مدرسة هنانو

ثم نقلت إلى مدرسة هنانو (ثانوية دمشق العربية اليوم)، وكانت في منطقة عرنوس قبل أن تكون في شارع نوري باشا، وكلما أُنشئت مدرسة قريبة من بيتنا يتم نقلنا إليها. كان في دمشق عدد محدود من المدارس الابتدائية (اثنتان أو ثلاث) منها مدرسة هنانو، وكان مديرها ياسين الحموي وأستاذنا أنور الرفاعي. ومن هذه المدرسة حصلت على الشهادة الابتدائية (السرتفيكا). وكان الفحص كتابياً وشفهياً أمام لجنة من الأساتذة. وما زالت هذه الشهادة لديّ وهي أكبر من شهادة الدكتوراه في الحجم. ومن يحصل على هذه الشهادة في ذلك الوقت يكون كمن ختم العلم وتُتاح له الفرص.

انتزاع من حضانة الأم

لا بد أن أعود في ذاكرتي إلى مدرسة التطبيقات، لكي أقف قليلاً عند مشهد لن أنساه عندما كنت طالباً في السنة الثانية الابتدائية، في هذه المدرسة وفي صبيحة يوم أغبر جاءت أمي إلى المدرسة لتخبرني أن والدي قد طلقها وأنني سأنقطع عنها لأكون في حضانة والدي في بيت حي الشعلان بينما سيبقى أخي

خالد في حضانتها في بيت حي الشهداء. كان والدي موظفاً في البلدية، ثم صُرفت هذه الوظيفة فافتتح محلاً في منطقة الشهداء لفترة وجيزة، ثم انتقل إلى وظائف أخرى وتوفي موظفاً. وبصورة عامة أنا عشت غالباً في كنف جدي لوالدي الذي كان رئيس ديوان في محكمة التمييز.

كان وقع هذا النبأ عميقاً في نفسي رغم حداثة سني، وما زلت أشعر بآثاره كزلزال لم يهدأ أبداً، وكان هذا بالنسبة لي بداية للشقاء الداخلي العائلي. وعندما توفّيت في غيابي أيضاً كان هذا بالنسبة لي شقاء آخر. لقد كانت أمي سيدة نساء العالم في نظري، من حيث أخلاقها وأمومتها وحنانها، وأنا لا أعتقد أن هناك كائناً يستحق أن نقدّم له الاحترام مثل الأم، ولقد هدّ هذا الحادث كياني دون أن أستطيع صدّه أو التخفيف منه، ومازلت أشعر بالذنب لأنني لم أتدارك ما حدث رغم عجزي. وأحزنني وفاة أمي أم عفيف خلال غيابي في بلغاريا، تاركة أخي خالداً وأختي ماجدة بلوعة المفاجأة لموتها المبكر، فنظمتُ قصيدة عن أمي شعرتُ فيها أنني لم أوفها حقها، ولم أستطعِ أن أنقذها لا من طلاقها ولا من موتها. قلت في القصيدة:

كم راعني أن ألتقي أمي التي أحببتها.. طليقةً من عرسها
كئيبة.... ترنو إلى وجهي الصغير تستجير من سوء حظها
خذلتها..... فلم أكن إلا صبياً قاصراً عن نجدة. سعيتها
أمضيت عمري، لم أزل معذباً أمشي يتيماً باحثاً عن عينها
ناديتها في قبرها، ولم أكن مستغرباً فالظلم كان قبرها
ما متِّ يا أمي فما أمومة للموت حقٌ في اخترام رسمها
يا أماه.... في عروقي شحنة من الأسى.. عميقة أحزانها

من ديوان أبيات على صفحات الجبين

أريد القول إنه من أسوأ الأمور بالنسبة للطلاق بين الزوجين هو مصير الأولاد، فمصيرهم يبقى معلقاً في الهواء سواء أكانوا في حضانة الزواج الجديد أو بعيداً عنه،

فصحيح أنني عشت مع جدي بشكل خاص، ولكن لم أكن أشعر بأنني مع أب وأم. كنت أعطفُ على أمي بشكل كبير لأنها هي المظلومة، وبرأيي أن أي امرأة تطلق مظلومة، وكنت أشعر دائماً أن هناك زوجة أخرى، وحياة جديدة تفصلني عن أبي لذلك كنت أشعر أنني أنا المربي وأنا الأب وعلي الواجبات كي أستطيع إنقاذ نفسي. كنا نعيش في حي الشعلان أطفالاً، وأسعفتني صداقاتي مع أطفال أصبحوا من كبار الأشخاص، منهم من أصبح لواء في الجيش ومنهم من أصبح أستاذاً جامعياً.

عفيف البهنسي مع والدته، 1963

هذا كله ساعدني في أن أعيش في مناخ طلاب يعيشون حياة طبيعية، فلم أكن أشعر أبداً أنني يمكن أن أضيع، وعدت لنفسي دائماً وكنت أصحح أغلاطي. أريد أن أقول شيئاً يمارسه أي إنسان، وهو محاسبة النفس قبل النوم، وكنت أشعر يومياً أنني أحاسب نفسي على الصح والغلط، وتعلّمت من رفاقي الذين كانوا يدرسون، منهم من أصبح عالم فيزياء ومنهم من أصبح الفيلسوف ومنهم من أصبح موسيقياً مشهوراً، وهؤلاء كانوا أصدقائي الذين حولي. بين سن العاشرة والخامسة عشر أنشأنا فريقاً أسميناه فريق الفرقدين، وكنا نجتمع في بستان السبكي الذي أصبح حديقة، وكنا نلقي المحاضرات ونعزّز أنفسنا بالدراسة وبتحضير المحاضرات. كنت أنا الذي أربي نفسي، ولم يكن هذا عيباً أو خطأ، وأنا أشعر دوماً بالاعتزاز لأن الحياة علّمتني. كانت الحياة قاسية، لذلك على الرغم من أني لم أعش مع أمي لكن أشعر دوماً بحنين لا حدود له لوجه أمي وكتبت عنها القصائد. كنت أشعر دوماً أن هناك أمومة لم تستطع ممارسة دورها، وأبوّة لم

تمارس دورها بسبب الطلاق، وأنا أرفض الطلاق نهائياً، وكل من جاء يقول لي أنا أختلف مع زوجتي كنت أدعوه للكفّ عن هذا التفكير، لشيء أساسي وهو الأولاد، أنا أقدّس الأمومة كما كان الأولون يقدسون الأمومة، وأذكر أننا عندما اكتشفنا «المريبط» وجدنا تمثالاً صغيراً لامرأة تحمل صغيرها فشعرت أنه كان هناك دوماً احترام للأم لدرجة العبودية، بل أنه كانت هناك ثمّة عقيدة أنها سبب الوجود، وهذا شيء صحيح. خذ الأمور ببساطة من أين وجدت أنا؟ من بطن أمي، وهذه العلاقة هي أقوى علاقة يمكن أن توصف في الحياة، لقد كنت جنيناً في بطنها، ونشأت في بطنها، لذلك أنا أعتقد أنه لا يمكن لإنسان ما نسيان أمه ولا بشكل من الأشكال لأن له علاقة عضوية مع أمه، إضافةً لذلك أنني عندما أرى أن أمي تعذّبت بعد طلاقها وماتت مبكرة هذا زاد في آلامي وفي تعلقي بها. كما قلت كل من يفكر بأمه يفكر أيضا باللاشعور أنه جزء منها وهذا ليس افتراضا بل هو واقع. وإن احترام الأم هو احترام للمرأة بشكل عام، فالنساء هنّ أمهات أو مشروع أمهات، ولذلك أنا أحترم المرأة وأقدّر ملكاتها ولا أريد أن تكون رجلاً، أريد لها أن تبقى امرأة لأن المرأة تحمل من العاطفة والحسّ والانتماء والمسؤولية ما يجعلها فريدة من نوعها. هذا هو تفكيري الدائم، طبعاً الحياة كلها سواء عند الحيوان أو عند الإنسان، تقوم فعلاً على هذه العلاقة. لقد وجدت قطة وُلدت هنا في شرفة منزلي وكبر صغارها وبقيت دائما مع إحدى الوليدات، ولقد فوجئت كيف أنهما قد أصبحتا تقريباً بحجم واحد، ومع ذلك استمرت بالعطف عليها، وهنا شعرتُ أن الأمومة ليست محصورة بالمرأة فقط. لقد توقفت عند هذه النقطة دائماً في حياتي، وبصراحة أقول إنني أشعر بالذنب لأنني عاجز عن جعل أمي كما يجب أن تكون الأمهات، عزيزة مكرمة وإلى ما هنالك. لم يكن بمقدوري فعل أي شيء..

وجواباً على سؤال عما إذا كان الطلاق شائعاً تلك الأيام. يضيف البهنسي:

كان الزواج المتكرّر هو الشائع، ومع ذلك كان البلد مقسوماً تقريبا إلى قسمين وكل له طريقة في الحياة؛ فالمدينة القديمة يعيش فيها غالباً التجار وأصحاب المهن ولهم تقاليدهم البيتية من حيث أنهم يعيشون هم وأولادهم وزوجات أولادهم في بيت واحد.

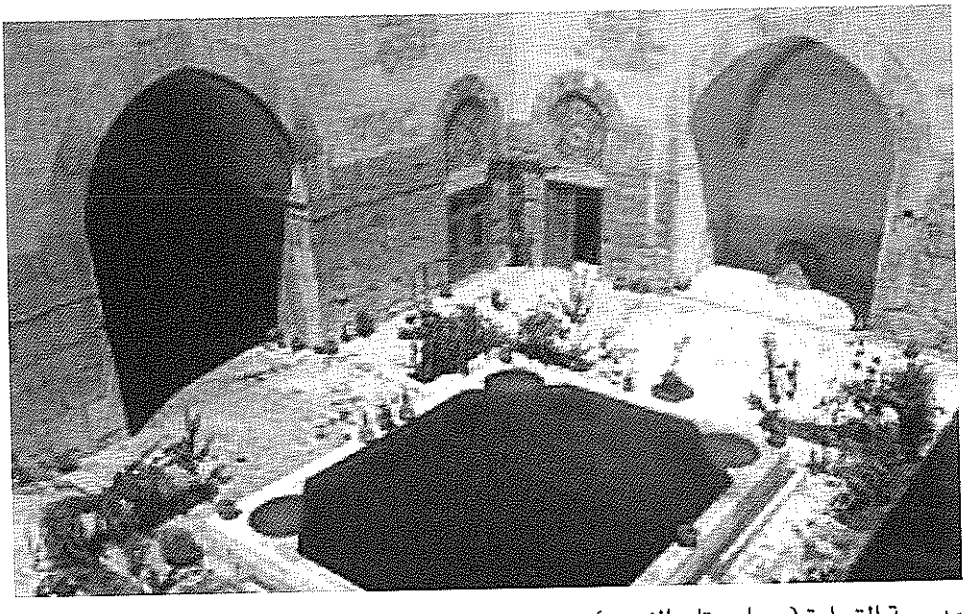

مدرسة التجارة (بيمارستان النوري)

أما البيوت الحديثة، ففرضت طرازاً آخر من حيث أنه لا يمكن استيعاب العائلة كاملة، فكان الأولاد ينفردون في بيوت خاصة، ويعيشون على طريقتهم وبأسلوبهم الخاص ولباسهم الخاص. حتى اللباس كان مختلفاً بين المنطقتين؛ فبقدر ما كانت هناك أزياء غربية في هذه المنطقة، كان الشروال والقنباز ما يزال رائجاً في منطقة دمشق القديمة.

متابعة الدراسة

كان عليّ أن أتابع دراستي الإعدادية في مدرسة التجارة في مقرها القديم في البيمارستان (المشفى) الذي أنشئ في عهد السلطان نور الدين بن زنكي. وكان من أساتذتي الشاعر أنور العطار، وأستاذ اللغة العربية شكري فيصل- عضو مجمع اللغة العربية والمصري الذي أصبح مدير البنك العربي في الخمسينيات رفيق السيوفي - الامين العام لوزارة المالية، وأستاذ الرياضيات نصوح الدقاق- حاكم المصرف المركزي، وكان للشاعر العطار تأثير كبير في مجرى حياتي الدراسية والأدبية. ومن رفقائي اللواء عبد الرحمن خليفاوي الذي أصبح رئيساً للوزراء في السبعينات. دخلت التطبيقات

في الابتدائي، ثم دخلت مدرسة التجارة وبقيت فيها سنتين فقط؛ الصف السادس والسابع، ووفاء لهذا البناء التاريخي. قمت بإخلائه وترميمه ليصبح متحفاً للطب والعلوم، عندما أصبحت مديراً عاماً للآثار والمتاحف.

وفي الصف السابع مرضت فتغيبت لعام دراسي، وفجأة وجدت أنني لا أستطيع العودة ولا أستطيع البقاء دون دراسة، وكان قريبي عادل صدقي الذي صار مستشاراً في القضاء يحضّر للكفاءة (الشهادة الإعدادية) فقفزت وحضّرت معه للكفاءة وتقدّمت للامتحان ونجحت، أي أنني لم أعش الفترة الإعدادية. الواقع أنني كنت دائماً أشعر بالخجل عندما كنت أعرف أنني جالس في المنزل ورفقائي كلهم يتابعون الدراسة، لكن عندما وجدت قريبي يدرس الكفاءة وقال لي: لماذا لا تدرس معي، قلت: أنا في الصف السابع، ثم أخذت دروساً في اللغة العربية والفرنسية وساعات إضافية وعشت معه في بيته وأخذنا ندرس مع بعضنا البعض ونهيء أنفسنا للكفاءة. أعتقد أن هذه أهم مرحلة في حياتي لأنها فسحت لي المجال لمتابعة دراستي براحة كاملة وبسرعة في دار المعلمين حيث كنت أدرس في مجالين، وهكذا كانت هذه المرحلة لا تنسى أبداً، ولا أنسى أبداً مرحلة الدكتوراه التي كانت هامه جداً وسأتحدث عنها لاحقاً.

أنا لا أقول إنني تمتّعت بحياتي، ولكن عندما أُسأَل هل تريد أن تغيّر ما مرّ بك في حياتك، أقول لا، لأن كل حياتي كانت تجارب وامتحاناً، وأنا أعتقد أن الحياة تقدّم لك فرصاً كي تبني نفسك بناءً تستطع به أن تجابه كلّ الظروف الصعبة. منذ كنتُ صغيراً كتبت على جدار إيوان مدرسة التجارة أنني «سأحصل على أعلى الشهادات». لقد قرأت هذه الكتابة بعد عشرين سنة؛ حيث كانت ما زالت موجودة على حائط المدرسة. يمكن أنني قد حققت هذه الأشياء التي في ذهني رغم أن جميع الظروف لم تكن مساعدة.

وحين سألت الدكتور البهنسي عمن أثر فيه في تلك الفترة أجاب:

أساتذتي هم الذين أثّروا فيّ، وأكثر من تأثّرت به هو الشاعر الأستاذ أنور العطار أستاذنا في الإعدادية، وكان يحدّثنا عن حياته، وكنا نشعر معه كما لو أننا

أسرة، وكنا نسمع شعره، وهو إنسان رقيق جداً وأثّر كثيراً في حياتي، وهو الذي اكتشف أنني من الممكن أن أكون كاتباً وحتى شاعراً.

أساتذتي أثروا فيّ كثيراً، وقد قدّمت لهم التحية كثيراً في كتاباتي لأنني فعلاً أشعر دائماً بالامتنان لسلوكهم الأبوي ولطريقة تعليمهم المحبّبة، حيث أنني لم أستنكر أبداً أيّ أستاذ عشت معه في أيّ فترة. كما أثر بي أيضاً عمر شخاشيرو بعد ذلك في دار المعلمين، وكان أستاذ اللغة الفرنسية وله طريقة هادئة في التعليم، ويدرك أن الذي يتعلّم هو عربي ولا علاقة للغة العربية باللغات اللاتينية، وكان دوما يخفّف الوطأة من الفارق الكبير بين اللغتين ويساعدنا على تعلّم اللغة الفرنسية.

الفصل الثالث – دار المعلمين وكلية الحقوق

كنت سعيد جداً أنني بعد أن أنجزت شهادة الكفاءة، قفزاً كما يقال، من الصف السابع إلى الكفاءة، كنت سعيداً أن أجد نفسي في دراسة اختصاصية وكانت دار المعلمين الابتدائية قد أحدثت لتغطية حاجة المدارس الجديدة بالمعلمين. كانت دار المعلمين في الجهة الشرقية من بناء المدرسة التجهيزية، وكانت مدة دراستها ثلاث سنوات.

كان المنهاج شاملاً لجميع المواد الثانوية من تاريخ وجغرافيا وعلم نفس ولغة فرنسية ورياضيات. وكانت مدرسة التطبيقات، التي كنت فيها، قد أنشأت لكي تساعد الطلاب في دار المعلمين لكي يمارسوا تدريبهم فيها كمعلمين، فيراقب الأستاذ المختص الطالب كيف يستطيع أن يقدّم الدرس ويصحّح له ويقدّم له النصائح، وكانت فعلاً مرتبة جامعية، لأن الأساتذة القائمين عليها كانوا على مستوى عالٍ من الثقافة. في دار المعلمين أقمنا الكثير من النشاطات التي تساعد على فتح مجالات المعرفة، سواء كانت زيارات ميدانية أو محاضرات أو إلى ما هنالك. وقد أنعشني راتب دار المعلمين، لأننا كنا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان من المفروض لشخص بسني (17 سنة) أن يوفّر نفقاته بشكل ما. لم نكن أثرياء ولا فقراء، كان راتبي 70 ليرة، وراتب المعلم حوالي 80 ليرة في الشهر، وهذا تقريباً عام 1947، وكان راتبي يكفيني وكنت أحياناً أضع الأموال الفائضة عن حاجتي في كتب مكتبتي، وبعد فترات عندما أفتح الكتاب أجد بعض النقود، ساعدني هذا الشيء لنفقاتي في الجامعة ونفقاتي الأخرى حتى تمّ تعييني.

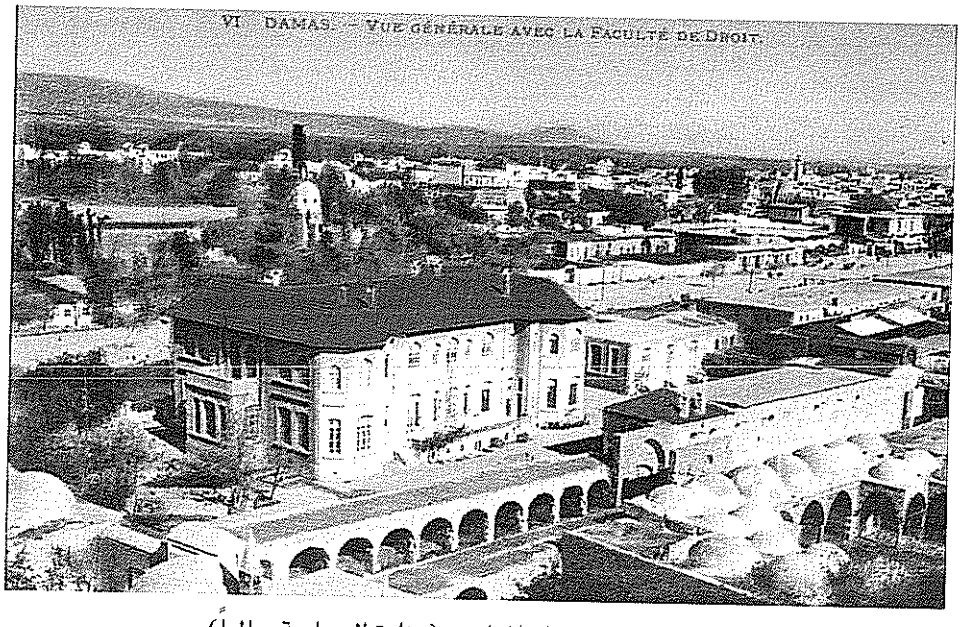

صورة تاريخية للواجهة الخلفية لمبنى دار المعلمين (وزارة السياحة حالياً)

لم يكن أمامي في الواقع أن أدرس أيّ اختصاص آخر، لأن الجامعة لم تكن قد استكملت كلياتها بما فيه الكفاية. صحيح أنني كنت أمارس العمل الفني هواية، وأكتب كثيراً من المقالات النقدية، فيما يتعلّق بالمعرض العام أو المعارض الخاصة، وكنت أيضاً عضواً في جمعيات أخرى هي جمعيات فنية بحدّ ذاتها، لكن لم تكن هناك كلية للفنون يمكن أن أتابع فيها دراستي.

كنت أطمح أن أكون أستاذاً جامعياً، لأنني أرى أن التعليم هو من أرقى الاختصاصات التي يمكن أن يمارسها الإنسان لسببين، الأول: أنه يبني أجيالاً من الطلاب الذين يتابعون تحقيق أهدافهم الثقافية، والثاني: أنه يتحقق بالنسبة للأستاذ، سواء كان أستاذاً ثانوياً أو جامعياً، تجديد معارفه دائماً، وإطلاق لسانه بشكل جيد. عندما حصلت على الشهادة المتوسطة، كانت دار المعلمين قد أحدثت ومديرها خالد شاتيلا، فانتسبت إليها وكانت تضمّ كبار الأساتذة، من أمثال عمر شخاشيرو للغة الفرنسية، وخلدون كناني للغة العربية، ونظيم موصلي للاجتماعيات، ومن زملائي سليمان الخش الذي أصبح وزيراً فيما بعد، ومحمد الشماع وأصبح قاضياً شرعياً، وحسني الحريري الذي أصبح أستاذ

موسيقا . وأذكر أن الرئيس شكري القوتلي زارنا ذات مرة، وكان الموصلي يتحدّث عن الثورة الفرنسية، وبوصفه شيوعياً كان يغمز أمام الرئيس القوتلي من قناة البرجوازية. يجب أن أقول إنني عشت في مرحلة نهضة دمشق ونهضة سورية، حيث لم يكن فيها مدارس ابتدائية فأصبح فيها، ولم يكن فيها معلمون وكنا نستعيرهم من بعض الدول ومن مصر بشكل خاص. وأصبح فيها دار لتجهيز المدارس بالمعلمين. وكبرت الحاجة إلى أكثر من المدارس الابتدائية فأصبح هناك المدارس المتوسطة، وابتدأنا بالمدرسة التجهيزية، ثم مدرسة الحلبوني التجهيزية الثانية، ثم توسّعت مدينة دمشق وتوسّعت المدن الأخرى بهذا المستوى في المجال التعليمي.

ووجدت أنني يجب أن أحصل على شهادة الثانوية أيضاً . وفي السنة الثانية من «دار المعلمين» حصلت عليها بشكل حرّ، وكانت الشهادة الثانية في الآداب وليست شهادة علمية، وحصلت عليها مع صديقي حسني الحريري، بعد دراسة مشتركة حيث أمضينا العطلة الصيفية في معسكر كشفي في مصيف صلنفة بقيادة أنور تللو. كان حسني الحريري إنساناً حساساً جداً، وموسيقياً بكل معنى الكلمة، ووالده كان صانعاً معروفاً للأدوات الموسيقية، وكان إنتاجه متميزاً منها . وقد ذهب حسني الحريري في بعثة دراسية وأصبح اختصاصياً ومفتشاً للموسيقا . أما أخلاقياً فأنا أراه ملتزماً تماماً بكل معنى الكلمة، ولكن لم يدخل في عالم الإنتاج الموسيقي لا تأليفاً ولا لحناً ولا عزفاً، علماً أنه كان قادراً على استعمال البيانو، ومتقناً تماماً لإصلاح الأوتار، ولكنه لم يكن منتجاً .

كان جيلنا يعاني من الظروف القاسية التي مرّت بها الأمة العربية بعد الإعلان عن تقسيم فلسطين في 1947/11/29 . وبصورة عامة، لم تكن الأمور مستقرة في حياتنا، عشنا كل حياتنا إضرابات ومظاهرات ضدّ الانتداب مرة، وضدّ إسرائيل ونصرة للقضية الفلسطينية. كنت في دار المعلمين عندما تم إحداث الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وكان النزوح، وكانت أوضاعاً سيئة جداً، واشتركنا كلّنا آنذاك كشباب في تقديم المعونة للاجئين منذ عام 1948 . ثم أعقب ذلك الانقلابات العسكرية المتتابعة، وكنا في كل مرة نلاحظ أن الأمور ليست في

صالح الوطن تماماً، وإن كانت هناك أجيال تتصاعد لكي تشكل نموذجاً من الجيل القادر على بناء الوطن ضمن نطاق الحرية والشعور بالمسؤولية. يعني عندما تعاقبت الأمور كنا نتعرّض أحيانا كثيرة للاعتقالات بلا سبب. أذكر مرة أنني كنت أسير مع أصدقاء، وإذا بشخص يأتيني ويقول أنا من الشرطة العسكرية وأريد أن تحضر للاستجواب، وعندما ذهبت قيل لي إنني ألقيت قنبلة على مكتب «حركة التحرير العربي» وهو حزب أسّسه أديب الشيشكلي بزعامته (ومنه جاءت تسمية ساحية التحرير التي يطلّ عليها المبنى القديم لكلية الفنون الجميلة في نهاية شارع بغداد). فقلت له: كيف أكون المسؤول عنها؟ وتبيّن بالنتيجة أن هناك وشاية بي، وكانت من أقرب الناس.

ما أريد قوله هو أننا لم نكن مستقرين أبداً، كان كل شيء يأتي صعباً، ولذلك عندما حصلت على الشهادة الثانوية أردت أن أدخل المدرسة الحربية لشعوري بأننا أصبحنا مهيّئين لخدمة الوطن وتجهيز جيش سوري قادر على امتلاك زمام نفسه، بعيداً تماماً عن أي وصاية أو أي تدخّل. ولكن لم أوفّق في دخول المدرسة الحربية، فدخلت كلية الحقوق لأنها كانت الوحيدة في ذلك الوقت، وكانت بقية الكليات جديدة تحاول تهيئة نفسها. كنت أحب التاريخ ولكن لم أستطع لأن كلية التاريخ لم تكن مهيّأة بعد، وشعرت أن الحقوق يمكن أن تكون دراسة عامة تساعد الإنسان على دراسة حقوقه وواجباته وكل ذلك يساعد فعلاً في بناء الوطن. دخلت كلية الحقوق مع الصديقين القريبين سعيد البهنسي وعادل صدقي، ونجحت فيها إلى الصف الثاني، ونجحت متفوقاً في الحصول على شهادة دار المعلمين. عُيّنت معلّماً، ودرّستُ بداية في مدرسة هنانو التي كانت ما تزال في منطقة عرنوس، وقد أزيل بناؤها، ثم انتقلت إلى مدرسة معاوية وكانت تسمى مدرسة البحصة وكانت أكبر مدرسة. كنت أقوم بتدريس كلّ المواد عدا الموسيقا والرياضة. وكثيراً ما كنت في أوقات الفرصة أرسم الأولاد، وما زال لدي دفتر فيه وجوه الأطفال، وما زلت أحتفظ بكثير من الذكريات، لديّ هنا جاري المحامي الكبير إحسان الشريف وكان طالباً عندي في الصف الرابع، وماجد القبيسي أيضاً كان تلميذي في الصف الرابع وهو أستاذ لغات قدير ومشهور.

في السنة الثانية من دراستي في كلية الحقوق كنت معلّماً في مدرسة هنانو. وفوجئت قبل امتحان نهاية العام بفصلي مع مجموعة من الطلاب من الكلية بسبب ممارستنا العمل الوظيفي مع الدراسة. ولقد أنقذنا من هذا الفصل المفاجئ قائد الانقلاب الزعيم[2] حسني الزعيم في ذلك الوقت. فلقد قمنا مع الزميل هاني مبارك بزيارته التي استقبلها بترحاب، وأعطى أمره الفوري بإلغاء الفصل. وكان الزعيم قد انقلب على النظام الدستوري في 1949/3/30.

كان عميد الكلية سامي الميداني ومن أساتذة الحقوق عبد الوهاب حومد ومنير العجلاني وأحمد السمان ومعروف الدواليبي، وأصبحوا جميعاً وزراء، وكان تخرّجنا في عهد الدكتور قسطنطين زريق رئيس الجامعة الذي قرّر أن يكون احتفال التخرج بالثوب الجامعي. وفي حديقة كلية الحقوق الواسعة، حضر الحفل الخريجون من جميع الكليات، وجلس الأساتذة والوزراء إلى جانبي رئيس الجمهورية أديب الشيشكلي الذي استلم السلطة بعد انقلاب عسكري بتاريخ 1951/12/2م الشيشكلي تسلم الحكم رسمياً عام 1953 وكان يومها يدير البلاد عن طريق فوزي سلو. وكان من خريجي كلية الطب نور الدين الأتاسي، الذي أصبح رئيس الدولة منتصف الستينات[3]، وعندما تسلمنا الشهادات قال لـ أديب الشيشكلي وجهاً لوجه: يسقط أديب الشيشكلي[4]، مما أحدث ارتباكاً أمنياً فتم اعتقاله ولوحقنا جميعاً. فيما بعد وحينما أدّيت الخدمة العسكرية كان نور الدين الأتاسي معنا، والعديد ممن تابعوا الخدمة العسكرية، وأذكر أن رئيس الدورة كان الضابط أحمد دباس الذي عطف على التقدميين بشكل خاص وساعدنا. ولقد شعرت أثناء الخدمة العسكرية أن بعض المدربين يستفزون الطلاب الذين كانوا غير عاديين، حيث أن منهم القضاة ومنهم الموظفين الكبار، وكانوا يستفزونهم بالكلمات البشعة. ولقد تجرّأت ذات مرة على نقدهم وكان أحمد الدباس إلى جانبي وشجعني.

هكذا أردت أن أقول نبذاً من حياتي التي مرت لكي أبين أننا لم نكن أبداً في حالة استقرار في جميع الأحيان. التقدميون ملاحقون، والمعيشة صعبة تماماً، ولا يمكن أن تتصور صعوبة الحياة، فالحرب العالمية الثانية كانت صعبة فهناك الغارات والفرنسيون. ولقد تعرضت إلى قنبلة ذات مرة أثناء غارة، وقد هربت إلى

بستان السبكي الذي كان بيتي متاخماً له وقد أصبح حديقة الآن، وهبطت القنبلة إلى جانبي تماما ولم تنفجر لأن الأرض كانت طينية وهذا الأمر حدث عندما كنت في العاشرة من عمري.

أذكر أيضاً عندما كبرت وأديت الخدمة العسكرية حيث كنت في الدورة السابعة أي من الدورات الأولى وكنا نطالب بالعودة إلى الخدمة، وعندما قامت حرب تشرين، دُعيت وكنت أنا ضابطاً قائد سرية، وعندما وصلت مباشرة إلى قاعدتي هبطت علي قنبلة تناثرت شظاياها حولي وألقت بي وكنت فعلاً على وشك أن اندثر إلى أشلاء، لولا أن ضغط الانفجار ألقى بي إلى مكان آمن خلف ساتر ترابي. وأذكر أنني جعلت بعض الشظايا تمثالاً تجريدياً ذكرى لهذه الحادثة التي أُنقذت بها بالمصادفة.

في كلية الحقوق

عندما دخلتُ الجامعة لم يكن أمامي خيارات في الواقع، فاخترت كلية الحقوق لأنني أعلم أن كلية الحقوق كانت أولاً بالنسبة لمجتمعنا، وهي علامة هامة على الثقافة، فأكثر المثقفين كانوا يحملون شهادة الحقوق، وهذه الشهادة مدخلٌ لكثير من الأعمال في جميع الوزارات سواء في وزارة الخارجية أو في التعليم أو في الإدارة، كانت كلية الحقوق ومدرسة الطب، هما من أوائل المنشآت الجامعية التي أنشئت في دمشق منذ عام 1903 تقريباً، وتجدّدت في عام 1912، ومازال البناء، الذي أقيم لكي يكون أولاً داراً للمعلمين وثانياً داراً لكلية الحقوق، قائماً وتستعمله وزارة السياحة.

دخلت كلية الحقوق أواخر عام 1947. كانت دراسة الحقوق شائعة، ولكن لم تكن سهلة في الواقع، وكان عدد سنوات الدراسة ثلاث سنوات. كان الدوام طويلاً، ولكن في الوقت نفسه كان هناك بعض الحرية. وكان الأساتذة على مستوى عالٍ مثل أحمد مصطفى الزرقاء الذي كان ذا معرفة خارقة ومدهشة بالقوانين الإسلامية، فقد درّسنا العلاقة ما بين القانون المدني وما بين أحكام الشريعة، وبيّن إلى أي حد العلاقة قوية جداً وخاصة في القواعد الكلية التي كانت تُعتمد

كلية الحقوق

في الحكم، وهي مئة قاعدة كانت متداولة مثل «لا ضرر ولا ضرار»، ومثل «ليس لساكت قول»، ومثل «الحق قديم»، وهكذا.. حيث كان يربط بينها وبين القانون المدني بمعنى أن هذه المبادئ التي استخرجت من الحكم الإسلامية سواء كانت حديثاً شريفاً أو غيره، تلتقي مع ما ذهب إليه السنهوري وهو أستاذ مصري وضع القوانين المدنية في مصر وفي سوريه. وكان هناك معروف الدواليبي الذي لا أنسى طريقة تدريسه من جهة، ومن جهة أخرى أفكاره التقدمية في الفكر الإسلامي. والذي قدّم لنا معلومات هامة في الفقه الإسلامي مجدّداً ومنقّى من كثير من الحواشي التي تجعله أكثر ارتباطاً بالممارسة من أن يكون أكثر ارتباطاً بالعقيدة والمبدأ. وكان هناك منير العجلاني، وكانوا بنفس الوقت يتقلّدون مناصب وزارية غالباً وكانوا يعملون في التدريس.. وكان أستاذ الاقتصاد أحمد السمان جذاباً جداً في تدريسه لأنه يأخذ الأمور ببساطة ويعلّم الاقتصاد ببساطته.

الجامعة السورية
رقم الهوية
٨٠٦
ان السيد عفيف البهني
طالب في الجامعة السورية
(كلية الحقوق ٣)
عن رئيس الجامعة
مدير التسجيل
السنة الجامعية
١٩٤٩ - ١٩٥٠

الفترة الجامعية كانت غنية جداً بالنسبة لي، ولكنها كانت صعبة جداً؛ يعني أن تدرس كتباً كاملةً، وتحفظها حفظاً كاملاً، لا تستطيع أن تسقط منها سطراً، وهذه مشكلة دراسة الحقوق. وكنا عندما ندرس أنا وأصدقائي كنا نتساءل في أول السطر الكلمة كذا... وهكذا، أي أنك يجب أن تحفظ حفظاً كاملاً. دراسة الحقوق كانت صعبة جداً كما أنها متنوعة، أي أن الاقتصاد ليس مثل المدني، ولا المدني مثل الجزائي، ولا أصول المحاكمات مثل غيرها. صحيح أنها تحت عنوان واحد ولكنها تختلف عن بعضها. وكانت كتبها ذات حجم كبير، وكانت فكرة الاستعداد للامتحان تأخذ منا أوقاتاً طويلة. بينما كانت الدراسة في كليات أخري منسجمة ومتمّمة لبعضها البعض.

كان بعض الأساتذة يطالبوننا بإلقاء المحاضرات، وأنا قمت بإلقاء محاضرتين أردت فيهما نقد بعض الأفكار التي كانت غامضة أو ناقصة، وكنت مرتاحاً رغم أني كنت موظفاً في التعليم، ولكني كنت أسترق الوقت لحضور بعض المحاضرات وللدراسة.

الجامعة السورية
رقم الهوية
١٦٣
ان السيد عفيف البهنسي
طالب في الجامعة السورية
(كلية الحقوق - اختصاص)
عن رئيس الجامعة السورية
مدير التسجيل
توقيع الطالب
السنة الجامعية
١٩٥٠ — ١٩٥١

وشجعني على الدراسة زملائي الذين كنت أدرس معهم، حيث كنا نشحذ همم بعضنا ونسمّع لبعضنا بعضاً. كنت أطمح فعلاً في البداية للاقتصاد بشكل خاص لأنني وجدت أنه لا سياسة بدون اقتصاد، أي كل ما نتحدث عنه في أمور السياسة ذو شقين: إما أن تكون السياسة مهنة كي يصل فيها الإنسان إلى عمل وزير أو نائب يمارس عمله السياسي، وأنا لم أكن أبداً من الراغبين بهذه المناصب ولا بهذه المسؤوليات، وإما أن تكون السياسة هي إدارة إمكانات الوطن، ليست الاقتصادية فقط بل الامكانيات المعرفية والثقافية والمالية أيضاً. فكان الاقتصاد بالنسبة لي ذا أهمّية بالغة وكنت فعلاً أتابع دراستي فيه تحت عنوان الاشتراكية العربية. وقد أصدرت وأنا ما أزال طالباً كتابي «المدخل إلى الاشتراكية العربية» الذي نُشر في ثلاث مكتبات في دمشق والقاهرة وبغداد، وبيع خلال عشرين يوماً، حتى أنه أعيدت طباعته دون موافقتي. ومع هذا الكمّ من الدراسة كنت أجد بعض الوقت لممارسة نشاط ثقافي أو فني حيث أنني لم أتوقف عن ممارسة التصوير، وكنت أذهب كل يوم ثلاثاء إلى السينما وكنا نحضر الأفلام الغربية، لا أذكر لماذا خصّصت يوم الثلاثاء للسينما ولكن

الجمهورية السورية

الجامعة السورية

إجازة في الحقوق

إجازة الحقوق التي حصل عليها عفيف البهنسي

كل أسبوع كان هناك فيلم جديد. وكان هناك مسرح ولكنني لم أكن من روّاده، ونادراً ما كنت أذهب اليه.

بعد اكتمال دراستي الجامعية تابعت التخصّص في الحقوق الإدارية. أردت أن أتابع دراسة الحقوق، ولم أرغب بالمحاماة لأنني وجدت أنّ الأمور ليست بمستوى رغبتي وهذا في نهاية الأربعينيات. أردت أن أذهب مع أساتذتي إلى القضاء، كان هناك أساتذة في كلية الحقوق أُجلّهم، مثل أحمد السمان وكان أستاذ الاقتصاد وهو قدير جداً، وقسطنطين زريق الذي كان رئيساً للجامعة الأمريكية في لبنان، وجاء رئيساً لجامعة دمشق. ومن الملفت للنظر أنه عندما تذهب للجامعة الأمريكية في بيروت تدخل في شارع مكتوب عليه شارع قسطنطين زريق وهو سوري. ولكن في دمشق لا يوجد شارع باسمه. هذا الإنسان العربي الذي يُعَدُّ واحداً من الذين قدّموا المراجع الأولى التي تعرّفنا على أهمية العروبة.

وفي وقت لاحق كتبت قصيدة أردت من خلال كلماتها أن أعبّر عن صادق احترامي لجميع الأساتذة والمعلمين، الذين أنفقوا عمرهم في بناء أجيال الطلاب من أمثالي:

يا سيدي ما زلتَ تمشي واثقاً ... وشامخاً في عزّةٍ نرنو إليكْ
ما زلت شيخاً عالماً، معلماً ... تبدي جواباً لم يكن صعباً عليك
علمتنا الأخلاق كنتَ واعظاً ... دفعتنا إلى العلى براحتيك
كم من سنينٍ صعبة قضيتَها ... في صفنا، وصعبنا سهلٌ عليك
رعيتنا كفلذة، كصبوة ... حلمتها كثروة، ملكاً لديك
قد كنت فينا قدوةً ووالداً ... ولم تكن معاتباً لجاحديك
بل راعياً طموحنا وواثقاً ... من فوزنا مستقبلاً على يديك

من ديوان أناشيد للوطن

شاهد على عصر الشباب

كانت منطقة الشعلان ومحيطها حافلة بالنشاطات الاجتماعية، في هذه المنطقة بالذات كان مقرّ حزب البعث العربي، ومقرّ الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكان فيها أيضاً النوادي الثقافية والفنية مثل النادي الموسيقي، والجمعية الموسيقية التي يرأسها عدنان الركابي ابن رضا باشا الركابي، وقد كان رجلاً ضريراً يعزف جيداً على آلة الكمان. وكان رُفقائي - كما يقول الدكتور البهنسي - يتدرّبون على يديه كما هي حال صادق فرعون ومطاع الصفدي اللذين كانا يتدربان على الكمان.

يستذكر الباحث الدكتور سامي عصّاصة، الذي يعيش في ألمانيا مغترباً منذ ثلاثين عاماً، تلك الأيام فيكتب:

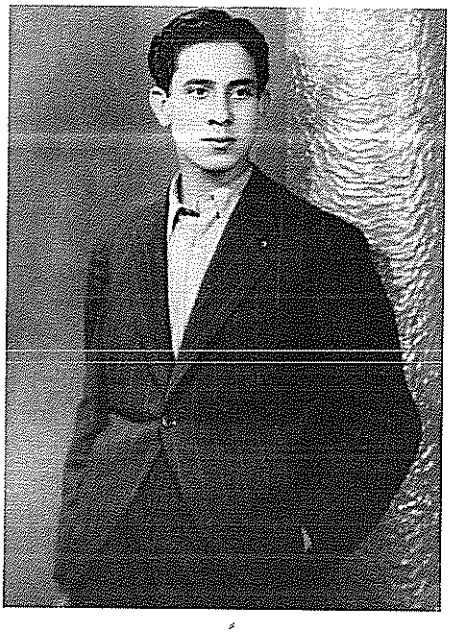

عفيف البهنسي شاباً، عام 1948

«لابد أن أشير بالبنان، بإصبعِ الاحترام والودِ إلى الرجل الشمولي، عالمَ الآثار، الأديبَ الشاعر الفنان المفكر والإنسان عفيف البهنسي. هناك جانب أعتقد أني سأتفرد بالتطرق إليه. اخترته لأنه بسيط وعفوي وصادق. سأتحدث عن الشاب عفيف البهنسي الذي ما زلت أذكر صورته المطبوعة في ذاكرتي عندما كنت أمارس ألعاب الشقاوة مع أقراني في حارة عصاصة بالمقربة من جامع الشنواني ومسجد الشعلان ووزارة الصحة. اخترت أن أصف عفيف البهنسي الشاب الوسيم الهادئ. وإني إذ أنسى فلن أنسى تميّزه بلباسه الأنيق وبحذائه اللماع النظيف في كل وقت وتسريحته الناعمة الجميلة. كان راقياً دون بذخ، وكان وضّاء الوجه دون شحوم أو دهون تعلو بشرته. كان عفيف عندما يمرّ بنا نحن الأولاد الطائشين الذين يلعبون «الدحل»[5] الذي كنا نسميه «الكاظوظ»، أو عندما نتراشق الكرة، نتهيّب مروره بالقرب منا فتخفت أصواتنا الصاخبة ريثما يمرّ بصحبة أصدقاء له، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأديبين الباحثين المفكرين الأستاذ مطاع الصفدي الذي كان يحمل آلة الكمان ذاهباً إلى النادي الموسيقي قرب بيته عند بستان السبكي أو عائداً منه. والأستاذ صميم الشريف، المفكر الهادئ الذي لا يثور مهما احتدم النقاش. كان هؤلاء أثناء سيرهم يتبادلون أحاديث فكرية بينما كنا نحن في عالم الدحل والكرة. وكنا نحترمهم فنهدأ ريثما يمرون لنعود بعدئذ إلى شقاوتنا».

أما الدكتور عفيف فيقول مستعيداً ذكريات الشباب الأول:

إلى جانب بيتنا كان هناك بيت يسكنه اللوائيون الذين جاؤوا من لواء اسكندرون، هؤلاء الشباب وعلى رأسهم زكي الأرسوزي ووهيب الغانم وصدقي إسماعيل

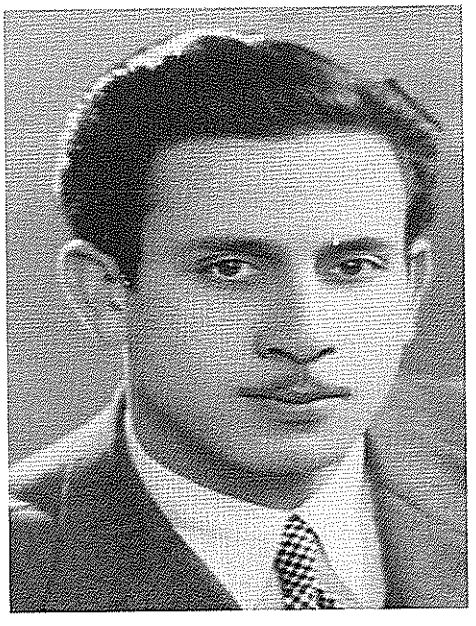
عفيف البهنسي عام 1960

وغيرهم كانوا قد نزحوا من بلادهم أنطاكية واسكندرونة بعد المؤامرة التي تمّت بسلخ اللواء من سوريه إلى تركيا نتيجة استفتاء كاذب وغير صحيح. والأكثر نبلاً بينهم وهيب الغانم، وهو طبيب وإنسان راقي جداً، كان يقدّم خدماته الطبية المجانية في مدينة اللاذقية، وكان هو أيضاً من جملة الأشخاص الموجودين في البيت المجاور لبيتنا. هذا البيت كان بلا أثاث إطلاقاً ولا أدري كيف كانوا ينامون، وكان مكتوبا على الجدار «نحن تحت ظل الأمة العربية»، أنا لا أنسى هذه العبارة أبداً .هؤلاء الشباب كانوا نموذجاً لرفض الاحتلال التركي لأرضهم.

أتذكر زكي الأرسوزي جيداً، إذ كان يعيش في غرفة في أحد البيوت وكان عَزَباً، وكان يذهب يومياً إلى مقهى الهافانا، وكنا نجتمع مع الأصدقاء في الهافانا، ومنهم جلال فاروق الشريف ومطاع الصفدي وعلي جبر وآخرون، لكي نسمع مما قرأه في الليل ونسمع آراءه في العروبة واللغة. كان إنسانا نبيلاً ومحدثاً بارعاً ومخلصاً في حديثه، وسياسياً ناقداً، وقد وضعت له ميدالية أهديتها إلى اتحاد الكتاب العرب بدمشق تكريماً لهذا الإنسان الذي بذل عمره كله فعلاً في النضال.

كان الهافانا ملتقى للمفكرين بشكل خاص، وللشعراء حيث كان يأتيه الشعراء حتى من خارج سورية. وبالمقابل كان ثمة هناك مقهى يقابل الهافانا إلى جانب جامع الطاووسية، هو مقهى البرازيل الذي كان للصحفيين غالباً، وللأشخاص الذين كانوا لا يهتمون بالفكر ولكن يهتمون باليوميات السياسية. في ذاكرتي خالد العسلي الذي كان يجلس في البرازيل، وهو الذي صمّم شعار العقاب السوري وكان دائماً ممسكاً بالورقة والقلم يرسم الكاريكاتير. المكتبة العمومية كانت تقع إلى

محطة الحجاز

جانب مقهى البرازيل ويملكها أديب خير، وتستوعب الكتب الأجنبية والعربية بشكل عام، وكانت من أضخم المكتبات في ذلك الوقت. وكان في سوق الحميدية مكتبة قديمة جداً[6]، وكانت موئل المفكرين، وكان صاحبها، على ما أعتقد، من المتابعين بشكل جيد جداً[7].

كانت المكتبات نوعين: إما التي تحيط بالجامع الأموي في المسكية، وتبيع الكتب القديمة غالباً وهي ذات أهمية بالغة ومنها مخطوطات، وللأسف أنها اندثرت. أو مكتبات جديدة، أقدمها وأضخمها المكتبة العمومية وكانت ناشطة جداً، وتنشر أحياناً بعض الكتب، وكانت كأنها فرع من المكتبة العمومية في باريس. كانت ثلاثة محلات وليست بناءً واحداً، وكانت تعنى بالكتب الأجنبية بشكل خاص، ثم جاءت مكتبة أطلس[8]، وكانت كبيرة أيضاً وأصبحت أصغر حجماً فيما بعد. هذه المكتبات هي مكتبات حديثة تختلف تماماً في أغراضها وموجوداتها عن المكتبات الموجودة في المسكية. وبعد الحرب العالمية كانت هناك نهضة في جميع المستويات المعمارية

والتعليمية حيث ازداد عدد المدارس بشكل هندسي، والإعلام والصحف والنشر، كل ذلك تم فعلاً بوتيرة متسارعة وشيئاً فشيئاً تزايد عدد المكتبات، وكانت مكتبة النوري[9] هي المكتبة الثالثة التي استطاعت أن تكون عربية محضة وساهمت في النشر.

مقهى البرازيل والمبنى المجاور الذي يضم «المكتبة العمومية» من إبداع المعمار الاسباني دارندا، الذي قام بتصميم محطة الحجاز، وإذا أردت أن أتحدث عن دارندا لا بدّ من تحية لهذا الرجل الذي عاش في سوريه لما يقرب من النصف قرن، واستطاع أن يشرف على كثير من الأبنية في منطقة نوري باشا وفي منطقة الحلبوني وله مآثر كبيرة جداً، ويعود له الفضل فعلاً في بناء محطة الحجاز، لأنه كما كتبت سابقاً كان قد نجح في مسابقة تصميم هذا البناء.

أما ما يسمى النزل، وهو قصر العابد أو بناء العابد الموجود في ساحة المرجة، فقد صممه مايسنر لـ عزت باشا العابد، وهو مهندس ألماني كان رئيس مهندسي الخط الحديدي الحجازي. وأعتقد أن هذا البناء لا مثيل له في أوروبا من حيث الجمال والتكامل، وأتمنى أن تقوم هيئات ما بامتلاكه وتحسينه وإعادة الحياة إليه كفندق، وسوف يصبح فندقاً عالمياً. أما «ساحة المرجة» والتي صار اسمها «ساحة الشهداء» بعد قيام جمال باشا بإعدام شهداء 6 أيار فيها، فقد أُسست كمركز لمدينة دمشق الحديثة، وتمّ وضع النصب الذي نعرفه جيداً، وعلى رأسه نموذج الشكل الكامل لمسجد، وقد وضعه دارنكو الذي صمم المسجد في قصر يلدز، في إسطنبول عندما زارها إمبراطور ألمانيا فتم إنشاء هذا المسجد خصيصاً بالقرب من ملحق لإقامة الإمبراطور. وهنا أريد أن ألفت النظر لنقطتين أكرّرهما على أن النصب الموجود في المرجة ليس فقط للخطوط البرقية، كما يقال، وإنما هو للخط الحديدي الحجازي كاملاً، بدلالة أنه اكتشفنا في جامعة إسطنبول صورة لذات النصب في مدينة حيفا ولكن مصغراً. وأضيف أن الكتابات الممسوحة على قاعدة النصب تدلّل أنه كان لتخليد ذكرى مدّ الخط الحديدي الحجازي، ويقال أن الذي مسحها هم جماعة «الاتحاد والترقي» الذين كانوا مناهضين للسلطان عبد الحميد.

النصب التذكاري في ساحة الشهداء (المرجة) وخلفه بناء العابد

أعود للقول إنني كنت أقضي في فترة الشباب المبكر ساعات الاستراحة في مقهى الـ هافانا مع أصدقائي، خاصة مطاع صفدي. كنا نتابع البحث في الفلسفة والتاريخ بحضور محاضرات الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بديع الكسم في كلية الآداب. وتابعت هواية الاستماع لروائع الموسيقا العالمية مع أصدقاء من أبرزهم صميم الشريف وعدنان الركابي، وكان يدير نادياً للموسيقا مع فريق من الهواة منهم الأستاذ مطاع صفدي والدكتور صادق فرعون، وقد أتقنا العزف على الكمان هواية وليس احترافاً.

وفي مجال الفن التشكيلي، وكنت أمارسه منذ أن كنت يافعاً بتوجيه الفنان ميشيل كرشه، شاركت بتأسيس جمعية أصدقاء الفن مع الفنانين محمود حماد وصلاح الناشف وأدهم إسماعيل ومحمود جلال وجاك ورده والسيدة منور مورلي، وكنا نقيم المعارض ونعلّم التصوير مجاناً للهواة في مقرها المواجه لمدرسة الفرنسيسكان.

في بستان أخضر في منطقة الهامة القريبة من دمشق، كان ثمة منزل بسيط يملكه الشاعر الفيلسوف عزمي موره لي، صديقنا الحميم أنا ومطاع، حيث نقضي معه أمسيات فكرية ونقاشات حادة أحياناً، وقد يشاركنا زائرون من أمثال الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، والأستاذ الفيلسوف بديع الكسم، والشاعر اللبناني خليل حاوي.

صادقت صميم الشريف، وكان جارنا، منذ الصغر، وبقيت صداقتنا مستمرة لآخر لحظة، كان يسمعنا الموسيقى الكلاسيكية دوماً، وقد كان سبب حبنا للموسيقا، كما كانت لديه طريقة مميزة في عرض الأفلام التي يراها، ففي الطريق بعد المدرسة كان يحكي لنا فيلماً شاهده بكل حذافيره ودقائقه، وكنا نلعب الكرة معاً. وبعد سنوات صار عديلي بعد أن عرّفني على أخت زوجته هبه شقيقة صلحي الوادي. وهي تحمل ماجستير في الآداب من الجامعة الأمريكية في بيروت وكاتبة لامعة لها كتابات معروفة، وتوفيت بعملية جراحية في موسكو، بفعل خطأ فادح من قبل الطبيب ولم يكن عمرها قد تجاوز الخامسة والأربعين[10] حيث كانت في ذروة الشباب رحمها الله.

عندما جاء صلحي الوادي من لندن كنت مديراً للفنون، وزوج شقيقته، وسعيت كي يكون موظفاً، وقد استقبل استقبال جيداً جداً، وأصبح مسؤولاً عن التدريس الموسيقي، ثم أصبح مديراً للمعهد العربي للموسيقا معهد صلحي الوادي حالياً، ومديراً فيما بعد للمعهد العالي، وهو متمكن جداً جداً من الموسيقا. درس الموسيقا في لندن، رغم معارضة والده[11]، الذي كان ذا مركز كبير ولديه مزرعة ضخمة وكان يريد منه أن يتابع أعماله، ولكنه أذعن لرغبته وأرسله مرة ثانية إلى لندن ليحصل على أعلى الشهادات وحصل على دكتوراه فخرية أيضاً، وتزوج هناك من السيدة سنثيا وهي عازفة جيدة على البيانو. كان صلحي قد ابتدأ عازفاً ولكنه أصبح مؤلفاً موسيقياً وقائداً موسيقياً. علاقتي بصلحي الوادي كانت جيدة جداً، وأنا أشعر أن هذا الرجل أفنى نفسه في خدمة الموسيقا، حيث لم يكن له أيّ اهتمام إلا بالموسيقا. لكن أعمق صداقاتي كانت مع مطاع الصفدي لتقارب الأفكار دوماً، وهو كاتب وشاعر وفيلسوف بكل معنى الكلمة،

المشفى الإيطالي بدمشق (مشفى الطلياني حسب التسمية الدارجة)

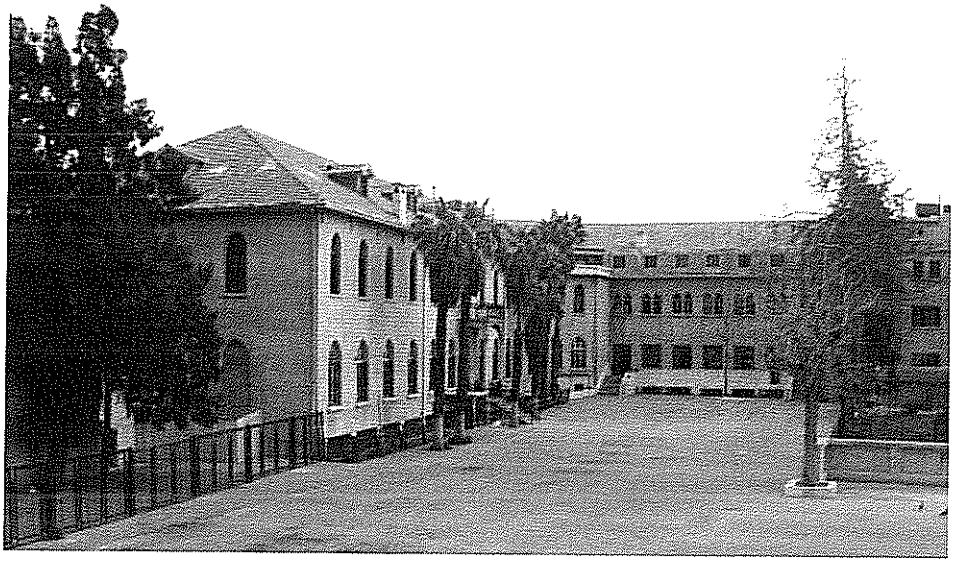

مدرسة الفرنسيسكان بدمشق (دار السلام)

وكنت أرافقه في هذه الأمور، وكان يحب الموسيقا أيضاً. أنا لم أعزف ولكنني كنت أشجع الموسيقا وأحبّها.

سورية مرّت بمراحل صعبة جداً، وخاصة أيام الانتداب الفرنسي الذي كان يقتضي بحسب نظام عصبة الأمم في جنيف أن ترشد السلطة الفرنسية سورية ولبنان على تحسين الوضع الإداري والاجتماعي، غير أن هذا في الواقع كان على حساب موارد سورية التي كانت كلها بيد سلطة الانتداب، التي كانت تغذّي بها جيش الشرق الذي كان موجوداً في هذه المنطقة. وتحقّقت بعض الإنجازات القليلة التي تتعلّق بإعادة ترتيب طريقة التعليم والحياة السياسية إلى آخره.

أريد، كما فعل عزيز العظمة في كتابه الأخير، أن نذكر تماماً تفاصيل زمن الانتداب بشكل خاص. كانت السلطة الفاشية في إيطاليا تسعى لكي تمتدّ الثقافة الإيطالية في البلاد وتتجاوز ليبيا التي كانت تسيطر عليها، وأرادت أن تقدّم في سورية بعض المنجزات التي تستطيع تقريب المسافة بين إيطاليا وبين سكان هذه المنطقة. الإنجاز الذي تمّ في ذلك الوقت، وخاصة قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية، هو إقامة المشفى الإيطالي والكنيسة والمدرسة، هذه الأبنية كانت فعلاً تقتحم النفوذ المعنوي لسلطة الانتداب لأن الأخيرة لم تكن قد أنشأت مؤسّسات بهذا الحجم.

أراد الفرنسيون أن يجاروا الإيطاليين، فأقاموا مدرسة الفرنسيسكان وهي عمارة ضخمة تمتد على مساحة واسعة من الأرض، وأذكر أن جدي كان يقول إنه شاهد أكياس الذهب التي بموجبها تمّ شراء هذه الأرض. وهي أروع شيء موجود في هذه المنطقة. وفيما بعد تمّ تنظيم الشارع كله، فأنشئت مديرية الصحة وأيضاً ما يُسمى بـ «النافعة» وهي مؤسسة الأشغال العامة وكذلك مبنى البرلمان عام 1930 تقريباً. كما أقام الفرنسيون مدرسة «الفرير» لكي تعزز الثقافة الفرنسية بحسب المنهاج التعليمي الفرنسي، وكذلك مدرسة «اللاييك».

مدرسة اللاييك بدمشق (معهد الشهيد باسل الأسد)

مكتب عنبر بدمشق

أعود إلى الأبنية الإيطالية، بوصفي أنني سجلت تاريخ العمارة في سورية، لأقول إن هذه المنشآت ذات طابع إيطالي محدّد. وأن جميع الزخارف التي تحيط النوافذ والأبواب والمداخل كانت قوالب جاءت كي يتمّ صبّها هنا وتقام بهذا الشكل على عكس الفن الباروكي قبل ذلك، فكانت بعض البيوت الباروكية مثل مكتب عنبر تأتي كاملة. كان هناك من يعمل على استيراد بعض الأشكال الفنية وهي دخيلة على العمارة المحلية. وأرادت السلطة الإيطالية أن تقحم نفسها بعملية أخرى، بأن تفسح المجال للشباب بأن يذهبوا إلى إيطاليا ببعثات دراسية، وذهب عدد كبير ليدرسوا الفن وعلى رأسهم محمود جلال وصلاح الناشف ورشاد قصيباتي وسهيل الأحدب، وأيضاً ذهب من درس الحقوق وعادوا كي يغذّوا الثقافة العامة بتأثيرات إيطالية.

العمارات التي أنشئت خلال فترة الانتداب، وهي ستٌ وعشرون سنة (1920-1946)، كانت محدودة ولا تتناسب مع الفترة الزمنية. ودمشق تحفل الآن بما يزيد عن خمسين بناءً ضخماً كلّها تمّت في فترة زمنية مماثلة، منذ مطلع السبعينات، وتحتاج إلى من يوثّقها وسأسعى إلى ذلك.

الفصل الرابع – المحكمة الجمركية والخدمة العسكرية

أمضيت دراستي في كلية الحقوق وتخرّجت منها عام 1950، ثم حصلت على الدبلوم في الحقوق الإدارية. وهكذا أنهيت هذه المرحلة الجامعية، وقد كنت مع ذلك موظفاً كأستاذ ابتدائي، وحصل فجأة في ذلك الوقت انفصال اقتصادي مع لبنان، حيث كان هناك بين لبنان وسوريه وحدة اقتصادية حيث الجمارك موحدة، والضرائب متقاربة، والنقد متقارب، وكان في دمشق مصرف لا يزال قائماً هو مصرف سورية ولبنان يصدر العملة السورية واللبنانية وكانت العملة متقاربة وموحدة تقريباً.

وعندما قام رئيس الوزراء خالد العظم بفصل الوحدة الجمركية مع لبنان لاختلاف المسار الاقتصادي بين البلدين[12]، أنشئت في سورية مؤسسة الجمارك السورية لأول مرة، وسمي مديراً لها القاضي عبد الوهاب الأزرق، وكان فطناً جداً وأراد أن يوظّف بشكل خاص خريجي كلية الحقوق كي يتسلموا مناصب في الجمارك[13]، فكنت سعيداً أن أنتقل من مرحلة كوني معلماً ابتدائياً إلى أن أكون موظفاً براتب أعلى، وأن أعتمد على شهادتي الجامعية التي لم أكن قد استفدت منها لعام أو عامين. عُيّنتُ رئيساً لمحكمة الجمارك كوني حاملاً لشهادة الحقوق، ولكن لم أقضِ في الجمارك وقتاً طويلاً لأنني دُعيت إلى الخدمة العسكرية عام 1956.

التحقت بالدورة السابعة في حمص أولاً ثمّ في حلب ثكنة ابراهيم باشا، وكان مدير الدورة العقيد غسان جديد، وكان من الرفاق علي أحمد سعيد إسبر الشاعر أدونيس ونبيه العاقل عميد كلية الآداب وعادل صدقي (المستشار) وعصام العظمة

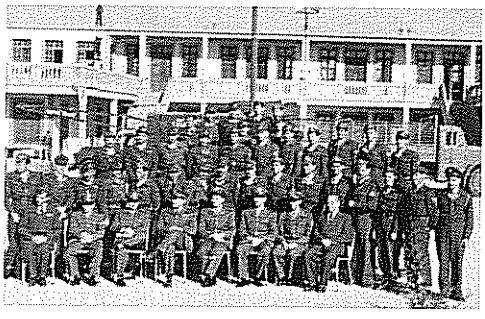

ضباط وطلاب الدورة السابعة

(مدير البنك العربي في جنيف) وجميل عبيد (معاون وزير)، وكنتُ شديد الحماسة لأداء هذا الواجب الوطني. ولكني لم أتردّد في نقد بعض المدرّبين الضباط لسلوكهم التعسفي الفظ، ولقد أيّدنا مدرب مثقّف هو الملازم الأول أحمد دباس الذي أصبح أميناً عاماً في وزارة التموين.

خلال فترات الراحة انصرفت إلى ممارسة الفن التشكيلي (الرسم والنحت) وإلى ممارسة النقد الفني، وكتابة القصة القصيرة في مجلة «الآداب» اللبنانية التي يرأسها الدكتور سهيل إدريس، ومنها قصة «الخبز والنسيان» و«وجهي المعفّر بالتراب». وقمت بترجمة كتاب «الغثيان» لـ جان بول سارتر. و«كتاب فانسان فان غوغ» للكاتب إيرفنغ ستون.

بعد تخرجي من كلية الاحتياط برتبة ملازم عُيّنت معاوناً لمدير مدرسة الإشارة، ومقرّها خلف بناء كلية الحقوق، وكان المدير الملازم الأول طارق الأتاسي وقائد سلاح الإشارة العقيد طارق الكيلاني. وفي هذه المدرسة أمضيت خدمتي العسكرية خلال عامين ونصف. بقيت كل فترة وجودي في هذا المكان نائباً لمدير المدرسة، أدرّب الطلاب وكان منهم الضباط ومنهم المساعدون، ولم أكن فعلاً مقاتلاً إلا في أثناء الحرب. ثمّ دعيت لدورات احتياطية. وتتابعت دعواتي إلى الخدمة العسكرية وكنت أنا من طلبت أن استبق الدورات، والسبب أن قريباً وصديقاً لي قد دُعي، فأردت أن أكون إلى جانبه وأن نقضي الفترة معاً. في هذه الفترة كنت أراقب شيئاً هاماً جداً: إلى أي مدى تكون الحياة العسكرية ذات أهمية بالغة بالنسبة لتقوية شعور الإنسان بالتزامه في خدمة الوطن، وتدريبه أن يكون جندياً مستنفراً في كل وقت. لم أتأفّف يوماً من ممارسة العمل هناك رغم خشونته، حتى أنني، كما قلت سابقا، اعترضت على سلوك بعض المدربين من حيث كلماتهم الاستفزازية، والسيئة أحياناً، لأننا كنا جميعاً حملة شهادات عليا وموظفين، منا القاضي

الملازم احتياط عفيف البهنسي

ومنا الأستاذ الجامعي. في إحدى المرات كنت أقدّم فحصاً على الآلة الحربية، فسألني المدرب أثناء الفحص: ما اسم هذه «الفرضة»، فتلكأت، وقلت: لا أعرف! فقال لي لماذا لم تسأل المدرب؟! فأجبته وهل يستطيع الإنسان أن يسأل مدرباً، ويتحمّل بعدها كلمات صعبة!! قال وكيف ذلك؟.. قلتُ: نحن هنا نشكو دائما من خشونة التعامل مع المدربين الذين لا يدركون أنهم أصغر منا سناً، وأقلّ منا مرتبة بالأصل، وعليهم أن يعلّمونا كيف نحافظ على كرامتنا. فأعجب تماماً بهذا الجواب، ولم يعاقبني عليه. ومع ذلك فإن أكثر المدربين كانوا على مستوى عال من الاهتمام بتدريبنا.

الحياة العسكرية كانت مدرسة فعلاً، حيث أنني لم أمرّ في أي مرحلة من المراحل ما لم أشعر أنني قمت بتجربة معينة وأن هذه التجربة مفيدة في حياتي العامة سواء في كلية الحقوق أو في ممارستي فيما بعد في الجيش، حتى أنني كنت أفكّر فعلاً أن أكون ضابطاً نظامياً ولكن لم يسعفني الحظ.

الفصل الخامس – الدراسة في فرنسا

عندما تخرّجت من دار المعلمين مارستُ التدريس الابتدائي لمدة ثلاث سنوات، وبعدها مباشرة حدث الانفصال الاقتصادي عن لبنان، وأسّست مصلحة الجمارك وكانت لي فرصة وحيدة لأن استعمل شهادة الحقوق، وأن أرتقي من معلم وأستفيد من إجازة الحقوق، وعيّنت رئيساً لمحكمة الجمارك على اعتبار أنني أحمل شهادة الحقوق.واستمرّ هذا عاماً أو اثنين، ثم ذهبت إلى الخدمة العسكرية سنتين ونصف، ودُعيت دعوات متكررة للخدمة العسكرية، إلى أن قُيّض لي أن أذهب إلى فرنسا، لمتابعة الدراسة بصفة غير موفد، وبنفس الوقت استطعت تأجير بيتي وأن أتحمل نفقات سفري، وكان ابني إياد صغيراً وكان علي أن أتركهم وأن أذهب وحدي.

وصلت إلى باريس عام 1957، وهناك التقيتُ بالأستاذ رينيه هويك، وهو أستاذ في كوليج دو فرانس، وكان قد عمل محاضرة في دمشق وتعرّفت عليه، وكان لـ رينيه هويك كتب مشهورة جداً، منها كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان «الفن والإنسان»، وهو المصدر الأول لتاريخ الفن والعمارة، وكان له كتاب ثان في هذا المجال أيضاً. وكان عضواً في الأكاديمية، وهو أعلى مستوى من أن يدّرس في الجامعات، لأنه في فرنسا توجد الأكاديمية والكوليج دو فرانس، وحينما يرتقي الإنسان إلى رتبة مؤلف ويصبح أستاذاً معروفاً يصبح عضواً في الأكاديمية، ويلبس لباساً معيناً ويحمل سيفاً كأنه تشريف له. ذهبت لزيارته وقلت له إنني أنوي عمل دكتوراه، فسألني بماذا أعمل حالياً، فقلت له إنّ لي حوالي عشرة كتب في مجال الفن، فقال لي لماذا لا يكون مجال الدكتوراه التي ستعملها الفنون فأنت مختصّ

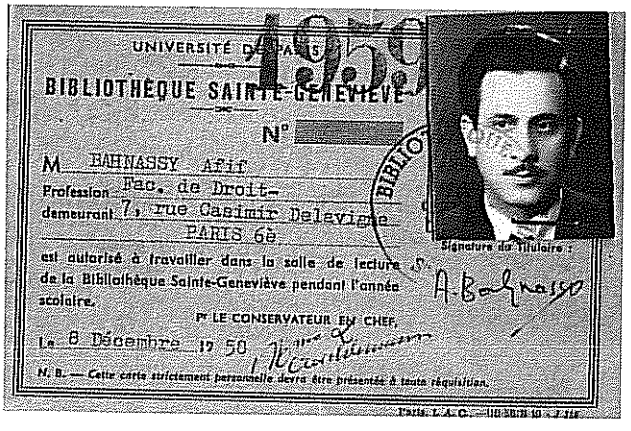

البطاقة الجامعية في باريس، 1959

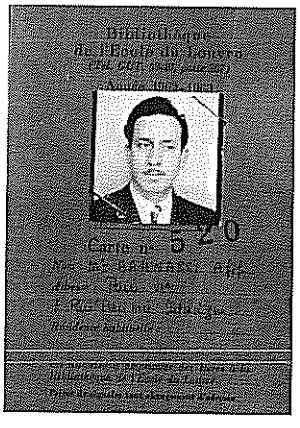

بطاقة (اللوفر) 1962

بالفنون، فقمت بالتغيير بدون أيّ مشاكل ولم يكن هناك أي شيء يجبرني على ذلك، ولكني وجدت أن هذا هو مكاني الصحيح..

حين عرضت عليه كتبي قال لي إنها باللغة العربية، ولكن مع ذلك سأقوم بمساعدتك لعمل دكتوراه (دوسيه)، قلت له: ما معنى دكتوراه (دوسيه)؟ قال لي أي أن تحصل على الدكتوراه من خلال مؤلفاتك، ولكنك ستجد صعوبة في ترجمة كتبك وإعطاء ملخصات عنها، فقلت له أنني أريد عمل دكتوراه طبيعية فقال لي أنه عليَّ الدخول إلى معهد الآثار والفنون التابع لمدرسة السوربون، وكان في لوكسمبورغ قريباً من الفندق الذي أقطن فيه. وبالوقت نفسه كنت أعمل في مدرسة اللوفر، وهي داخل متحف قصر اللوفر، وهذه المدرسة يحصل المتخرج منها على تسمية تلميذ قديم، وهي مدرسة حرّة فيها أساتذة كبار.

كنت أمارس التصوير، ولكن ذات يوم وأنا جالس مع غياث الأخرس، الذي كان يدرس الحفر في فرنسا، وهو فنان مبدع وموهبته واسعة جداً ورائد فن الحفر في سوريه، ومؤسس قسم الحفر في كلية الفنون الجميلة، قال لي غياث لمَ لا تذهب إلى معهد جوليان ومعهد أندريه لوت، وكانت هذه المعاهد مفتوحة بإدارة هؤلاء الفنانين لممارسة العمل الفني، وكانت دراسة حرة وليست أكاديمية. أما مدرسة اللوفر فكانت دراسة نظرية تماماً في تاريخ الفن وعلم الجمال والتشريح، وكان

أساتذتها من كبار المؤلفين. فقلت له إنني أذهب للتصوير من باب التسلية، وبعد فترة وجدت أن رسالتي عن الاستشراق في الفن تتطلّب فعلاً أن أقوم بزيارة بعض الدول العربية وأن أبحث هذا الموضوع في وطني. ذهبت إلى أستاذي، وكان اسمه جوليان، وقلت له إني مضطر أن أجري جولة لهذا الغرض، فقال إنه لا مانع لديه، وطلب أن أرسل له كل ما أجريه. وظللت أرسل له وأتواصل معه وأذهب لأقابله حتى أنني دعوته لإلقاء محاضرة في دمشق.

أجريت أول دكتوراه في «الفن والاستشراق»، وكانت مثيرة للاهتمام، لأنني لم أكتب عن الاستشراق بالشكل الذي تناوله الكُتّاب قبلي، فهو في المراجع الأخرى يتعلق بالاستشراق السياحي بمعنى أن الفنان كان يأتي إلى الشرق كي يصوّر الأشياء الشرقية الغريبة مثل العبيد والوصيفات والعادات وغيرها من هذه المواضيع. لكنني اخترت أسماء أخرى من كبار الفنانين الحديثين أمثال ماتيس ودولاكروا والمدرسة الوحشية، لذلك أصيبوا بالدهشة لدى معرفتهم كيف تأثرت الوحشية بالشرق، وكيف تأثر بابلو بيكاسو نفسه بالشرق، وكيف أن ماتيس تأثّر أيضاً، وكيف أن الفنان بول كلي الفرنسي السويسري تأثر أيضاً. لم يكن موضوعي كمواضيع الاستشراق الأجنبية، ولكنه كان موضوع استشراق فني بالمعنى الصحيح، حتى أنني عندما ترجمت جزءاً من كتابي سميته «أثر الشرق على الفن الغربي». فمثلاً أصبح بول كلي يُدخل الكتابة العربية، حتى أن ابنه فيليكس قال إن والدي أراد أن يتعلم اللغة العربية، وعاش في القيروان وفي تونس وصدرت كتبه عن بول كلي والقيروان. وعرضتُ في كتابي جميع الفنانين الذين أدوا الخدمة العسكرية في بلادنا، وليس فقط في سورية، وجميع الفنانين الذين ولدوا في البلدان العربية. واكتشفت أنه توجد في الجزائر مدرسة اسمها «عبد اللطيف» أنشأها الفرنسيون عندما كانوا يسيطرون على الجزائر وكان بعض الخريجين من باريس عندما يريدون دراسة الاستشراق كانوا يوفدون إلى مدرسة عبد اللطيف. وزرت المدرسة وصوّرتها وعرضت لكل الفنانين الذين درسوا فيها. لم يسبق لأحد أن كتب عن الاستشراق كما كتبت في الكتاب الذي قدمته لأنه من جانب مختلف تماماً، بمعنى أن الفنانين الحديثين استطاعوا أن يدخلوا إلى صميم الشرق ليس من خلال المواضيع فقط، وإنما من خلال جمالية الفن العربي الإسلامي وهذا ما ركزت عليه في كتابي، ولذلك كانت

المناقشة ناجحة جداً وأخذت شهادة الدكتوراه في تاريخ الفن في 9 حزيران (يونيو) عام 1964 بدرجة مشرف جداً، وبإشراف رونيه هويغ وأندريه جوليان وعضوية ريموند بروشفيك عميد كلية الدراسات الإسلامية والناقد الكبير رولان شاستيل.

كنت سعيداً أنني أنهيت مرحلة، وعادة عندما يقدم أي إنسان دكتوراه فإنه يرجع إلى مراجع عديدة جداً وهي تكون سنداً له في متابعة الكتابة، حيث لم يكن هناك كمبيوتر وحاسوب، أي أن العملية كانت شاقة جداً وكان من يقدّم الدكتوراه عليه أن يتابع الكتب لاستخلاص صفحة أو حتى سطرين، وكل ذلك كان يسجل ولم يكن هناك «غوغل» أو غيره. كان هناك عذاب في انتقاء الصور وكان عليك تقديم صور غير متداولة. كان هذا المشروع بداية أن أكتب في عالم الفن من خلال تفاصيل مفهوم الفن العربي، وقلت في رسالتي إن بول كلي هو الذي اكتشف أسرار الفن العربي الإسلامي، فكتاب بول كلي والقيروان كان يدل على ذلك، وثمة سيدة مستشرقة كانت على علاقة مع بيكاسو قالت: «لا أستطيع أبداً أن أنكر أن بيكاسو كان فناناً عربياً لأنه عاش في ملقة Malaga»[14]، وهذه المدينة بقيت تحت الحكم العربي لآخر لحظة، ومازال فيها تسميات جغرافية كثيرة عربية مثل الجبل والنهر... لم أشأ أن أقول إن بيكاسو عربي، ولكن قلت إنّ بيكاسو عاش في مناخ فتح له المجال أن يتجاوز الواقعية، لأن الفن الإسلامي والعربي هو فن البحث عن المطلق. هناك من بحث عن التجريد، ولكن هنا البحث عن المطلق بمعنى أوسع من التجريد.

هكذا كانت فترة وجودي الأولى في باريس، ورسالة الدكتوراه الأولى دفعتني إلى المزيد من البحث في أهمية الفن العربي الإسلامي. بعد ما يزيد عن خمسة عشر عاما وجدت أنه لا بد من أن أتوسّع في مفهوم الفن العربي الإسلامي، ومن حسن الحظ أنني وجدت أن هناك كتّاباً كباراً مثل بابادوبولو[15] وغيره كتبوا عن أسرار الفن العربي الإسلامي، ولكن من وجهة نظر محدودة. فمثلاً بابادوبولو أصدر كتاباً ضخماً كان رسالته في الدكتوراه وعنوانها «الإسلام والفن الإسلامي»، ثم أصدر كتاب «الفن الإسلامي»، وحلّل ذلك من وجهة نظر محدودة، وقد ناقشتُ رسالته فيما يتعلق بالمنظور اللولبي فوجدتُ أنه لم يستطع أن يعبر بشكل جيد، فكلمة لولبي جيدة ولكن معناها تصاعدي لذلك قلت بأن فننا تصاعدي إلى الملأ الأعلى وإلى المطلق وإلى غير المشخّص.

تحكيم دكتوراه الدولة 1978

مع السفير شكور

تحكيم دكتوراه الدولة 1978 مع السفير يوسف شكور بحفل التحكيم

حفظتُ باريس عن ظهر قلب لأنها تاريخ الفن وتاريخ العمارة وهي تاريخ تطور الفن. باريس لا يمكن أن تضاهيها أيّ مدينة في العالم، ولذلك كنت مشدوداً لـ اللوفر، وفيه مدرسة اللوفر، وقد أخذتُ شهادة منها وشهادتها تسمى تلميذاً قديماً، وكنتُ أحضر في أكثر من مدرسة ومعهد، فكنتُ أحضر أيضاً الرسم في معهدين.

عشت في باريس مناخي الذي أفضله ولم أضيع أيّ لحظة وأنا أنتقل من مكان لمكان، وكنت بالوقت نفسه أضع كتبي على الشوفاج وأقرأ، وقمت بتقوية لغتي الفرنسية أيضاً هناك. هذه الأمور كلها كانت تسير بشكل جيد وكان أستاذي جوليان له كتاب هام جداً هو «الآلية في الفن الحديث». وبقيتُ فترة وأنا أراسل أستاذي وأسافر لرؤيته، ودعوته لإلقاء محاضرة هنا وكان اسمه لوبوت، وكان موضوعي هاماً جداً وهو «جمالية الفن العربي»، أما الموضوع الأول فهو «الاستشراق في الفن»، وقد عملته كتاباً مختصراً باللغة الفرنسية وهو «الفن الحديث ينادي الشرق»، ولم أضع الاستشراق في العنوان حتى لا يحسب القارئ أنني أتكلم عن الاستشراق السياحي الذي كان موجوداً حيث كان يأتي الفنانون ويرسمون العادات والتقاليد والأشياء الغريبة. وقد عملتُ فصلاً عنهم في كتابي، ولكني كنت أركّز على الذين طوّروا الفن الحديث مثل ماتيس وبيكاسو وحتى دولاكروا.

وبعد انقطاع سنوات عدت إلى باريس لأحصل على شهادة دكتوراه الدولة من الجامعة ذاتها في 16 كانون الأول (ديسمبر) عام 1978 في فلسفة الفن العربي بإشراف جاك لو بوت. وترأس لجنة التحكيم العالم إيليسييفو وضمّت اللجنة الأعضاء الأساتذة ريمون وفيال ولود في قاعة كلوبير في بناء السوربون. وحضر النقاش سفير سورية يوسف شكور والصديقان مطاع صفدي وبدر الدين عرودكي ومجموعة من الأساتذة.

الباب الثاني - العمل الإداري والتعليمي

الفصل السادس - وزارة الثقافة

الفصل السابع - مديرية الفنون التشكيلية

الفصل الثامن - المعهد العالي للفنون الجميلة

الفصل التاسع - نقابة الفنون الجميلة

الفصل العاشر - في عالم الآثار والمتاحف

1- مديراً للمركز الثقافي

2- مديراً عاماً للآثار والمتاحف

3- أعمال التنقيب

4- اكتشاف مملكة إبلا

5- التنقيب تحت البحر

6- مراحل التنقيب

7- معرض الآثار السورية المتجول

8- الندوات الدولية في تاريخ سورية وآثارها

9- حماية المباني الأثرية والتاريخية وترميمها وتسجيلها

10- المتاحف

الفصل الحادي عشر – المنجزات الآبدة

الفصل الثاني عشر – جمعية أصدقاء دمشق

الفصل الثالث عشر – مع المنظمات الدولية

الفصل الرابع عشر – على منابر التدريس الجامعي

الفصل السادس - وزارة الثقافة

في عام 1958 تحقّقت الوحدة بين سورية ومصر، وأعلن عن ولادة الجمهورية العربية المتحدة برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر بعد أن تخلّى الرئيس شكري القوتلي عن رئاسة سورية. وكنت في مطار المزة بدمشق حين هبطت طائرة واقتربت إلى أقرب مسافة ممكنة من مبنى المطار، وفوجئت بالرئيس جمال عبد الناصر يطلّ منها، فكنت من أوائل مستقبليه، وما لبث أن عرف العاملون في المطار بالأمر فاستقبلوه بحماسة لا أنساها. كما لا أنسى استقباله التاريخي من الجماهير المحتشدة في أبو رمانة، وأتذكّر استضافته من وزير العدل نهاد القاسم والد صديقي هشام وجد الأخ سعد القاسم، حيث تجمع الناس بشكل عفوي أمام المنزل للترحيب بالرئيس.

بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة أُحدثت لأول مرة في سورية (الإقليم الشمالي) وزارة للثقافة والإرشاد القومي تقابل وزارة مماثلة في مصر (الإقليم الجنوبي). وأسندت هذه الوزارة للأستاذ رياض المالكي شقيق الشهيد عدنان المالكي، وتربطني به قرابة وصداقة.

في باريس قابلت صديقي عبد الله عبد الدايم وكان مديراً للثقافة في وزارة الثقافة وأصبح وزيراً للإعلام، وكنا في زيارة لأنطون مقدسي، الذي كان يدرّس الفلسفة، ونقل إليّ رغبة الوزير المالكي أن أنتقل إلى وزارة الثقافة فاستهواني ذلك، وعندما أنهيت أعمالي الأولية تقريباً عدت إلى دمشق وتسلمت عملي كمدير للفنون التشكيلية، ولم يكن عدد المسؤولين فيها يتجاوز عدد أصابع اليد وقد كانوا من المثقفين والعلماء. كان الدكتور عبد الدايم مديراً للثقافة فيها إلى جانب

زيارة الرئيس جمال عبد الناصر لمنزل وزير العدل نهاد القاسم الذي يقف إلى يمينه، ويظهر خلف الرئيس وزير الداخلية عبد الحميد السرّاج والمشير عبد الحكيم عامر

عالمين آخرين الدكتور إبراهيم الكيلاني والأستاذ عبد الهادي هاشم، والأستاذ ناظم الحافظ والأستاذ أنطون مقدسي. ونقل الدكتور يوسف شقرا أميناً عاماً في الوزارة وأصبح فيما بعد سفيرنا في برلين. هكذا أصبحت أصغر الزملاء سناً في وزارة لا تضم أكثر من عشرة موظفين، مستغلة بناء السفارة المصرية كمقر لها، ووضع المركز الثقافي التابع للسفارة المصرية تحت تصرف الوزارة ليصبح أول مركز ثقافي تابع لوزارة الثقافة. وكان فيصل شيخ الأرض أول مدير للمركز. ثم نقلت الوزارة إلى بناء لائق في شارع الروضة. وانضمّت إلينا غادة الجابي التي أصبحت فيما بعد وزيرة العمل والشؤون الاجتماعية. وأنا أشيد بدور وكيل الوزارة وهو الذي سير الوزارة وأعطى الفرص للمديرين لكي يبادروا لأن الوزارة لم يكن لديها أيّ برنامج عمل. يوسف شقرا رجل قدير وذو شخصية ممتازة، هو ليس أديباً وليس فناناً، ولكنه كان حقوقياً، ويستطيع فعلاً أن يفهم ماذا تعني وزارة الثقافة، وقد أصبح سفيراً بعد مغادرته الوزارة، وتوفي مبكراً، وأنا أذكره دائماً بالخير لأنه أرسى تقاليد هامة لوزارة الثقافة.

مع الدكتورة نجاح العطار والروائي حنا مينه، 1978

كان الوزير رياض المالكي محامياً مرموقاً، وله مكانة كبيرة بين الناس نمت أكثر إثر مقتل شقيقه عدنان المالكي، وكان من كبار المثقفين، وقاد الوزارة في بدايتها، وكان أسلوبه في العمل هو تشجيع العاملين والمديرين لتأسيس مناهج إنجاز مهام وأهداف الوزارة. لكن الذي حدث للأسف الشديد، وأنا أقولها للمرة الأولى، أن السفارة المصرية أعطتنا بناءها وأعطتنا بناء المركز الثقافي التابع لها، ولم يكن لدينا سوى هذين البناءين الصغيرين جداً. بقي في بناء الوزارة رجل مخابرات مصري يعيش في غرفة في الطابق العلوي اسمه عدلي حشاد، وقبل أن يصبح موظفاً في السفارة كان أستاذاً في دار المعلمين، وأنا أذكره تماما، وفوجئت بأنه موجود لدينا وأصبح يتدخّل في شؤون الوزارة لدرجة أنه اصطدم مع الوزير الذي قام بطرده، وكان نتيجة هذا العمل قيام السلطة في القاهرة بإقالة رياض المالكي. كان حدثا مفاجئا للسوريين، وبخاصة إلى أكرم الحوراني عرّاب الوحدة، الذي غادر القاهرة غاضباً للقاء إخوانه من الوزراء والضباط، وكانت بداية الحركة الانفصالية. وتعاقب على الوزارة عدد من الوزراء كان من أبرزهم الدكتورة نجاح العطار التي حققت إنجازات بارقة، وتم في عهدها إنشاء بناء المكتبة الوطنية

وبناء دار الأوبرا وملحقاته. واستمرت في عملها ما يزيد عن ربع قرن ثم أصبحت نائب رئيس الجمهورية، واستمرت بمرافقتها الآنسة ذكاء الجابي كمديرة لمكتبها. أنا أريد أن أحيي رياض المالكي لأنه كان إنساناً شهماً ومؤسساً حقيقياً لوزارة الثقافة[16].

كان على الوزارة أن تحدّد الأهداف وتنطلق لتحقيقها من نقطة الصفر. وكانت وسيلة ذلك إنشاء الفرق الفنية وإصدار ونشر المؤلفات التراثية والمعاصرة وتفعيل مجلة المعرفة التي استقطبت الكتاب والمثقفين بإدارة الأديب فؤاد الشايب، وفيها شاركت بكتابة عشرات المقالات الفنية.

ورفدت الوزارة بعد ذلك بمجموعة من الشباب المبدعين اللامعين في مجال الثقافة، كان لها الفضل في إرساء مسارات الفنون، ففي مجال المسرح كان رفيق الصبان قد نقل فريقه المسرحي المؤلف من نخبة المثقفين، إلى الوزارة لإنشاء إدارة المسارح وقيادة الفرق المسرحية التي استقطبت كبار الممثلين والمخرجين. وفي مجال السينما، كان للناقد صلاح الدهني دور كبير في إنتاج أفلام رعتها الوزارة، وفي تطوير إدارة السينما وتحويلها إلى مديرية عامة أنتجت العديد من الأفلام. ولقد غطى الدهني النشاط الإعلامي تغطية ناجحة. وفي مجال الموسيقا كان صلحي الوادي قد ترأس منذ عام 1963 دائرة الموسيقا ثم قام بإنشاء المعهد العربي للموسيقا، واستمر بإدارته حتى بعد تسلمه زمام المعهدين العاليين للموسيقا والمسرح إضافة لمدرسة الباليه. ويعود له الفضل بإنشاء الفرقة السيمفونية وقيادتها.

من الأعمال الرائدة التي تأسست في وزارة الثقافة كانت مجلة المعرفة، وهي مجلة شهرية تصدر على هيئة كتاب، وعُين رئيساً لتحريرها فؤاد الشايب الذي كان مديراً للمطبوعات قبل الوحدة، وهو رجل له مكانة ودور كبير، ويكتب بشكل قوي جداً، وجميع كتاباته الموجودة في نهاية أعداد المجلة كانت تدل على ثقافة واسعة وتلخيص لما يتم كتابته فيها. ثم عين أميناً عاماً في وزارة الإعلام عندما أصبح عبد الله عبد الدايم وزيراً للإعلام.

بدأت الكتابة في مجلة المعرفة منذ العدد الثالث، وكان لي صفحة خاصة وقد كانت لدي الأعداد القديمة كلها لكنها مع الأسف احترقت مع الحريق الذي حدث في بيتي. ومازالت مجلة المعرفة مستمرة حتى اليوم، وقادها في السنوات الأخيرة علي القيّم، واستطاع أن يرفع من شأنها، وأن يوسع عدد الكتّاب ويرفع من سويتهم، وازدهرت بشكل جيد، وكنت أتمنى أن يستمر في إدارة هذه المجلة.

الفصل السابع - مديرية الفنون التشكيلية

أسستُ مديرية الفنون التشكيلية وكان على كل مدير أن يضع ملاكاً، فوضعت ملاكاً مؤلفاً من عدة دوائر: دائرة النصب التذكارية، ودائرة المعارض، ودائرة المقتنيات، ودائرة الفنانين، وعينت في هذه الدوائر فنانين منهم النحات القدير جاك وردة وعبد القادر أرناؤوط، وقد قمت بنقله من وزارة الأشغال العامة إلى المديرية في أول يوم تسلّمتُ فيه المديرية، وطارق الشريف وكان أستاذاً في الحفّة، وتوسّط له أخوه جلال فاروق الشريف[17] فقمت بنقله إلى المديرية.مع غازي الخالدي، وهشام زمريق الذي ترك العمل بعد ذلك واشتغل في الخزف ونجح نجاحاً كبيراً، وافتتح معملاً لصالحه وأصبح مستقلاً بذاته. وقد كان كامل أعضاء هذه المجموعة نشيطين جداً، واستطاعوا أن يتسلموا الأعمال في هذه الدوائر وكانوا فعلاً مساعدين ممتازين. وقمنا بتأسيس مراكز الفنون التشكيلية والتطبيقية، وهذا الأمر لم يسبقنا إليه أحد من الدول العربية. ابتدأنا بدمشق، وانتقلنا إلى المحافظات: حمص وحماه وحلب، وعينت في هذه المراكز الأشخاص المقيمين في هذه المدن كي يديروا هذه المراكز، ويستقبلوا الموهوبين لصقل مواهبهم وإعطائهم شهادات، بعد برنامج مكثف لمدة سنتين. وأعتقد أن مراكز الفنون التشكيلية التي ما تزال موجودة والتي انتشرت في كل المحافظات كان لها دور هام جداً، ولكن كنت أتطلع إلى إنشاء كلية الفنون.

وجدت أنه من الضروري منذ السنة الأولى لأيام الوحدة أن نستمر في إقامة المعارض التي كانت تقام سابقاً. كان الدكتور سليم عادل عبد الحق، مدير عام الآثار[18] قد أقام معارض سنوية في المتحف الوطني بمبادرة منه، وكانت تقوم على

مبدأ إعطاء الجوائز، وقرّرت ألا يكون هناك جوائز بل أن يكون هناك اقتناء. وفي معرض الخريف الأول الذي أقمناه عام 1959 قمنا بشراء كل الأعمال المعروضة على الإطلاق، وعملنا اجتماعاً في القاعة الدمشقية، ووزّعنا عليهم ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية[19]. أريد أن أقول إنه حتى الفنان المتخرّج من كلية الفنون إذا لم يعدّ نفسه هاوياً لا يستطيع أن يكون فناناً، الفنان يعيش فترة طويلة وهو يتكسّب من عمله، وليس من عائدات عمله، إلى أن يأتي وقت تكون فيه أسواق للفن تستطيع أن تقدّر عمله وأن تتزاحم عليه، كما يحصل الآن في دول الخليج. لكن عندما أقمنا المعرض الأول هنا في دمشق أيام الوحدة اشترينا لوحات بخمس وعشرين ليرة، وبخمسين ليرة، واشترينا المعرض كله، لكن الذي بيعت لوحته بخمسين ليرة سورية كان أول مرة يحصل على خمسين ليرة، وقد قال لي أحدهم إن هذه الخمسين ليرة هي التي دفعته لمتابعة عمله. كانت العملية ناجحة لسببين: أولاً لأننا أرضينا الفنان، وثانياً لأنه أصبح لدينا مقتنيات، فقبل ذلك كان المتحف يجمع لوحتين أو ثلاثاً من المعرض، بينما أصبحنا نشتري حوالي الثلاثين لوحة. وبدأنا بتكوين دائرة معارض ودائرة مقتنيات ودائرة نصب تذكارية وغيرها من دوائر مديرية الفنون التشكيلية. وكانت هذه المبادرة لإعطاء الفنانين فرصة كي يدخلوا في غمار نشاطات المديرية من خلال معرضي الخريف والربيع اللذين كانا يقامان في المتحف الوطني باحتفال جيد وبمناصرة الإعلام. وكانت دائما تتشكل لجنة اقتناء[20] وأغنينا السفارات ووزارة الثقافة والمتحف الوطني بالمقتنيات التي كان يتم اقتناؤها تشجيعاً للفنانين. وجدنا فيما بعد أنه من الممكن أن نقيم معرض الربيع خارج دمشق وخاصة في مدينة حلب ولكن هذا لم يكن مستمراً وكان متنقلاً. وأصدرنا أول كتاب عن الفنانين السوريين بعنوان «الفنون التشكيلية في الأقليم السوري» لإعطاء الفنان حقه من التعريف. كان كتاباً بسيطاً جداً إلا أننا ابتدأنا به بتقديم حياة الروّاد، ووضعنا فيه صورة الفنان وحياته وأعماله ودراساته. كان هذا الكتاب من تأليفي، ومعه بدأت بالكتابة عن الفنانين السوريين بشكل أوسع.

وضمن هذا التوجّه أنشأنا متحفاً لـ توفيق طارق وعملنا له قاعة خاصة في مركز الفنون التشكيلية (مركز وليد عزت للفنون التطبيقية حالياً) جمعنا فيها ما استطعنا الوصول إليه من لوحاته، فاستعرنا خمس لوحات كبيرة من مجمع اللغة

العربية ووضعناها في القاعة، وكان لدى ابنة توفيق طارق اللوحة الشهيرة «معركة حطين» فذهبتُ إليها لشرائها، وطلبَت ثمنها 3500 ليرة سورية ووافقنا على المبلغ، فقالت إنّ هناك أربع لوحات صغيرة نستطيع أن نأخذها مع لوحة معركة حطين كهدية. ولم أعدّها هدية بل عدّتهم من أصل المبلغ المدفوع. وتم تسجيلهم في محضر الشراء، من هذه اللوحات وجه جميل يرتدي الطربوش وراعية غنم في تدمر. وقد وضعناهم جميعاً في متحف توفيق طارق، وبعد فترة جاء المفتش مطيع المرابط وقال إن هذا لا يجوز لأنّ المكان غير مؤهّل ليكون متحفاً، فأجبته إنّ هناك حراسة وإننا قمنا بتكريم الرجل وعملنا كتيباً عنه، ولكنّه أصرّ على موقفه فتم إغلاق المتحف، وقمنا بإرجاع اللوحات المستعارة إلى مجمع اللغة العربية. ثم قام وزير الثقافة بإهداء اللوحة الكبيرة «معركة حطين» إلى السيد الرئيس حافظ الأسد، وبقيت اللوحات الأربع الصغيرة في مديرية الفنون[21].

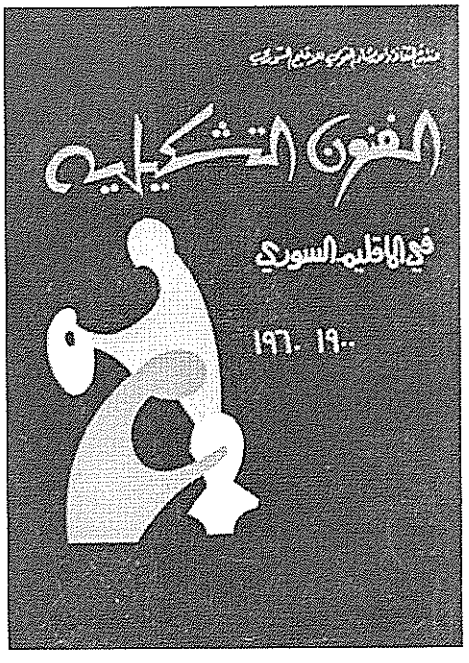

غلاف أول كتاب عن الفنون التشكيلية في سورية

استمر عملي مديراً للفنون الجميلة إلى عام 1970، وكان عليّ تنظيم المعارض السنوية والدورية والأجنبية الوافدة، وإرسال معارض خارجية، وتأسيس مراكز للفنون التشكيلية والتطبيقية، وإقامة النصب والتماثيل، مثل تمثال «العربي الثوري» من عمل الفنانين محمود جلال وعبد السلام قطرميز ووديع رحمة، وتمثال «المعري» لفتحي محمد، وتمثال «شهداء عامودا» لمحمود جلال، وتمثال «أبي فراس الحمداني» للنحات جاك وردة في حلب، وتمثال «العامل» لنشأت رعدون. وقد كتبت يوماً في مذكراتي:

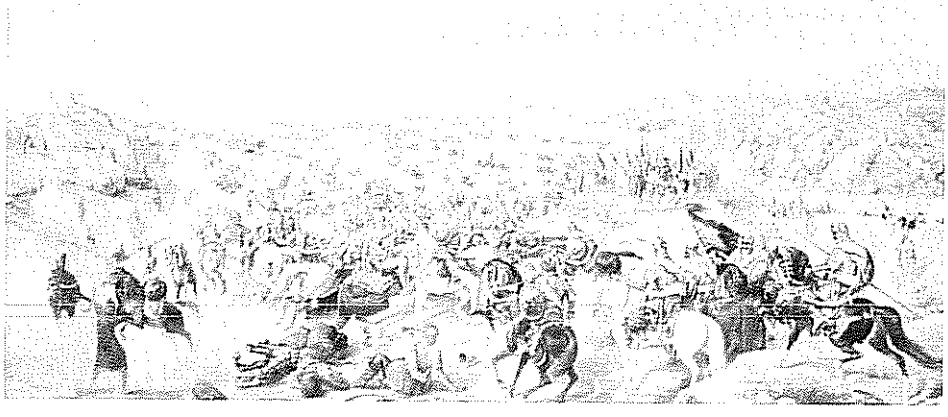

لوحة «معركة حطين» لـ توفيق طارق

«كان عملي كمدير للفنون الجميلة منسجماً مع رسالتي في توسيع نطاق الحركة الفنية التشكيلية، في إعداد برامج إذاعية ثم تلفزيونية مخصّصة للفنون الجميلة وفي دعم المكتبة العربية بالمصادر والمراجع الضرورية لرفد الثقافة الفنية، وكان مشروعي منذ البداية أن أدعم حركة تأصيل الفن بإبراز جمالية متميزة للفن العربي القديم كي تكون عوناً للفنان المعاصر في تعميق الهوية العربية في الفن الحديث. وكان يساعدني لأداء مهامي فنانون أصدقاء رشحتهم للانضمام إلى المديرية : جاك وردة، عبد القادر أرناؤوط، هشام زمريق، غازي الخالدي، طارق الشريف، د. قتيبة الشهابي، سعيد نصري، عبد السلام قطرميز، خيري صدقي، فهد جباصيني..

وأهم المنجزات في مديرية الفنون الجميلة إنشاء مراكز للفنون التشكيلية والتطبيقية تعمل على احتضان المواهب لتقويتها وتمكين المنتسبين إليها لصقل ملكاتهم وهواياتهم الفنية. ولقد استفاد خريجو هذه المراكز بعد حصولهم على الإجازة بممارسة الفن. وتوسع عدد هذه المراكز في جميع أنحاء البلاد، ومازالت موئلاً للطلاب الذين آثروا ممارسة الفن بصورة حرة بعيداً عن الشروط الجامعية ومن أبرزهم العقيد وليد عزت والمهندس وليد سيروان، وكان للزميلين غازي الخالدي وطارق الشريف دورهما الكبير في إنجاح مهام هذه المراكز.

لم يكن الهدف من إدارة الحركة الفنية إنجاز عمل مكتبي، بل كان تحقيق رسالة تساعد في خلق نهضة فنية على الساحة العامة، وتجلّت هذه النهضة في إحداث المراكز وإحداث كلية الفنون الجميلة. لا يكون العمل الإداري ناجحاً لمجرّد حسن تطبيق القوانين والأنظمة والبرامج، بل لا بد من احترام حقوق جمهور المتعاملين خارج الإدارة في تحقيق مكاسب عامة وبخاصة في قطاع الخدمات وهو قطاع وزارة الثقافة».

تحت عنوان «عرفته مديراً للفنون الجميلة»، يقدم الفنان ممدوح قشلان شهادته عن عمل الدكتور عفيف البهنسي كمدير للفنون التشكيلية والتطبيقية فيقول:

«لقد تسلم مسؤولية أول مدير للفنون الجميلة (التشكيلية والتطبيقية) في عهد الرواد الكبار ذوي الخبرات الأصيلة والشخصيات الفنية المميزة والمتنافسة، ومع ذلك فقد استطاع أن يتفاعل معها جميعاً ويقودها في أنشطة مشتركة، لها بداية وليس لها نهاية. إذ تملّك ناصية الأمر من جانبيه الفني والإداري، الفني كما ذكر كان له نشاط معترف به بجدارة، وإداري أثبت كفاءته، يملك خبرات عميقة في هذا المجال عبر مسؤوليات سابقة. من المعروف في الإدارة أن قيادة العمل مع الناس العاديين يحتاج إلى نوع من الشفافية والدبلوماسية وأساليب احتواء مبدعة كي ينجح المسؤول، فما بالك بإدارة تشرف على النشاط الفني والتعامل مع مجموعات وشخصيات ذات أمزجة ونزعات متباينة؟ لكل فنان عالمه الخاص، وله طلباته التي لا تنتهي. إلا أن عفيف البهنسي استطاع أن يستوعب الجميع، ويتعامل مع كل فنان منهم بما يجعله يشعر بأهميته وتفوّقه وتفرّده، فكان التعاون مثمراً إلى أبعد الحدود مع الجميع. فكان عفيف البهنسي مدير الفنون الأول الذي شغل المنصب على مبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب فحقّق بمبادرات غير مسبوقة إنجازات كبيرة، منها:

1- فعّل النشاط الفني على أوسع نطاق وبشكل غير مسبوق.

2- أوجد الثقافة الفنية بنشر الكتب والمطبوعات الفنية.

تمثال الجاحظ في الحديقة التي تحمل اسمه في دمشق

3- عمّم الممارسة الفنية في أغلب المحافظات بتأسيس مراكز الفنون التشكيلية والتطبيقية.

4- عمل على تنشيط الحركة الفنية بالمعارض الدورية والنوعية والأجنبية.

5- نقل المعارض إلى المحافظات في جولات لا تنتهي.

6- عمل على تنشيط اقتناء الأعمال الفنية لمختلف دوائر الدولة والجهات العامة والخاصة».

المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تأسّس المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية في دمشق أيام الوحدة، ومازال مقره هنا قريباً من شارع الجلاء، لكي يكون نظيراً للمجلس الأعلى في القاهرة وقد كانت خطوة هامة جداً. كان مؤلفا من مجلس إدارة ومن لجان ومنها لجنة الفنون، وكان رئيسه يوسف السباعي[22]، الكاتب الكبير، وكان هو المسؤول عن المجلس الأعلى في القاهرة، وعندما قابلته عينني مقرراً للجنة الفنون

التشكيلية التي كانت تضم كبار الفنانين، وكانت مهمة اللجنة أن تقدم اقتراحات بناءة لوزارة الثقافة وللفنانين ولغيرهم.

كان علينا أن نهيئ برنامج الموسم السنوي الذي كان يحمل اسم أحد كبار الأعلام، وتطوعت لإقامة تماثيل لهم أمثال الفارابي والجاحظ تصب بالبرونز وتوضع في الحدائق العامة، وكنت أقدّمها كهدية، ولم أضع عليها سوى حرفي A وB لأنني لم أكن أمارس الفن كمهنة.

فتحي محمد مع تمثال «المعري»

أما تمثال أبو العلاء المعري فقد قام بصنعه فتحي محمد قباوة الذي درس في روما، وكان من كبار النحاتين والمصوّرين، وقد كرّمته عندما كنت مديراً للفنون، وعملت جناحاً لأعماله في مركز الفنون التشكيلية بحلب، وتحمّلت الوزارة نفقات نقل أعماله من روما. نقلنا تمثال المعري من حلب وأرسلناه للقاهرة، وكان هناك شخص اسمه أحمد الشعيرة قام بصبه بالبرونز، وقد وضعنا التمثال في الحديقة التي تحمل اسم المعري في ساحة الروضة أعلى شارع الجلاء، ولم يكن مثبتاً أوّل الأمر ووجدناه بعد أيام مرمياً في آخر الطريق، فقمنا بإعادته إلى مكانه وتثبيته، والنسخة الأصلية موجودة في المكتبة الوطنية في حلب. أما التمثال الموجود في المعرة فقد تم صبّه في دمشق حيث تم استدعاء البلغاري كومانوف لأجل ذلك.

ولكننا وجدنا أن لدينا موازنة فقمنا بعمل رائد، حيث كلفنا الفنانين والمؤرخين في الهيئة العامة للآثار والمتاحف أن ينجزوا كتباً صغيرة، ولكننا قمنا بعملية ذكية وهي أن نتعامل مع دار نشر لتنشر هذه الكتب على نفقتها، وأن تقدم لنا عدداً محدوداً من هذه الكتب وتبيع الباقي، وكان هذا عملاً ناجحاً جداً، ذلك لأن المكتبة

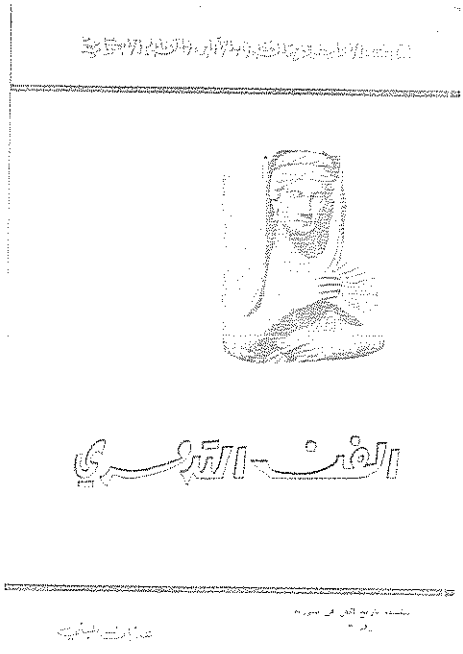

من أوائل الكتب التي صدرت عن الفن وتاريخه

قامت ببيع أعداد كبيرة، وكانت مكتبة أطلس هي التي تبنت الطباعة والتوزيع، ونشرنا عدداً من الكتب لـ ديلاكروا ورامبرانت، وكتباً عن الفن الآرامي والآشوري والهلنستي والتدمري وغيرها وهي عشرة كتب صغيرة، وقد كانت كلها تأسيسية لأنه لم يكن هناك أي نشر سابق، وكانت المبادرة مني شخصياً، لأنني أعرف الكتّاب، وأعرف ما يجب أن نقدم للقارئ من معلومات تتعلّق بتراثنا، وبتاريخ الفن والحضارة. وقام بتصميم أغلفتها عبد القادر أرناؤوط.

الفصل الثامن - المعهد العالي للفنون الجميلة

بموجب عملي مديراً للفنون التشكيلية كنت مضطراً في أيام الوحدة أن أسافر إلى القاهرة لكي أتعاون مع المدير المركزي هناك الدكتور سامي دروبي، وكان الوزير المركزي العلامة ثروت عكاشة الذي زار دمشق في العام الثاني للوحدة داعماً نشاطات الوزارة في كل المحافظات. وكانت بداية التعاون والصداقة معه وتبادل الآراء. وقد أهداني مجموعة من مؤلفاته الهامة، مما دفعني للكتابة عنه موسعاً في مجلة (وجهات نظر) في القاهرة. وفي الكتاب المخصص له الذي صدر في الكويت عام 1998.

قال لي: أنا أدعوك لحضور حفل افتتاح كلية الفنون في الإسكندرية. فقلت بإذن الله سأدعوك إلى حفل افتتاح كلية الفنون في دمشق، فتفاجأ بعدم وجود كلية للفنون في دمشق، وقمنا بتأسيسها بمرسوم صدر عن الرئيس جمال عبد الناصر، وكانت القاهرة قد أسست مثل هذه الكلية منذ عام 1908. وأحدثت كلية للفنون الجميلة في الإسكندرية في عام 1958، وكان للوزير فضل الاستجابة في إحداث معهد عال للفنون الجميلة في دمشق عام 1959، معتمداً على نظام كلية الإسكندرية. وعندما عدت إلى دمشق استقبلت الطاقم الإداري والتدريسي المؤلف من أساتذة مصريين لهم خبرة في التعليم الفني العالي، وكان منهم العميد حسين فوزي وأستاذ النحت أحمد عاصم وأستاذ التصوير عباس شهدي. واشتركنا في وضع نظام المعهد.

وتسلمت وزارة التربية والتعليم لأول مرة مهام التعليم العالي. وكان المعهد يضم قسماً للهندسة المعمارية وقسماً للتصوير وقسماً للنحت وقسماً للحفر وآخر

طاقم المعهد العالي للفنون الجميلة عام 1960- من اليمين: د. حسين فوزي- حسين بيكار - د. عفيف البهنسي - عباس شهدى - أحمد عاصم

للتصميم الداخلي (الديكور). وبعد أن تأسس المعهد بقينا سنة أو أكثر ونحن في المتحف والتكية بدون مقرّ لأننا كنا نجهز المبنى في البداية أخذنا بناية في العفيف مازالت موجودة إلى الآن خلف الحديقة الصغيرة تماماً، على الرغم من أنه كان لدينا موازنة بمليون ليرة لإنشاء بناء للمعهد، بعدها انتقلنا إلى شارع بغداد ولكن ليس البناء القائم في ساحة التحرير بل إلى مكان آخر في منتصف الشارع الأزبكية، جلسنا في العفيف ما يقارب أربع السنوات، وأتى المصريون بالأثاث، وبقينا نستخدمه حتى بعد أن انتقلنا إلى الساحة، وكان أغلبه من المعدن، ثم جلسنا سنتين في منتصف شارع بغداد قبل أن ننتقل إلى ساحة التحرير في آخر شارع بغداد.

ويدير هذا المعهد مجلس يرأسه العميد مؤلف من رؤساء الأقسام ومن مدير الفنون الجميلة بوصفه عضواً مؤسساً. وفي عام 1965 أصبح المعهد كلية تابعة

لجامعة دمشق. ثم انفصل قسم العمارة عن الكلية لكي يصبح كلية في بناء مستقل عن بناء كبير لكلية الفنون تم تصميمه من مهندسين ايطاليين بإشراف عميد الكلية الفنان محمود حماد، وتدقيق الدكتور عبد الرؤوف الكسم العميد السابق ورئيس مجلس الوزراء لاحقاً. وقام الفنان غياث الأخرس قبل سنوات قليلة بإحداث المركز الوطني للفنون البصرية في القسم الأمامي من البناء.

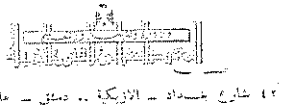

الوجه الخلفي للبطاقة وعليه عنوان المبنى الأول

بطاقة أستاذ في المعهد

في بداية الكلية كان هناك مجموعة من الأساتذة الذين قد لا يتوفر مثلهم في كثير من كليات الفنون في العالم، حيث أتانا بولونيون وفرنسيون وألمان، وكانت الكلية عامرة بالأساتذة العباقرة مثل أستاذ النحت تيودوروف وكان فنان الشعب ببلغاريا وقد صنع الكثير من الأعمال الجميلة، والنحات البولوني زيبروسكي الذي كان يقدم للطلاب أعاجيب في تحويل ورقة إلى تمثال، وكان الطلاب مندهشين بطريقته في استغلال أي مادة لعمل منحوتة رمزية، وقد قام بتطوير النصب القائم أمام مسرح معرض دمشق الدولي، حيث كان في البداية عبارة عن ثريا صاعدة أضاف لها بعبقريته الوجوه المسرحية فعمل منها تمثالاً. أما النصب الموجود في ساحة التحرير فقد أقامه ماجد الصابوني بعد افتتاح الكلية.

الأمر كان مختلفاً مع لاريجينا فقد شعرت بأنه يسيء، حيث كان يأتي بأفشل الأعمال ويبدي إعجابه الشديد بها، وهنا يضيع المقياس بالنسبة للطلاب الجيدين. وكان هذا التأثير غير إيجابي، وقد قلت رأيي في مجلس إدارة الكلية الذي كان يتكون من أربعة أو خمسة أشخاص منهم لؤي كيالي وعبد الرؤوف كسم الذي

كان عميداً ومحمود حماد وأنا. وقمت بإلغاء عقد لاريجينا، وكان حماد مسافراً، وعند عودته أبدى انزعاجه فقلت له إنّ مهمة لاريجينا قد انتهت.

في الواقع أنني أنهيت عقده لسببين: الأول سيره في اتجاه أن كل واحد يلعب هو مبدع، وأنه قام بتغيير اتجاه الكلية كله.والثاني سبب أخلاقي حيث قام بتأليب زوجة أحد أصدقائنا على زوجها، وهي إيطالية، وقد دفعها إلى الطلاق من زوجها على الرغم من كونها أماً لولد.

لقد مر أشخاص كثر على الكلية أضع منهم محمود حماد في مقدمة الذين خدموا الكلية، كعميد أولاً، وثانياً كرجل هادئ ومتواضع، وقد كان وراء البناء الحالي للكلية، وكانت كل مخططات البناء بجهوده، وأنا أعدّهُ من كبار الفنانين، ابتدأ كواقعي وانتقل من الواقعية إلى التعبيرية، ولديه لوحات تجريدية في بيته، وأنا أشهد له فيها بأنه

طلاب السنة الثانية في المعهد العالي للفنون الجميلة (أرشيف حسان أبو عياش)

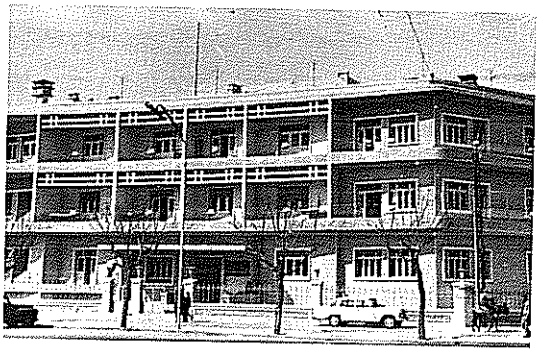

مبنى كلية الفنون الجميلة في ساحة التحرير – 1963

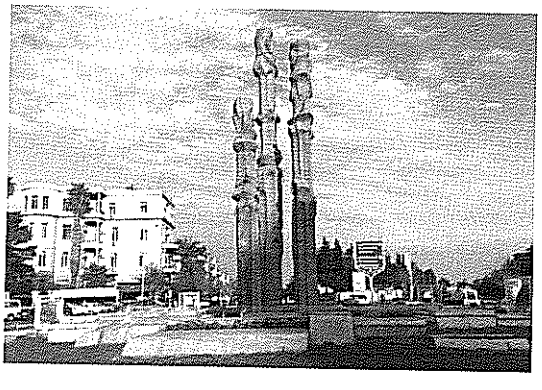

نصب ساحة التحرير 2008

محمود حماد وغياث الأخرس وعفيف البهنسي

ملوّن ممتاز جداً، وقد أراني إياها وهو أروع ما عمله في حياته برأيي، وتجمع هذه الأعمال التجريد مع الحروفية.

لم يمرّ على كلية الفنون شخص بمستوى محمود حماد إطلاقاً مع تقديري لبعض الأشخاص الذين كانوا يحاولون، ولكن ميزة محمود حماد أنه كان موضع احترام الجميع، وهو يستحق التكريم بأكثر مما تمّ، رغم أنه قد نال وسام الاستحقاق السوري.

بقيت في مجلس إدارة الكلية سبع سنوات تقريباً وذلك لأنني أسستها وأردت أن تقلع الكلية بأي شكل من الأشكال، وكان هناك الكثير من الأمور التي كانت مربكة. مثلاً كيفية تثبيت الأستاذ في الكلية وهو لا يملك الشهادات وحتى ليس معه بكالوريا ولكنه فنان ونحن بحاجته فماذا نفعل؟ ومثال آخر: فنان وصل إلى مرتبة يجب معها أن يترفع ويجب أن يعمل دكتوراه وليس هناك دكتوراه في الفن فماذا نفعل؟

لقد اطلعت على النظام الداخلي لكلية الفنون في الإسكندرية وهو يقول إنه كي يترفع الفنان عليه الذهاب إلى بوزار باريس فقمنا بإدراج ذلك في النظام الداخلي، وكان الذهاب حصراً إلى بوزار، ولكن عندما ذهبت إلى بولونيا، وكنت أعرف كل مشاكل بوزار باريس وجدت أنهم يقومون بتأسيس الفنان والرسام والنحات والحفار بكل معنى الكلمة، لذا وجدت أنه يجب إعطاء الفرصة لكليات الفنون في العالم مثل ألمانيا وبولونيا. وكان أول من ذهب إلى بولونيا، على ما أعتقد، عبد الكريم فرج.

في بوزار باريس لا يُقبل أحد إلا بعد اجتياز امتحان في التصوير الواقعي، على أن يكون في الواقعية شيء من التعبير الداخلي وليست صورة فحسب. كان الراغب في الانتساب للمعهد يتقدم للامتحان أحياناً نحو عشر مرات قبل أن يتم قبوله. هذا بالنسبة للفرنسي أما غير الفرنسي فكان يتم التساهل معه نوعاً ما، وكان الامتحان يتم بالقلم وباللون الواحد، حيث كانوا يعدّون أن هذا هو المقياس الأساسي، وأن الفنان يجب أن يعرف كيف ينقل الواقع والظلال وغير ذلك، هذا العرف انحرف عنه بوزار باريس بعد ذلك حيث أصبح كل أستاذ يفرض أسلوبه ويتبارى مع الآخرين بـ «اللاواقعية» وسط إشادة الصحافة بهذه الاتجاهات الجديدة، طبعاً الفن أولاً وأخيراً إبداع ولكن المشكلة عندما يعبّر الفن عن اللا جمال. عندما عاد عميد المعهد حسين فوزي إلى مصر بعد الانفصال، طُرح اسم وهبة الحريري ليكون عميداً للمعهد، وهو أول «بوزاريست» سوري وكان أقوى فنان في الـ *FREE HAND*، لكن الأمر لم يتم، وذهب الحريري إلى السعودية حيث حظي بتقدير كبير.

منذ أول يوم للمعهد بدأت بتدريس القسم النظري، وقد ألفت كتاب الفن عبر التاريخ وكان هذا أول كتاب صدر بالعالم العربي، ففي القاهرة كانت هناك أمليات تعطى للطلاب ولذلك استعمل في القاهرة، ثم توسع كتابي وتمت طباعته تسع مرات وصار اسمه «تاريخ الفن والعمارة» بعد أن توسعت به كثيرا، حيث كان القديم مختصرا وحوالي أقل من نصف الجديد .أخذت بعين الاعتبار أن الطلاب في السنة الأولى لا تكون لديهم أي فكرة عن تاريخ الفن، فهم لم يمروا بأي مرحلة من مراحل الدراسة بهذا الموضوع، لذلك رأيت أن يطلعوا على تاريخ الفن في العالم كله، ولو مرورا، وعلى المدارس الحديثة أيضاً. وكنت أشغل الطلاب في السنة الأولى بالرسائل بقصد القراءة والتعمق والتوسع.

توالت الأحداث السياسية سريعاً، فلقد قام لفيف من العسكريين بإنهاء عهد الوحدة مع مصر، وكان وقع ذلك شديداً علينا، وفي مقال رئيسي كتبت في جريدة الوحدة بتاريخ 8 أيار (مايو) 1962 صفحة كاملة تحت عنوان «المسؤوليات الكبرى»، تحدثت فيه عن الخسارة الكبيرة التي أصابت الأماني العربية، وأشرت مديناً

الانفصاليين، الذين اعتقلوني رغم صداقتي مع بعضهم. واستشرى الصحفيون الانفصاليون في الحملة على الوحدويين وكنت منهم، مما دفعني إلى مغادرة البلاد إلى باريس بحجة إتمام دراستي. اعترف أنني مارست السياسة من خلال الانتماء للعقيدة القومية وكتبت مقالات في جريدة البعث برئاسة تحرير صلاح الدين البيطار. وانساق صديقي مطاع في العمل السياسي، فعانى الاغتراب في باريس وبيروت متابعاً موهبته في الكتابة الفلسفية من خلال مجلاته ومؤلفاته.

الفصل التاسع - نقابة الفنون الجميلة

كانت الفترات التأسيسية الأولى قد وصلت إلى مداها عندما وجدت نفسي لست قادراً على خدمة الفنانين دون أن يشاركوا هم أنفسهم في حماية نشاطهم وتشجيعهم ودفعهم إلى الأمام، اقترحت تأسيس اتحاد عام للفنانين التشكيليين ولم يكن الأمر سهلاً، لأن الوزير مانع هذا الأمر، فعملت على إصدار مرسوم تشريعي، وصدر المرسوم بعد جهد من سطرين فقط: - تؤسس نقابة للفنون الجميلة، والمادة الثانية: - يطبق عليها نظام نقابة الفنانين. وجمعنا الفنانين التشكيليين في المركز الثقافي العربي في شارع الجلاء، ونصحنا لهم أن ينطلقوا، وكان حظي أن أنتخب أول نقيب لنقابة الفنون الجميلة وكان نائب النقيب ممدوح قشلان، وأمين السر غازي الخالدي، وتم ذلك الانتخاب بحضور أحد مندوبي وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

ذات يوم دعيت إلى روسيا لإقامة معرض هناك وتعرفت على الفنانين، ووجدت أن الفنانين يتمتعون برعاية خاصة، وأن الدولة، وكان الإتحاد السوفييتي حينذاك، وتقدم لهم مراسم،. فقلت نحن لدينا مشكلة أن الفنان ليس لديه مرسم وبعضهم يرسم في غرفة النوم، فقررت إنشاء جمعية سكنية وساعدني المحافظ محمد السيوفي وأعطاني أرضاً بالمجان تقريباً، وبنينا بناءين متلاصقين للفنانين التشكيليين، وفق نظام معماري خاص بحيث يكون المنزل مؤلفاً من قسمين أحدهما مرسم والثاني للسكن، ووزعنا عليهم الشقق مقابل مبلغ رمزي 35000 ليرة، ومازال البناءان شامخين في شارع فايز منصور- أوتوستراد المزة[23].

هكذا كانت هذه الفترة فترة تأسيسية وكنت أسعى فعلاً إلى أن يقود الفنانين أنفسهم بعد أن تزايد عددهم، سواء خريجو المراكز أو خريجو كلية الفنون، وكان

هذا أمراً طبيعياً لكي أحقق نوعاً من الديمقراطية في قيادة الحركة الفنية، لأنني كنت مقيداً بالموازنة ومقيداً برغبة الوزير وبرغبة المسؤولين، بينما كانت النقابة تعمل بحرية ولذلك لم تمضِ أقل من سنة حتى استقلت من النقابة كيلا يكون هناك ازدواج بين كوني مديراً ونقيباً، وتسلّم ممدوح قشلان النقابة، وكان رئيساً قديراً في متابعة نشاطها وتطويرها.

كيف تم تأسيس نقابة الفنون الجميلة؟ ومن وراء هذا الجهد الكبير؟

تحت هذا السؤال يستعيد ممدوح قشلان ذكرياته عن تأسيس النقابة فيقول: « في زياراتي لمديرية الفنون كان البهنسي يعد المرسوم الخاص بالنقابة ويجري الدراسات ويتابع المشروع في الدوائر الرسمية المختلفة إلى أن تم صدوره في عام 1969 ودعا إلى أول اجتماع تأسيسي في المركز الثقافي العربي، وتم انتخاب أول

أول نقيب للفنون الجميلة وسط أعضاء النقابة في الاجتماع التأسيسي

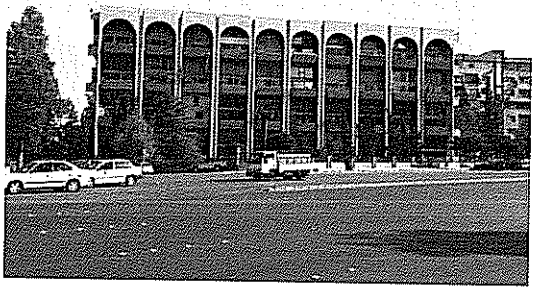

مبنيا (الفنون الجميلة) المتلاصقين في شارع (فايز منصور)

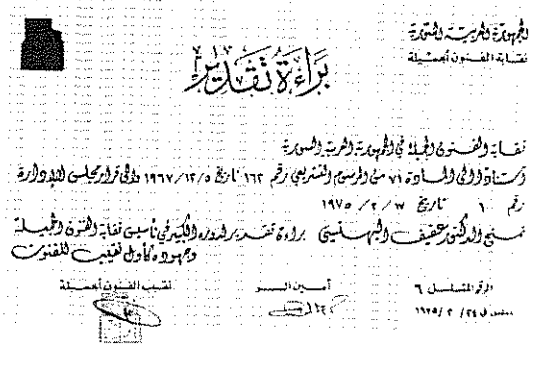

الجمهورية العربية السورية
نقابة الفنون الجميلة

براءة تقدير

نقابة الفنون الجميلة في الجمهورية العربية السورية
استناداً إلى المادة ٧١ من المرسوم التشريعي رقم ١٦٢ تاريخ ٥/١٢/١٩٦٧ وإلى قرار مجلس الإدارة
رقم ١ تاريخ ٧/٢/١٩٧٥
تمنح الدكتور عفيف البهنسي براءة تقدير لدوره الكبير في تأسيس نقابة الفنون الجميلة وجهوده كأول نقيب للفنون

الرقم المتسلسل ٦ — أمين السر — نقيب الفنون الجميلة

مجلس إدارة، وكان طبيعياً انتخاب الدكتور عفيف البهنسي أول نقيب لمنظمة شعبية خاصة بالتشكيليين وهو منهم. واليوم يشمخ في منتصف اتوستراد المزة، بناءان كبيران متجاوران يتفردان بمظهر معماري جميل ومميز، ويحملان اسم الفنون الجميلة، قليل من يعرف أن تلك المبادرة العملية هي للدكتور عفيف البهنسي وجهده المتواصل لشهور عديدة. كنت أزور مديرية الفنون بين حين وآخر، وأجد الدكتور البهنسي يخطط تصميمات معمارية متعددة، ويطلب من زواره الفنانين إبداء الرأي بالبناء والمراسم. وقد تابع الموضوع إلى أن وصل به إلى الواقع الذي تنعم به اليوم أكثر من مئة شقة مع مجموعة من المراسم والمشاغل الملحقة بها في الطابق الأرضي سلمت إلى الفنانين بأسعار رمزية زهيدة...والغريب بالأمر أنه حقق هذا المشروع الضخم ولم يتملك هو شخصياً أية شقة أو مرسم، وكان بإمكانه ذلك بمنتهى البساطة، ولكن آثر أن يفيد الآخرين الذين لا يملكون البيت».

الفصل العاشر - في عالم الآثار والمتاحف

1- مديراً للمركز الثقافي

في عام 1971 وفي إحدى جلسات المجلس الاستشاري الذي كان يضم مديري الوزارة اشتد الخلاف مع الوزير بسبب انتقادي لإدارته، فما كان منه إلا أن غضب وأعلن ختام الاجتماع وانسحب، وبعد أيام أصدر قراراً بنقلي مديراً للمركز الثقافي بدمشق محاولاً إبعادي عن نشاطي الفني، كانت المرحلة بناءً جديداً لقواعد السياسة والاقتصاد والأفكار أيضاً. وكان من الممكن تنفيذ الأهداف الجديدة بسرعة تلبية لإرادة واعية.وعندما تسلّمت مهام مدير الثقافة، سعيت لحماية الأطفال بإنشاء فرقة كشفية تضمهم،وكان منهم ولدي إياد ووائل حداد وثائر لحام، وسهلت عودة الشاعر نزار قباني ودعوته لإحياء أمسية شعرية، ودعوت الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري لأمسية أخرى. واستمر عملي عاماً واحداً، ومن حسن الحظ أقيل الوزير وقام الوزير الجديد بإعادة الأمور في الوزارة إلى طبيعتها، واقترح أن أكون مديراً للمركز الثقافي في صنعاء، وعلى الرغم من مزايا هذا المنصب اعتذرت عن قبوله وآثرت العمل في مجالي الفني والأثري.

2- مديراً عاماً للآثار والمتاحف

كانت البلاد منذ انتخاب الرئيس حافظ الأسد في 12 آذار (مارس) 1971 قد ابتدأت مرحلة الحركة التصحيحية[24]، وفي صحيفة الثورة التي خصصت لي صفحات كاملة، كتبت بتاريخ 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1971 عن معنى التحوّل وأثره في الثقافة تحت عنوان «الشام تعود عاصمة الثقافة». وكان رئيس التحرير، ووزير الإعلام فيما

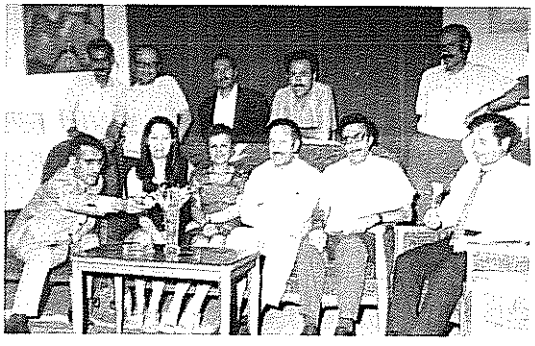

مع موظفي المركز الثقافي العربي بدمشق

بعد أحمد اسكندر أحمد متابعاً باهتمام لما أكتبه، خاصة بعد أن لمس تقدير الرئيس، فكانت مقابلتي الأولى والثانية للرئيس في قصر المهاجرين فرصة أن أفهم السياسة الجديدة التي استمر بتنفيذها، على الرغم من الحدثين الخطيرين اللذين دفعا إلى التركيز على الأمن وحفظ النظام. استمرت كتاباتي في صحيفة الثورة لسنوات، ففي السادس من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1973 قامت حرب تحريرية ضد العدو الإسرائيلي وكانت حرباً ظافرة بمعايير متعددة. وكانت سعادتي بالغة أن أدعى للمشاركة في هذه الحرب بوصفي ضابطاً احتياطياً برتبة ملازم أول. وعلى مكتبي آثار شظية جعلتها تمثالاً وذكرى لصاروخ إسرائيلي سقط ليس بعيداً عن كتيبتي التي كنت أقودها، وكاد أن يحولني إلى أشلاء لولا أن ضغط الانفجار ألقى بي خلف حاجز ترابي. ومن الجبهة كتبت إلى الصحيفة بتاريخ 28 تشرين أول (كتوبر) مقالة بعنوان أخبار عن المقاتلين في الجبهة موجهة إلى القلقين عليهم تحدثت فيها عن المعنويات العالية والصمود والتضامن الذي اتسم به الجندي السوري. وكنت بعد انتهاء الحرب والدخول في حرب الاستنزاف كتبت بتاريخ 25 تشرين أول (أكتوبر) تحت عنوان «معركة واحدة وعشرة انتصارات» دراسة موسعة موضوعية بينت فيها نتائج هذه المعركة استناداً إلى الوثائق والانتصارات التي حققتها هذه الحرب التحريرية بدم المقاتلين والشهداء الذين عبّرت عن إكبار بطولتهم وعطائهم في قصيدة قلت فيها:

دمُ الشهيد قطرةٌ قد خضَّبت بلونها أبيات ديوان جديدْ
كتابةٌ مدموغة بأشرف ال أحبار قد صارت قصيداً أو نشيدْ
صارت لأجيال تباهت عالياً رسالةً ووحدةً، إرثاً سديدْ

من ديوان أناشيد للوطن

وفي مقابلتي الثانية للسيد الرئيس لم يكن من اهتمامي أن أتسلّم منصباً سياسياً، وفضلت أن أعمل في نطاق اختصاصي الفني، وممارسة عمل ينسجم مع اختصاصي في تاريخ الفن والآثار، كانت المديرية العامة للآثار والمتاحف دون مدير لمدة سنتين أو ثلاث، وكذلك الأمر بالنسبة لي، حيث بقي مرسوم تعييني مديراً عاماً للآثار والمتاحف عالقاً في القصر الجمهوري لمدة تقارب السنة والنصف لأسباب سياسية لا أعلمها تماماً، ولكن عندما قابلت السيد الرئيس كان راضياً عن المقالات التي كنتُ أكتبها، وفي المقابلتين كان يعبّر عن تقديره لي، وقلت له سيدي أنا لا أريد المناصب ولكن هناك مرسوم بشأن مديرية الآثار والمتاحف موجود عندكم وقد أتيتُ من فرنسا أحمل دكتوراه كي أعمل في هذا المجال، فأصدر الرئيس مرسوماً بتعييني مديراً عاماً للآثار والمتاحف عام 1971.

كان مطيع المرابط مديراً لفترة لأنه كان موظفاً في المديرية ثم ترك العمل وبقيت المديرية دون مدير إطلاقاً. وكان سليم عبد الحق هو المؤسس الحقيقي وقد بقي حوالي عشر السنوات وله جهود قوية، وأنا أرى أنه شخصية كبيرة وكان مالئاً لمركزه، وكانت زوجته فرنسية، وهي التي مهدت للمعارض السنوية، ولها اهتمام كبير بهذا الموضوع، وعندما انتقل إلى اليونيسكو كان مالئاً لمركزه أيضاً، وكان ذا مستوى ممتاز، وقام بشيء كبير تأسيسياً، وهو الذي نقل واجهة قصر الحير إلى المتحف الوطني بدمشق.، وهو الذي قام بتنظيف قلعة بصرى وكشفها من تحت الردم، والكثير من الأعمال الجيدة جداً.

لم أكن غريباً عن الزملاء في المديرية العامة للآثار والمتاحف، لأننا كنا نتعاون معهم في إقامة المعارض وخاصّة في جناح الفن الحديث، إلا أنني عندما تسلمت المديرية العامة للآثار والمتاحف أردت أن أعيد لها دورها الأساسي كمركز بحث شامل لتاريخ وحضارة سورية، كان الهام بالنسبة لي ألا يكون نقص الكوادر لدينا عائقاً في متابعة الكشف عن تراثنا وحضارتنا، وأن هناك من علماء الآثار من يتطلّع إلى هذه المنطقة الغنية والواعدة جداً بالتعرف على بداية التاريخ البشري. فعندما نتكلم على الألف الخامس قبل الميلاد فهذا يعني بداية البشرية والتحوّل من العصور الحجرية إلى العصور الحضارية والعصور المكتوبة والمؤرخة. كان

اجتماع مدراء الآثار

علينا متابعة هذا العمل ووجدت أن المديرية تتمتع بحرية عمل واسعة جداً لأنها مسؤولة عن سورية كلها وليست مرتبطة بنظام الإدارة المحلية، والمحافظات لا يوجد فيها دوائر آثار أو متاحف، ولكن يوجد فيها مواقع وتلال أثرية، وهذا كان سبباً دفعني إلى أن أؤسس دائرة آثار في كل محافظة، ثم وجدت أنه يمكن أن يكون هناك متاحف، والآن أستطيع القول إنه تقريباً يوجد في كل محافظة متحف أو اثنان وهذا أمر هام جداً.

المتحف ليس مخزن آثار وإنما هو موئل بالنسبة للعالم والطالب والأستاذ والمواطن لكي يتعرف على التراث، على الأقل بالنسبة للمنطقة الموجود فيها هذا المتحف. وجدت أن العالم كله يتسابق في بناء المتاحف فمثلاً برلين في ألمانيا فيها ثلاثة آلاف متحف بينما من الجيد وجود ثلاثين متحف عندنا. في الدول العربية المجاورة لا يوجد عدد كبير من المتاحف، مثل العراق ومصر، ولكن في مصر هناك متاحف ضخمة مثل المتحف المصري والمتحف الإسلامي. أردت أن أنمّي متحفي دمشق وحلب، وأن أبني في كل محافظة بناءً ضخماً لاستيعاب الأعمال الموجودة في تلك المنطقة.

وضعنا البنية التحتية لعمل المديرية العامة للآثار والمتاحف ضمن خطة عمل واضحة بالنسبة لنا لأنه، كما هو في الوزارات الأخرى، توجد موازنتان واحدة

في المؤتمر السنوي العاشر للعاملين في الآثار والمتاحف

استثمارية وواحدة جارية. وكانت هيئة التخطيط كريمة معنا، حيث كانت دائماً تمنحنا المبالغ التي أرصدها لأنني كنت أقدم تقريراً في نهاية العام حول النفقات وصرفها، لذلك كنت دائماً شجاعاً في الطلب وفي التنفيذ، وهذا ما يهمّ هيئة التخطيط.

وقد أرسيت تقليد المؤتمر العام، وهو مؤتمر سنوي لكل رؤساء دوائر الآثار الموجودين في المحافظات الذين يأتون إلى المؤتمر كل عام، ونتداول معاً في أمور التنقيب، وفي أمور الترميم بشكل خاص، وكنت أوزع الموازنة عليهم، حيث أطلب من كل مدير أو رئيس دائرة بيان احتياجاته بحسب خطة عمله. وكان لـ تدمر خطة استثنائية، وكذلك المدن المنسيّة وأفاميا، وكنت أعطي المدير ما يطلبه ولكن سيكون هناك حساب بنهاية السنة على عملية الصرف إذ كنت آمر الصرف، حيث تأتيني السندات لصرفها، المديرية العامة للآثار والمتاحف مدينة لموظفيها في المحافظات، لأنهم يعدّون أنفسهم حماة لهذا التراث، وكنت أقول في الاجتماعات إنّ رب العمل هو ضمير كل منكم وأنتم سادة مواقفكم، وهذا ما من شأنه تشجيع الموظف الموجود في القامشلي وفي درعا..... أن يشعر أنه سيد الموقف. وأنا أدعو المسؤولين لتوزيع صلاحياتهم لأنه لا يمكن إنجاز عمل بدون أن تعتمد على العناصر كلها للعمل معك. اليوم، مثلا، لا أقبل بصلاحيات معاون الوزير لأنها في السابق كانت أفضل، حيث كان وكيل الوزارة أو الأمين العام يعادل مدير عام، أي

أن له صلاحيات في الموازنة والتعيين، أما اليوم ليس لديه إلا ما يكلفه به الوزير، وهذا ما أعتقد أنه يجب إعادة النظر فيه.

كما قلت تتوسع مهام المديرية العامة للآثار والمتاحف لتشمل جميع المحافظات دون أن تخضع لنظام الإدارة المحلية. وهي ذات استقلال إداري ومالي. وكان من المديرين المساعدين، د. عدنان البني ونسيب صليبي للتنقيب وأحمد دهمان ويوسف زحيلي وأبو الفرج العش وعدنان قيسي للترميم ود.عبد القادر ريحاوي للمباني وبشير زهدي للمتحف الوطني وشفيق الإمام لمتحف التقاليد الشعبية ودعد حكيم للوثائق التاريخية وعلي القيم لمتحف العلوم وشوقي شعث لمديرية حلب وخالد الأسعد[25] لدائرة تدمر ومروان مسلماني للتصوير .. إضافة لعشرات الزملاء العاملين في المحافظات في إدارة المتاحف والآثار. وكانت مجلدات مجلة «الحوليات الاثرية» العشرين التي أقود تحريرها حافلة بالدراسات التنقيبية والتاريخية. ويساعد المديرية مجلس الإدارة ومن أعضائه عبد الرؤوف الكسم وشكري فيصل وزهير الكتبي وأبو الفرج العش.

3- أعمال التنقيب

وكان لديّ فرصة منذ بداية وجودي لتحقيق ما أطمح إليه حيث كان علينا أن نقوم بسرعة بحملة دولية لإنقاذ آثار الفرات المعرضة للغمر بسبب نشوء «بحيرة الأسد» خلف سد الفرات، فقمتُ بدعوة أمين عام اليونسكو إلى سورية وقمنا بعمل نداء بأنّ سورية تدعو الجامعات والآثاريين في العالم لحملة دولية لإنقاذ آثار الفرات تحدد مدتها بسنتين تقريباً قبل تكون البحيرة الضخمة جداً وطولها 110 كيلومتر، وكان هناك إقبال جيد جداً من ما يقرب 25 جامعة، شكلت 25 بعثة، وكل بعثة تتضمن ما يزيد عن عشرة علماء مختصين بالآثار والتاريخ والعمارة والهندسة، يتعاونون معاً لكي تكون عملية التنقيب مثالية. وكنت سعيداً جداً لأنه في هاتين السنتين كانت هناك ورشة ضخمة جداً في منطقة الفرات، واستطعنا أن ننقب في أكثر من 25 موقع بعضها يتطلب وقتاً ضيقاً وبعضها يتطلب وقتاً طويلاً، وعلى الجميع الإسراع ما استطاعوا، وكانت

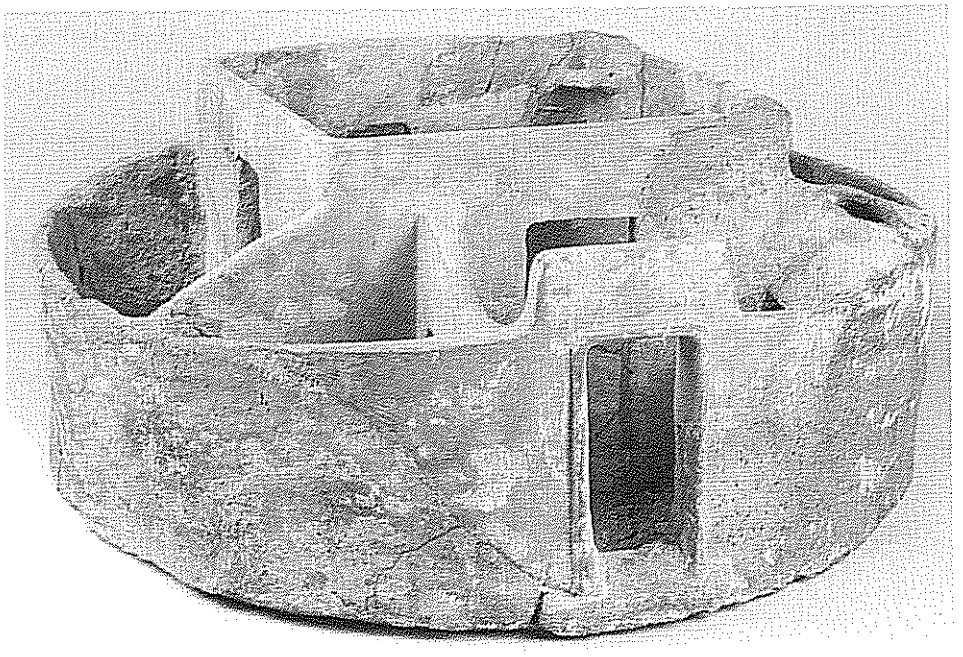

نموذج لأقدم منزل عثر عليه في (المريبط) - الألف الثامن ق.م

النتيجة مدهشة جداً وأكثر الآثار وضعناها في حلب ثم نقلناها إلى متحفي دير الزور والرقة.

هذه الحملة فسحت المجال لبعثات ثانية لتتقدم لمتابعة العمل في سورية ووجدت أنه من الضروري جداً أن أستبقي هذه البعثات ال 25 وأن أفسح المجال لأي بعثة تريد أن تنقب في سورية ولكن بشروط جديدة، حيث كان في منطقة سدّ الفرات حوافز للبعثات، فمثلاً إذا وجدنا مكتشفات مزدوجة، أو مكررة، كان من الممكن أن نقوم بإهداء البعثة إحدى القطع. الأعمال التي تمت أدت إلى اكتشافات مذهلة في ما يتعلق بالعقائد، وفي ما يتعلق بالعمارة وقد اكتشف هناك أقدم منزل في العالم يعود للألف الثامن ق.م وهو ما كتبته مجلة اللوموند ووضعت صورة منزل، نحن لم نكتشف منزلاً، ولكن اكتشفنا أرضاً وأساس جدران وتلويناً على أساس الجدران وتقسيمات البيت كانت واضحة، وهذا ما بين تماماً كيف يمكن أن يكون البيت. ولذلك عندما أقمنا معرضنا المتجول خلال 12 عام في أوروبا وفي أميركا

وفي اليابان قاموا في معرض برلين بإعادة بناء المنزل كاملاً. ووضعت في كتابي «التراث الأثري السوري» صورة برسم اليد لهذا المنزل الذي أنشئ في متحف برلين بمبادرة السيدة شترومنغر مديرة المتحف.

مع العالم بوتشيلاتي في موقع تل العشارة - ترقا

كانت هذه بداية انفتاح المديرية العامة للآثار والمتاحف على عمل أوسع في التعامل مع علماء الآثار في العالم، وانتقلنا من عدد محدود لا يتجاوز عدد أصابع اليد لنستقبل في الفرات خمساً وعشرين بعثة أجنبية، وتوسعنا بعد ذلك إلى مائة بعثة. وكان من نتائج التنقيب التي قامت بها هذه البعثات، أن أقمنا معرضاً لأهم المكتشفات، مع ندوة لآثار الرقة، وعرضاً لنتائج ترميم قلعة جعبر وحصن الرشيد وقصر البنات وجامع الرقة، وإعادة بناء أسوار الرقة .

عقدان من عمري قضيتهما في إدارة الآثار والمتاحف. وكان عليّ أن أدعم إلى أكبر حد ممكن التعاون مع علماء الآثار في العالم لتوسيع نطاق التنقيب الأثري، وازداد عدد هؤلاء العلماء حتى قارب الألف عدداً. ويجب الاعتراف بأن التعامل مع هؤلاء العلماء قام على أساس الرعاية والتشجيع والاحترام، ولقد حققنا جميعاً إنجازات هامة في مجال التعرف على التراث القديم وبالتالي على التاريخ الحضاري بمراحله جميعها، كنا نجهله ويجهله العالم. ونشر هؤلاء العلماء نتائج أبحاثهم وتنقيباتهم في دوريات عالمية أو في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، أو في كتب خاصة، وكان لهذا النشر العلمي أثره في تكوين مرجعيات علمية عن تاريخ الحضارة في هذه المنطقة، وعن الحقيقة التاريخية.

4- اكتشاف مملكة إبلا

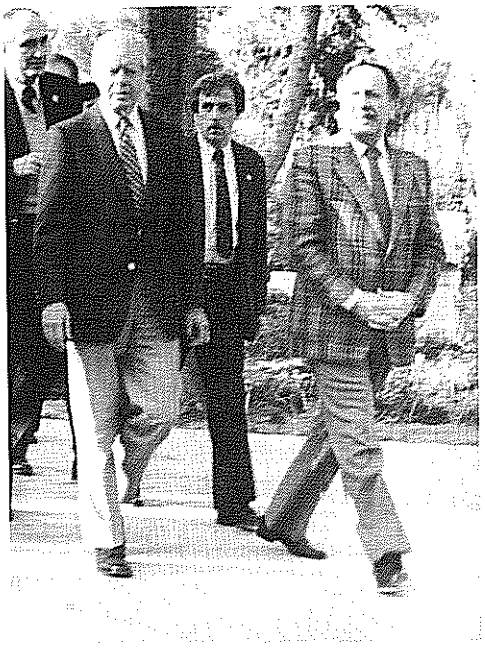

مع الرئيس جيمي كارتر في المتحف الوطني بدمشق

كان لاكتشاف مملكة إبلا في موقع تل مرديخ - إدلب دوره في إعادة النظر بموضوعية التاريخ التوراتي. ولقد قمنا بمحاربة التأويلات المغرضة لما تضمنته ألواح إبلا، بإحداث لجنة عالمية من المختصين بقراءة هذه الألواح لتصحيح هذه التأويلات، وكان الانتصار باهراً على الفكر التوراتي وعلى الهجمة الصهيونية التي رافقت هذا الاكتشاف. وأستطيع القول إنّ تصحيح قراءة ألواح إبلا أدى إلى الشك الكامل بالأحداث التوراتية، وبالتالي إلى عزوف علماء الآثار عن الاعتماد على التاريخ التوراتي، والاعتماد فقط على النقائش والمكتشفات الأثرية كسند وحيد لكتابة التاريخ القديم. لقد قام الجدل مع المحرفين على اعتبار أخبار إبلا تنسجم مع أخبار التوراة، ولكن الرد العلمي الذي قام به العلماء كان كافياً لإثبات العكس، وخلال عقد كامل كان السجال حاداً مع التوراتيين ولقد عرضنا في كتابنا «وثائق إبلا» تفصيلاً لهذا السجال. واحترم جميع العلماء موقفنا من التاريخ التوراتي، وتكونت صداقة مع أكثرهم وبخاصة العالم جيورجو بوتشيلاتي وزوجه مارلين، وقد تولت جامعته إصدار دورية خاصة بالآثار السورية في مدينة لوس أنجلوس. وتنظيم ندوة دولية عن الآثار السورية في مدينة شيكاغو حضرها مئات العلماء وقدمني كراع لهذه الندوة وقدمت كلمة الافتتاح.

لابد أن أشيد بتنقيبات باولو ماتييه في إبلا، وأشيد بتنقيبات أندريه بارو في ماري وكلود شيفر في أوغاريت وشالنكو في المدن المنسية وجان سوفاجيه في دمشق القديمة، وبوتشيللاتي في العشارة وجان بالتي في أفاميا وأولغ غرابار

مع علماء التنقيب والدراسات عن إبلا

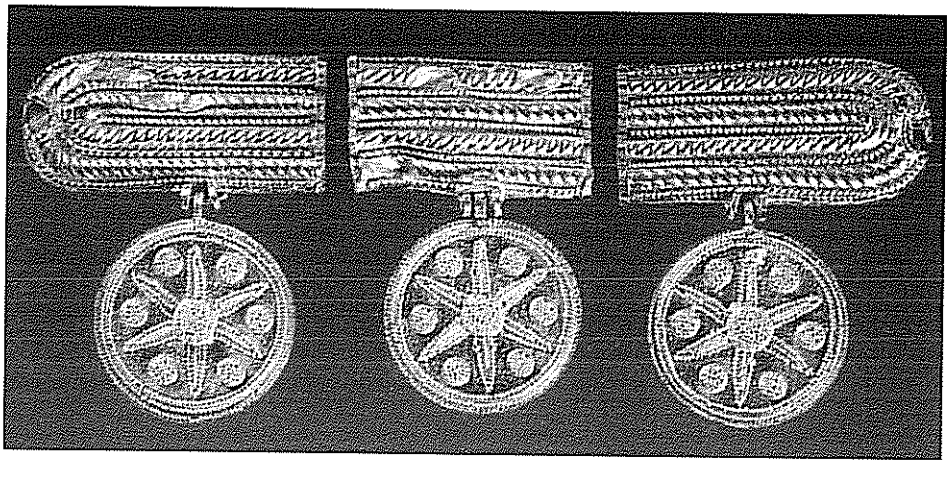

قلادة ذهبية من إبلا – متحف حلب

في قصر الحير الشرقي، وأولبرت في الرصافة وكوفان في العصر الحجري، وشترومنغر في حبوبة ولاغارس في رأس ابن هاني وإيغامي قرب تدمر. وفي كتاب «الآثار السورية» عرض لنتائج التنقيب في عشرات المواقع الأثرية مع عرض لأهم النشاطات الترميمية والمكتشفات الأثرية، وكان السيد رئيس الجمهورية شديد الاهتمام بهذه الأخبار يتلقاها مني عبر مدير مكتبه، ويرويها لكبار زواره، وكان

منهم الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، وقد نصحه بزيارتي لاستكمال معلوماته عن مكتشفات إبلا. وحمل كارتر مطبوعات وصوراً ليقدمها في محاضراته بوصفه أستاذاً لعلم الأديان.

ولعل أهم ما شغلنا في مجال التنقيب عن الآثار هو التحقيق في مضمون الرقم المكتشفة في إبلا التي أثارت جدلاً عالمياً كشفت عنه في محاضرتي في جامعة روما بحضور علماء الآثار الذين جاؤوا من جامعات إيطالية وفرنسية، وفيها عرضت أهمية هذه الرُقم وما تؤكده من وجود حضارة سورية موازية لحضارة الرافدين وحضارة الساحل السوري، ثم ما تمثله من لغة هي لهجة من أصول اللغة العربية. وأهم ما أبرزته هذه المدونات الملامح الواقعية والتاريخية الصحيحة مما يخالف الروايات التوراتية الوهمية، وتحدث فيها بالتفصيل عن مؤامرة جماعة بناي بريث الصهيونية، لتشويه مضمون الوثائق وتأويلها لمصلحة الصهيونية ولقد تابعنا تشجيع البحث لإعادة كتابة التاريخ القديم على ضوء المكتشفات الأثرية التي قام بها علماء من جميع أنحاء العالم بما فيهم العلماء اليهود الذين أعلنوا عام 1996 عن فشلهم في العثور على آثار الهيكل في القدس، وأي آثار تعود إلى ما قبل العصر الروماني في تنقيبات واسعة أجروها في القدس وأريحا، أن سياسة التوسع في البحث وتشجيع العلماء على التنقيب بحرية مطلقة، ودعم كبير، كانت السبب في هزيمة علم الآثار التوراتي، ولقد وصلت هذه الهزيمة إلى إسرائيل ذاتها 1996. وتابعنا نشر نتائج هذه الحقائق التي تكذب ادعاءات الصهاينة، في دوريات عربية مختلفة وفي كتابنا تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار. كان هدفي جعل علم الآثار مصدراً للتاريخ. وكان لا بد من عزل الأخبار الصهيونية والتراثية عن علم الآثار لأنها غير موثقة. وإذا معركة العرب مع عدو اغتصب أرضهم فلسطين تتطلب تعبئة عسكرية لمقاومة الاحتلال العسكري، فإنها تتطلب كذلك تعبئة علمية موضوعية لمقارعة الادعاء التاريخي التوراتي بالأرض من النيل إلى الفرات، عن طريق التنقيب الأثري للكشف عن الحضارات والشعوب والأديان التي تعاقبت على هذه الأرض، وليس من بينها أبداً حضارة تتعلق بـ «إسرائيل». ولضمان دراسة هذه الرقم شُكِّلت لجنة دولية من وادزر وعلماء اللغات القديمة لنشر ترجمات هذه الكتابات في حوليات مازالت صادرة، وتتألف اللجنة من العلماء بوتشيلاتي

في المتحف السامي مع العالم كافن

وآركي وفرانزارولي من ايطاليا وسولبرجر من بريطانيا وادزر وكلينغل من المانيا. وأنشأت متحفاً في مدينة إدلب لحفظ هذه الرقم وجميع المكتشفات الأثرية التي تمت في هذه المحافظة.

كان التنقيب جوهر العمل في المديرية العامة للآثار؛ لأنها، كما كنت أقول وأكرر، مركز بحث ولا يمكن أن يضاهيها أي مركز، يعملون ليل نهار في البحث، وليس البحث فقط بتنقيب الأرض، بل أصبح هناك وسائل للبحث، فهناك اليوم آلات وتقنيات وعمليات نشر لذلك كنا سعداء جداً أن الاكتشافات التي كانت تنشر ملخصات لها فقط، أصبحت تنشر كاملة بلغات مختلفة وتنشر، وانتشرت سمعة الآثار السورية في كلّ أنحاء العالم بوساطة هؤلاء العلماء.

توطدت علاقتي مع علماء الآثار ومنهم العالم الايطالي بوتشيللاتي وزوجته وقد أنجزا تنقيبات ناجحة في العشارة - ترقا. والعالم الأمريكي كافن مدير المتحف السامي التابع لجامعة هارفرد في بوسطن بمناسبة اكتشافه مجموعات

هامة من الصور الفوتوغرافية للمصور بونفيس الفرنسي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، وموضوعها الحياة الاجتماعية والشخصيات والبيوت في البلاد العربية. وقد ساعد الصديق السفير صباح قباني بإخراج أهم الصور. وكان سفير سورية في واشنطن، واستطاع أن يستملك مقر السفارة وأن يجمله بقطع معمارية دمشقية، وبلوحات لفنانين سوريين.

لا بد أن أشيد بدور العلماء اليابانيين وعلى رأسهم البروفسور إيغامي الذين أسهموا في عمليات التنقيب في موقعين، كما كانوا بالغي الحماسة لإنقاذ الجرار أمفورا القديمة الغارقة قرب سواحل طرطوس، وهو ما سأعود إليه لاحقاً، وكانت هذه العملية الناجحة موضوعاً لفيلم وثائقي أذيع في فضائيات العالم، بل كانت موضوع معرض ضخم أقيم في ناغويا عاصمة اليابان القديمة عام 1988 تحت عنوان سورية وطريق الحرير شاركنا بإعداده وافتتاحه. وعاد المعرض سالماً بعد انتهائه، ومازالت جميع الجرار محفوظة في جزيرة أرواد .أنا أشيد بالبعثات الأجنبية لأنها علمتنا احترام الآثار وقدمت كل ما تستطيع في سبيل تنظيم عملية البحث، تذهب اليوم إلى طرطوس وتجد كل شيء منظماً ومسجلاً ومصوراً وموجوداً بشكل كامل.

هناك نقطة أساسية، حيث أننا اكتسبنا أن هؤلاء العلماء أصبحوا مواطنين لأنهم تعلقوا بهذا البلد، لأننا أعطيناهم الفرصة، حيث أقاموا الموقع ووضعوا الغرف والمستودعات وأتوا بالآلات والأدوات. اليوم أصبحت هناك آلات تكشف ما تحت الأرض، فمثلاً إذا كان هناك مدفن فهم يستطيعون معرفة عمقه وأبعاده، وكذلك الأمر بالنسبة إذا كان هناك معبد. البعثات الأجنبية كانت مراكز بحث للمواقع، وبعضهم كان يصدر في جامعته مجلة دورية عن الآثار السورية، مثل جامعة الـ UCLA في لوس أنجلوس، وقد درّست فيها مرتين كل مرة عدة شهور. في مقابلاتي كنت متحيزاً جداً إلى هؤلاء العلماء لأنني رأيت إخلاصهم في العمل، وهم لا يشتغلون لصالحي بل لصالح العلم وتاريخ الإنسانية الأول في العالم، يعني عندما اكتشفوا الألف الثالث قبل الميلاد، ولا يوجد ألف ثالث لا في أميركا ولا في المكسيك ولا في اليابان، كانوا سباقين لأن يكتبوا عن كل المراحل الأولى بجدية ومرجعيات ووضوح وتنوع.

مع العالم الياباني إيغامي وتحضير معروضات ناغويا

التنقيب ليس عملية سهلة حيث أنه لدينا قائمة بالتلال الأثرية التي لا نستطيع أن نحدد ماذا تحوي هذه التلال ولكننا نعرف أن هذا التلّ أثري، بمعنى أن تشكيله هو عبارة عن تجمع تراب على موقع وبطبقات، لذلك عملنا مسحاً شاملاً للمواقع الأثرية، وأرسلنا بعثة مع مصورين على كل المواقع وحددنا 5000 موقع أثري.

ولذلك عندما أتحدث يكون في كلامي حماسة، لأنني كنت أرى هذا الإنجاز الضخم غير المتوقع من حيث التنوع والأسبقية. صحيح أنه ليس لدينا أهرامات ولا أبو الهول ولا غيره، ولكن لدينا تراث واضح المعالم يبّلغ عن مرحلة حضارية ذات آداب وعقائد. إن الرسائل التي اكتشفناها في إبلا تدلّ على وجود دولة متماسكة تعطي الأوامر وتجري المعاهدات. في كتابي «التراث الأثري» أردت أن أجيب على أسئلة صعبة لا يعرفها أحد لأنني كنت شاهداً عليها وفاعلاً فيها. الشيء المدهش الذي رأيته دفعني إلى كتابة هذا الكتاب. وقفتُ عند إبلا لأن فيها وثائق أخذت مداها من النقاش والحوار واختلاف الرأي، شكلت لجنة من 12 عالم لسانيين وأردتُ أن تكون المسألة أمانة بين أيديهم، ولم يكونوا موجودين في البلاد العربية

أبداً وقاموا بالقراءة والنشر، وتركوا مجالاً للمؤرخ للاستفادة. لا أريد أن أقول مثل ما قال الدكتور بهجت قبيسي إنّ فلاناً كان يعمل ونحن كنا نائمين. ليست قضية نيام ولكن زخم العمل لا يقابله اختصاصيون. أنا لا أستطيع حتى اليوم تأليف بعثة يكون فيها عالم آثار وعالم لغويات ومهندس ومعمار، بينما هم أتوا بهم. فمثلاً عندما أردت وضع اثني عشر عالم لساني، لم أجد في كلّ العالم العربي من يساهم معنا في هذا الأمر، وحتى الآن لا يوجد أحد سوى الدكتور بهجت القبيسي الذي يعرف الآرامية والكنعانية وهو الوحيد الذي ينحت في الصخر.

كتبتُ إلى مجمع اللغة العربية، وقلتُ لهم إنّ هذه المسألة أمانة بين أيديكم حيث أن هذه اللغة العربية عمرها آلاف السنين، وأن اللهجات القديمة هي أصل اللغة العربية فيجب عليكم أن تأتوا بعلماء لغات، وأن تشجعوا الدارسين من الجيل الحالي على التخصص في اللغات القديمة وأن توسعوا نطاق عملكم. إنّ حوالي نصف كلامنا هو من أصول آرامية، لولا جهود الدكتور بهجت القبيسي وهوايته التي يمضي فيها كل وقته ويقوم بوضع الكتب ما استطعنا أن نعرف أصل الكلمات بالآرامي والأكادي.

الوثائق التي جمعناها 25000 رقيم من ماري و15000 رقيم من إبلا و7000 رقيم من أوغاريت وغيرها الكثير، هم من يحتاجون إلى مجمع اللغة العربية لأن الكتابة المسمارية انتقلت إلى مراحل، وكانت البداية رمزية، وكانت عبارة عن تشطيب بقلم من الخشب على لوح من الطين لترمز إلى كلمة، ولكن هذه الكلمة أصلاً كانت ترمز للغة السومرية لأن السومريين هم أقدم الشعوب التي كانت على الأرض، ولكن السومرية ليست أصل العربية إطلاقاً، وعندما جاء الأكاديون في العراق استعملوا هذه الكتابة ولكن كان عليهم أن يتقنوا السومرية، يعني أن هذه التشطيبة بالسومرية تعني (بيت)، وأنا صرت أقول بالأكادي (بيت)، بينما كانت بالسومري سامو، لكن بعد أن قرأت السومري جاء علماء استطاعوا معرفة 25٪ من الكتابة السومرية، وأصبحوا يعرفون أنّ هذه الكتابة تعني سامو، ولكنني أقول بيت، وكل من جاء بعدهم وصل إلى هذه النتيجة، وكان عليه أن يتقن اللغة السومرية ليفهم هذه الصيغة.

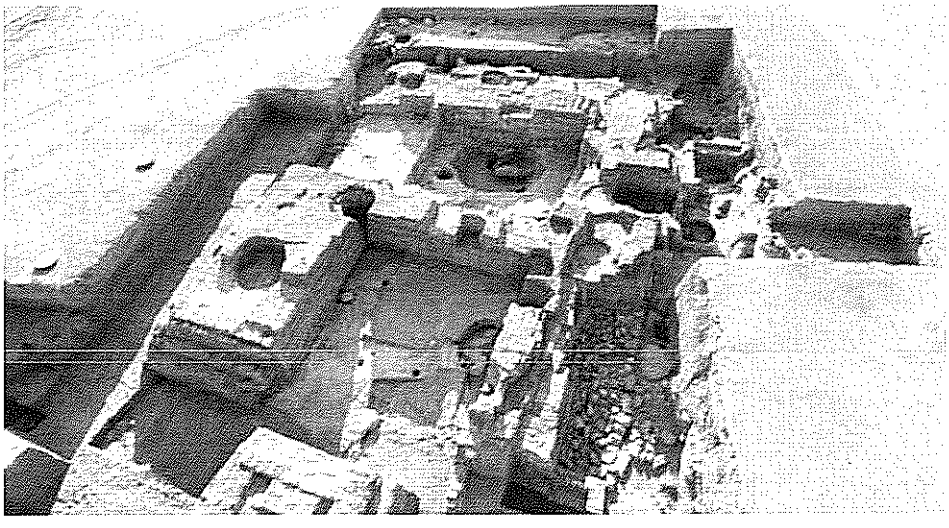

جانب من حفريات إبلا

سأقوم بالتسهيل: الذي يقرأ الكتابة الكورية أو اليابانية عليه أن يعرف الكتابة الصينية لأن الصينيين هم من أوجدوا الكتابة ولكن بمعانيهم، وعندما أتى اليابانيون والكوريون أخذوا هذه الكتابة، وهم يقولون إنّ الحرف صيني ولكن القراءة يابانية أو كورية. إنّ أحسن من يستطيع تأويل الكتابة الأكادية هو من يتقن اللغة العربية، وهناك لغة عربية دارجة، ولغة عربية غارية، أي ضائعة، وهناك من يمتلكون معاجم للألفاظ العربية المهجورة، وعندما تبحث فيها تجد أن الموجودة في هذه المعاجم هي نفسها. هذه النقاط يجب أن تدرّس في معاهد خاصة باللسانيات، ونحن أولى الناس أن نبيّن إلى أي مدى نمتلك جذوراً قديمة، وأن تاريخنا لم يكنْ قطعاً أو مرقعاً بل كان فيه استمرارية.

حين اكتشفنا إبلا وجدنا في اللغة: أبو، وعينو، وبيت، ومرت، وتمو، واستغربنا من هذا الكلام، واليوم في اللهجات العربية الحالية هناك إبدال فمثلا يقال سجادة وسداجة، وأحياناً تجد أنهم يختصرون الكلمة، وهذا معناه أن اللهجات تتداخل معها لغات ثانية ويتداخل معها تسهيل الكلام. فمثلاً كلمة عزو هي عز الدين، وكذلك عبدو، وهذا كله من مهمّة المعجميين الذين يجب أن يكونوا موجودين في سورية، بشكل خاص، وفي مجمع اللغة العربية لدراسة أصول اللغة

العربية التي نملك وثائقها بين أيدينا. فمثلاً يجب أن نأتي بـ أركي ونكرمه ونقول له عليه أن يعمل ويعلم الدارسين.أنا برأي أنه يجب ألا يتمّ ترجمة المصطلحات التقنية، فمثلاً كلمة (نت) معروفة ولا نحتاج إلى إبدالها بمصطلح عربي فكلّ العالم يعرف معناها.

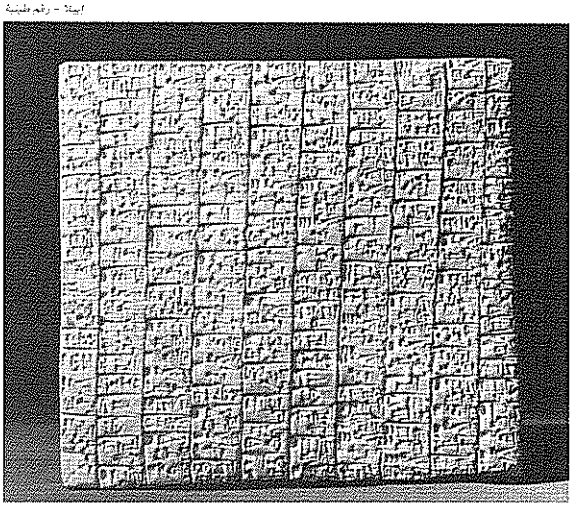

أحد الرقم الطينية من مكتبة إبلا

راولنسون استطاع أن يفكك الكتابة المسمارية وأصبح هناك علماء يقرؤون الكتابة المسمارية في العالم وهؤلاء من أتينا بهم ولا يوجد غيرهم في العالم، وهم من كانوا يقومون بقراءة الوثائق. مع الأسف أن وثائق ماري وهي حوالي 25000 رقيم كانت موجودين في باريس، وعندما علمتُ بالأمر أتيتُ بهم، وكانوا ما يزالون في علبهم ولم يقوموا بدراستهم وهم موجودون لدينا حتى الآن. بينما وثائق إبلا كان لدينا الفرصة لتصويرهم من كل الجوانب وترتيبهم وإصلاحهم وتصنيفهم ودعوة العلماء للاطلاع عليهم.

الوثيقة تعني العقل، تعني العلم، تعني أننا قمنا بثورة في الواقع، وإذا أحببنا أن نقول إنّ هذا التطور أصبح إصلاحياً يكون فعلاً كذلك لأننا كنا نعيش في وهم الحكاية القديمة، يعني اليوم لا تستطيع أن تصلح لدى العالم القصص الموجودة ولا أريد أنا إصلاحها لأنني أعرف أنه ليس كل مواطن عالماً، ولكنني أريد أن يكون أستاذ الجامعة مسؤولاً. البحوث ما زالت ضعيفة، مع أن الدولة تنفق على هذا الموضوع، ومن هنا يجب أن نعمل وزارة للبحوث أو هيئة عامة للبحوث، وأن نعطي المديرية العامة للآثار مطلق الدعم، لأن الشيء الذي تقدمه لا يصل

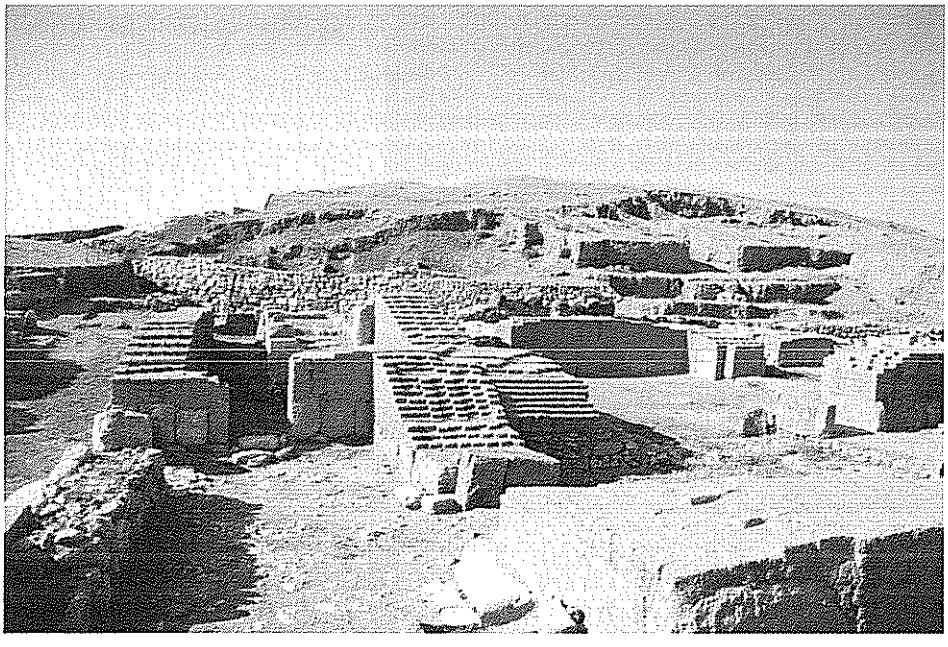

إبلا

للاختصاصيين ويجب أن نقوم بذلك عن طريق الترجمة والنشر. الوثيقة هي أساس كتابة تاريخ حضارتنا.

لقد أناب المؤرخون في الغرب أنفسهم لكتابة تاريخ المنطقة العربية اعتماداً على الحكاية التوراتية، ومازال تاريخنا القديم مهمشاً، لا وجود له إلا كخلفية لتاريخ إسرائيل. وأسكتت هذه الدراسات الهوائية كل جنوح نحو البحث عن تاريخ المنطقة، وهو جزء من السياسات الاستشراقية التي وصفها ادوار سعيد بالانحراف نحو تأكيد التفوق الحضاري لشعوب المستشرقين على شعوب الشرق. وهكذا فان التغلب على الحكايات التوراتية ليس سهلا، وخاصة بعد أن تحكمت في عقول الباحثين المصادر المكثفة عن تاريخ إسرائيل وعن أحداث التوراة. في حين يجهد الباحث العربي في البحث عن تاريخه للحصول على مشهد آثاري أو أي وثائق جادة.

على أن تزاحم الأبحاث الأثرية في منطقتنا، ونجاحه في أوغاريت وإبلا والقدس وأريحا التي نشرت والتي لم تصل أصداؤها إلى أسماع المؤرخين

العرب، مازالت سندا يساعد في التعرف على تاريخ المنطقة في العصر الكنعاني.

ولكن كيف أصبحت التوراة ناموس العقيدة المسيحية في أوربا . وكيف أصبحت السياسة الأوربية نصيراً في مرحلة ما للصهيونية ؟! سنقرأ جواب هذا السؤال في كتاب «الصهيونية غير اليهودية» لمؤلفته ريجينا الشريف.

تختلف التوراة عن الإنجيل، فلقد اعتمد المسيحيون في العالم ومنذ قسطنطين الأول 310م على الإنجيل فقط، ولم تكن التوراة مصدراً من مصادر العقيدة المسيحية في أوربا، ولكن الإصلاح الديني الذي دعا إليه مارتن لوثر في القرن السادس عشر، ونشره كتاباً بعنوان (عيسى ولد يهودياً). ونادى بحسن التعامل مع اليهود وعدم اضطهادهم، فسح المجال للاهتمام بـ العهد القديم، وتبعه البروتستانت الذين أذعنوا إلى مهادنة اليهودية ودعوا إلى دراسة التوراة واعتمادها، وأصبحت التوراة جزءاً من شعائرهم الكنسية، مما أعطى الفرصة لليهود في أوربا أن يعلنوا منذ القرن السادس عشر عن شخصيتهم كأمة، وأن يتعاونوا مع البروتستانت لإعلان أساطيرهم الثلاث، الشعب المختار، والبعث اليهودي للمسيح، وأرض الميعاد . وفي بداية القرن العشرين كان المبشرون الإنجيليون قد سلموا نهائياً بحقوق الشعب القديم وكانوا هم أصحاب الشعار الذي اعتمدته الصهيونية (وطن بدون شعب لشعب بدون وطن). وفي صك الانتداب على فلسطين تم اعتماد وعد بلفور بإنشاء دولة إسرائيل.

يرى علماء الآثار أن كتابة التاريخ تعتمد على الأثر المكتوب وعلى الشواهد الحضارية وأن جميع الحكايات المختلفة التي كونت حدثاً في التاريخ مازالت مضللة مهما كان حدسنا التاريخي عالياً، وأن لا سبيل إلى فهم حقيقة التاريخ ودور الإنسان في تكوينه (الإنسان السياسي والاقتصادي والعالم والفنان والمعمار والعامل) إلا عن طريق الأثر والوثيقة، لذلك فإن الطريق إلى التاريخ ليس الأدب والشعر والحكايات كما في الأوديسه الإغريقية وتوراة أحبار اليهود، بل هو في الأركيولوجيا، أي الحفر في أرض التاريخ لكشف حقيقة التاريخ من خلال أثر

الإنسان، والبحث من خلال أجناس الإبداع الأخرى عن المناخ الفكري والأخلاقي والمعرفي الذي يحدد ملامح العصر ويساعد في توضيح الأسباب والمواقف.

وبصوره عامة فإن مصادر التاريخ ليست الأحداث التي كثيراً ما ترد في كتب التاريخ مقلوبة، بل هي الشواهد الحضارية من أوابد أثرية وتراث فني التي لا يجوز فيها التأويل والتحريف، لأنها الشاهد الأكثر بلاغة عن التاريخ أو الهوية القومية أو ما يسميه أحد الفلاسفة (الذاكرة المشتركة) التي تجعل التراث الإنساني ماثلاً في الحاضر كما هو ماثل في الماضي.

لقد كان التاريخ يعتمد على الحكاية، واستمرت أوربا ألف عام تكرر الأساطير الإغريقية والتوراتية كأنها أحداث لا شك بها، وكذلك الكنيسة، منذ عهد ثورة لوثر الإصلاحية على الأقل، أصبحت لا تعرف العهد القديم إلا من خلال الحكايات التوراتية. ولكنه في عصر التنوير كان لا بد من تدخل العقل للكشف عن الخيال التاريخي وعزله في زنزانة الخرافة، وأصبح الماضي قضية علمية منذ أن ظهر علم الآثار وتحدث المؤرخون عن تاريخ الحضارة، ولم يعد للكهان والفقهاء مكان في مجال الحديث عن الحكايات التاريخية.

لقد كان همنا في المديرية العامة للآثار أن نجعل العمل الأثري طريقاً لتصحيح التاريخ القائم على الحكاية، وجعل هذا العمل جهاداً لتحرير التاريخ من الأساطير والحكايات والمطامع المقدسة، وجعله علماً يقوم على المدونات والآثار والبحوث العلمية المحضة فعندها فقط نستطيع أن نقرأ تاريخنا ونمسح من الذهن المسيحي في العالم الخلفية والخيال التوراتي، وأن نستبدل بذلك الحقيقة التي هي موئل الفكر الأوربي العلماني الحديث.

ولقد تحول علماء الآثار، العاملون في بلادنا على الأقل، إلى المنطق واليقين العلمي وكانوا قد ابتدؤوا سدنة للمنطق التوراتي، وهو أخطر تحول حققته السلطة الأثرية عندما كانت تلتزم أهدافاً قومية صريحة، وتفرض هيبتها العلمية على عمليات الحفر الأثري. أثر هذا التحول كثيراً في الفكر الأثري العالمي، وانحسرت

السياسة الصهيونية المدسوسة في المراكز الأثرية العالمية، وتعالت أصوات العلمانيين الأثريين مما يبشر بنهاية عهد هيمنة الحكاية التوراتية على التاريخ، وانفتاحه على الحقيقة العلمية وعلم الآثار، وفي ذلك انتصار كبير لنا كعلماء وكأصحاب قضية، في فك العلاقة العقائدية بين التاريخ والتوراة، وبين العلماء والكنيست، وبالتالي بين الحق وبين الباطل.

ويتجلى انتصار علم الآثار في ما يؤكده الكشف الأثري كل يوم من أن الحكايات التوراتية هي خارج المكان والزمان، ولم تكن موجودة في التاريخ إلا في أوهام من كتب التوراة، بل أصبحت إسرائيل فضيحة السياسة العالمية التي آمنت بالوهم والخداع لتسويغ الاستيلاء على أرض ليست لإسرائيل لا تاريخياً ولا حضارياً، بل هي لسكانها العرب الذين أقاموا عليها دياناتهم، وثبتوا عقائدهم، وكانت مهداً لحضارتهم ولأحداثهم التاريخية الموثقة والمؤكدة بالكشوف الأثرية، إنها فضيحة الحكايات التوراتية التي كانت سبباً في تغيير تاريخ وجغرافية منطقتنا العربية ظلماً، وفي إثارة النزاعات والحروب، وفي هدر الطاقات والكرامات الإنسانية والقومية خلال سبعين عاماً. ومن أولويات مزايا التحرر من الحكاية الأسطورية أنه إذ يفسح في المجال للبحث عن التاريخ الحقيقي فإنه يؤول لمعرفة الطريق إلى المستقبل، فالتاريخ الحقيقي يمتد من نقطة البداية ولا ينتهي في لحظة الحاضر، لأن الحاضر ليس خاتمة التاريخ بل إنما هو محطة في زمن التاريخ الذي لا نهاية له.

كان عالم الآثار أحدَ رجلين، إما عالم يبحث عن الحقيقة التاريخية من خلال البحث والكشف لرسم مستقبل أفضل، أو إرسالي يحاول تأويل المكتشفات لمطابقتها مع التوراة. ولابد من القول، إن عدداً من الإرساليين مازال يتابع مهماته ضمن نطاق المعاهد والبعثات التوراتية المعروفة لدينا، ومازالت أبحاثهم التي تنشر في مجلات توراتية خاصة صريحة في أهدافها الإرسالية التي كثيرا ما تتعارض مع الواقع الأثري المكتشف، ورغم هذا فإن حجم المعرفة التوراتية لم يصل بعد إلى أوليات المعرفة التاريخية العلمية الراهنة.

لقد كانت حكايات التوراة مصدراً تاريخياً وحيداً عن العهد القديم عندما كانت المكتشفات الأثرية معدومة. وكان الاعتقاد أن ما ورد في التوراة من أزمنة وأمكنة إنما يعود إلى فجر التاريخ الذي كان محصورا في هذه المنطقة من الرافدين إلى النيل، المنطقة التي كانت تشكل رقعة العهد القديم. ومع ان هذه الرقعة اشتملت على أقدم الحضارات وكانت مسرحاً لأحداث تاريخية لا حصر لها. فإن التوراة لم تتناول هذه الحضارات وهذه الأحداث بل ركزت على أحداث شخصية ضيقة، أو عارضة، لا قيمة تاريخية لها. وبالمقابل قدمت المكتشفات الأثرية أعداداً ضخمة من الرقم المسمارية والأختام والشواهد التي عرفتنا بتاريخ طويل وحضارات متعددة ظهرت في بلاد الرافدين ومصر وسورية. ولأن معرفتنا هذه ترتكز على شواهد ووثائق أصلية، فإنها معرفة علمية لا مجال للطعن بها، على عكس أخبار التوراة فهي حكايات سردية متأخرة عن تاريخها اختلط فيها الوهم والغرض، ليس بالإمكان جعلها مصدراً صالحاً. وكان هذا تحولا هاماً في تاريخ البحث الأثري،الذي اعتمد على فحص الفخار إذ نستطيع تحديد تاريخ الفخار أو أي جسم عضوي عن طريق فحص تبدد أشعة الفحم 14 فيه، خلال خمسة آلاف عام. لمعرفة أعمار المراحل والأحقاب لكتابة تاريخنا .

لقد كان هدف جمعية «صندوق استكشاف فلسطين» التي كانت وراء البعثات الأثرية، البحث وفق منهج دقيق ووثيق، في آثار الأرض المقدسة وطبوغرافيتها وجيولوجيتها وجغرافيتها الطبيعية، وعادات سكانها وتقاليدهم. وكان من أبرز من قام بالتنقيب في فلسطين والأردن فيما بعد غلوك الذي قال: «كلما كنت أذهب مستكشفاً كنت استعمل التوراة كدليل للآثار، وأثق ثقة مطلقة بمعلوماتها وشواهدها وحتى تلميحاتها». ومنذ العام 1952 قامت العالمة كينون بحفرياتها في أريحا فنقضت أكثر ما جاء به ألبرايت، وبخاصة ما يتعلق بمزاعم تاريخية توراتية، وابتدأت أعمال التنقيب تسير باتجاه أكثر موضوعية لاعتمادها على فحص الفحم 14. وهكذا فإن جميع المحاولات الاستكشافية في فلسطين والأردن وسورية لم تقدم أي دليل قاطع على أن ما ورد في التوراة كان حادثاً تاريخياً، ولم تؤكد أن المواقع التي وردت فيها تتطابق في وضعها وعلاقتها ببعضها مع ما هو قائم في فلسطين. إن عدم تطابق الأحداث التوراتية مع المكتشفات الأثرية كان موضع

خيبة أمل كبيرة للعلماء الذين ابتدؤوا ينفصلون عن الحدث التوراتي لمصلحة الحدث المكتشف، وقد أعلن ذلك صراحة عدد كبير من العلماء من أمثال لاب وديفر وفرانكن وماتييه، بل أصبح الاعتماد على التاريخ التوراتي عبثاً يتحاشى العالم الموضوعي التنويه به. ولعل اكتشاف آثار إبلا في (تل مرديخ - سورية) كان فاصلاً في تحويل علماء الآثار نحو الموضوعية العلمية وتجاهل الهدف التقليدي السابق، وهو تأكيد الأحداث التوراتية.

كان المنقبون يربطون مكتشفاتهم بالتاريخ التوراتي، دون الاعتماد على تاريخ الفخار،بل كان المنقبون يعتمدون على ما ورد في سفر الخروج وسفر يشوع (الإصحاح 7-9-10)، وفيه أن العبرانيين خرجوا من مصر بقيادة موسى، ثم تاهوا في سيناء، وعند مرورهم من شرقي الأردن (كما في سفر العدد) احتل موسى والقبائل الاثنتا عشرة جزءاً من أراضي مؤاب، وبعد مقتل موسى من جماعته في موقع يسمى نبو، تولى القيادة يشوع ابن نون فقطع نهر الأردن إلى أريحا. ويخبرنا سفر يشوع أن أريحا كانت مدينة كنعانية مسوّرة ومنيعة، وأن العبرانيين لم يتمكنوا من اختراق أسوارها إلا بمعجزة من يهوه وقد هدم الأسوار أمام العبرانيين الذين طوفّوا حول الأسوار سبعة أيام وهم ينفخون بالأبواق احتفالاً، ثم دخلوا أريحا فهدموها كلها وقتلوا سكانها.

على هدى هذه الأخبار التي فرضت على الأثريين لأنها توراتية مقدسة، فإن الأثري غارستانغ Garstang خلال حفرياته عام 1930-1936 في أريحا، أعلن أنه عثر على شواهد تؤكد تدمير أريحا زمن يشوع، إذ اعتقد أنها كانت محصنة بسور كان الإله يهوه قد هدمه أيام يشوع، كما تقول التوراة. ولكن العالمة البريطانية السيدة كاتلين كينيون Kenion قامت مابين عامي 1952- 1958 بحفريات هامة في أريحا كانت سبباً في هزيمة جميع الأفكار والاستنتاجات السابقة، وكانت السبب في إعادة النظر في كل ما كان يُعَدُّ من المسلمّات، وأثبتت اعتماداً على فحص الفخار أن سور أريحا المكتشف يعود إلى العصر البرونزي القديم وكان هذا تحولا هاماً في تاريخ البحث الأثري، وأنه لا صحة ولا حجة من أن العبرانيين احتلوا أريحا، بخاصة أن سفر القضاة يتحدث عن معاركهم وأنه لا يوضح أنهم احتلوا

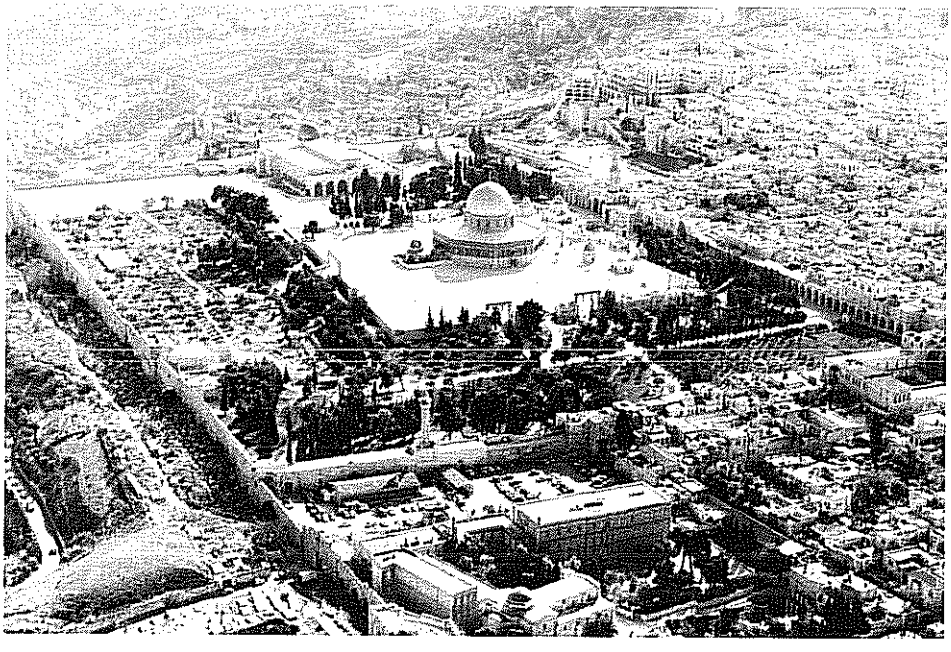

القدس

كل فلسطين، بل هم الخبيرو الذين كانوا طبقة من المحاربين المرتزقة ذوي أصول حضارية ولغوية مختلفة كما يرى ميك. وفي عامي 1960-1961 استمرت السيدة كينيون بالتنقيب في القدس معتمدة على تاريخ الفخار المكتشف، واستطاعت هذه العالمة الجريئة أن تنقض جميع الفرضيات التي قامت على المدلول التوراتي غير العلمي بنظرها، ولم يلبث جميع الذين خالفوها في البداية أن أعلنوا صواب وموضوعية اكتشافاتها.

لم يكف النشاط الأثري الصهيوني عن البحث عن تاريخ اليهود في فلسطين، فمنذ عام 1925 اهتمت الجامعة العبرية بالتنقيب الأثري. وكان سوكنيك Sukenik أول من نقب عن الآثار، وهو والد الجنرال إيغال يادين، وبعد أن يئس من بحثه التوراتي، اتجه للبحث عن القبور اليهودية في العصر الروماني الميلادي أي في القرن الثاني والثالث. ثم قام يادين نفسه بحفريات في حازور قرب الحوله بين عامي 1955- 1958. تتأكد أهمية علم الآثار لكتابة تاريخنا، نتيجة الأبحاث

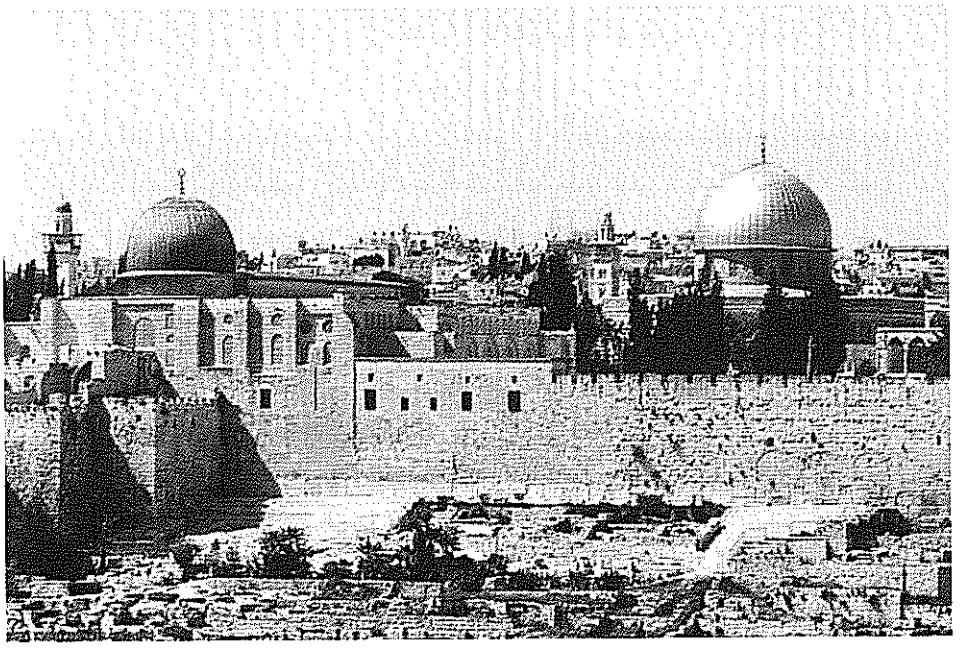

حائط البراق

التاريخية والتنقيبات الأثرية التي تقام بقيادة علماء من العالم ومن إسرائيل ذاتها، ولقد كان دافع الإسرائيليين في التنقيب الأثري هو تأكيد وجودهم على الأرض المحتلة، وتثبيت حكايات سفر الرؤيا من نبوءة ظهور المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الرب في الأرض فيما ورد من تاريخ إسرائيل ومن أساطير ومطامع تتركز في ما أورده كتاب التوراة في قيام دولتهم التي ستدوم ألف عام، ومن الوعد الذي قطعه الرب يهوه لإبراهيم بمنحه الأرض من النيل إلى الفرات. وقد نشرت (الملفات الأثرية)، وهي دورية فرنسية مشهورة، دراسة موسعة شاملة خصصتها لمدينة القدس تاريخياً وأثرياً. اعتمدت على الأثريين الإسرائيليين أنفسهم، وعلى نتائج تنقيباتهم في مواقع مختلفة، ولقد عرضت المجلة مجموعة هامة من الصور التي تمثل مواقع التنقيب ونتائجها. وليس في هذه الدراسات والصور ما يشير أو يثبت الوجود الإسرائيلي والتاريخ الإسرائيلي في هذه المنطقة. وأورد فيما يلي بعض أهم ما ورد في هذه المصنفات:

يعترف الأثري الإسرائيلي بروسحي، أن التنقيب الأثري قبل حرب 1967، كان مرتبطاً بالسلطة الأردنية وكان الأثريون ينقبون موضوعياً. وبعد ذلك التاريخ يعترف أن السلطة الإسرائيلية وجهت التنقيب الأثري نحو مدينة القدس وحصراً في ما يسمى بمدينة داود وفي المنطقة التي يعتقدون أن الهيكل أنشئ عليها، مع البحث في الأحياء اليهودية القديمة، ويقدم هذا الأثري ثبتاً بالتنقيبات المتعاقبة التي تمت في هذه المناطق مبتدئاً بأعمال 1960 التي قامت بها السيدة كينيون في جنوب الحرم في بساتين الأرمن، وقرب بوابة دمشق، وفي منطقة المرستان.

ويعترف بروسحي وجميع زملائه بعدم العثور على آثار محدده، بل حتى على أحجار منحوتة يمكن أن تنسب إلى سور أو هيكل أو قصر، ويعزو ذلك إلى كثافة المباني اللاحقة، وبخاصة تلك التي تعود إلى العهود الإسلامية. ويقول: «لم يعثر أبداً على أي أثر أو شاهد للهيكل أو القصر، وإنما هي مساكن شعبية». ويتحدث عن قوس روبنسون الذي ادعاه مازار، فنفى أن يكون هذا القوس قنطرة للعبور فوق الوادي باتجاه الهيكل. ولم يعثر فيما عدا هذا على أي أثر لمنشآت الهيكل الذي أقيم في عهد هيرودوس. بل عثر في منطقة المدافن على كتابات آرامية لا تدل أبدا على علاقة بالعبريين، وهي تعود إلى عام 40 م. وسنرى في هذه الملفات أن جميع الحفريات الأثرية، لم تقدم أي دليل على الوجود الإسرائيلي تاريخيا، أو لأنّ هذه المنطقة الجغرافية هي أرض إسرائيل. وسنرى هذه النتائج في موقع إبلا التي ازدهرت مملكتها ما بين الفترتين (2400 – 2250) قبل الميلاد. وفي مكتبة القصر عثر على خمسة عشر ألف لوحة مسمارية (رقيم)، تحوي هذه اللوحات أخباراً عن تاريخ نهضة وسقوط إبلا، وعلى شواهد مذهلة تشير إلى بعض الأشخاص والأمكنة المذكورة في العهد القديم مما أثار جدلاً حاداً. فقد ورد اسم اورشاليما، وتعني مدينة السلام. وهذا يعني أنّ القدس أور سلام كانت معروفة منذ عام 2400 ق.م كغيرها من المدن التي ذكرت ومازالت موجودة مثل دمشق- حماه- حمص- حلب- بيروت. وإن تسميتها بأورسلام قديم جداً خلافاً للادعاء من أن داود هو أول من أطلق عليها هذا الاسم. وإنه ليس لهذه المدينة علاقة في منشئها باليهود. بل هي وقبل أكثر من ألف عام من ظهور موسى مدينة كنعانية نعرف الآن حسب وثائق إبلا أنها كانت موجودة وزاهرة.

ولعل اكتشاف لفائف قمران من أهم المراجع التي تساعدنا على فهم مرحلة من مراحل التاريخ القديم، ففي عام 1947 عثر عرب التعامرة على لفائف من الرق وأوراق البردى في مناطق حول البحر الميت أهمها في منطقة قمران. ثم قامت دائرة الآثار الأردنية بالتنقيب في مساحة واسعة لمتابعة الكشف عن لفائف أخرى محتملة. ولا نريد هنا التحدث عن اللفائف النحاسية التي تضمنت معلومات عن كنوز معدنية غنية سعت إسرائيل فيما بعد للحصول عليها. ونكتفي هنا ببيان علاقة اللفائف المكتوبة بالعهد القديم وبعصر السيد المسيح، ولقد تبين للعلماء أن هذه الوثائق تعود إلى الأسينيين المتقشفين. وتم الاستيلاء على هذه اللفائف من إسرائيل بعد نكسة عام 1967 واستقرت في متحف «بيت الكتاب» في القدس، ومنعت الاطلاع عليها. ولكن بعض العلماء استطاعوا قراءة بعض هذه اللفائف قبل دخولها إلى إسرائيل، ومنهم العالم الفرنسي دوبون سومير فيما نشره في جريدة الفيغارو الفرنسية سنة 1950. وتابع دراسة هذه اللفائف العالم الفرنسي أللغرو الذي ساهم في فك رموز اللفائف وقراءتها، وتحدثوا عن أسفار أشعيا وعن حقبة هي الأكثر وضوحا في بداية تاريخ المسيحية. وتمانع السلطة الإسرائيلية التوسع في قراءة مضمون هذه اللفائف، بعد أن أدركت خطورتها على تاريخهم المزعوم، وأيضاً يتحفظ الفاتيكان بنشر هذه اللفائف.

من أهم وثائق علم الآثار الرقم الألواح الطينية المكتشفة في العراق وسورية، وهي آلاف الرقم السومرية والأكادية وغيرها عرفتنا على تاريخنا بعد أن تم فك رموز الكتابة المسمارية من قبل علماء اللغات القديمة وخاصة العالم البريطاني راولنسون بعد العثور على حجر بهايستون في ايران والذي نقش بالفارسية والعيلامية والبابلية. الخطوة العملية في اعتماد الحكاية التوراتية تمت في بيان «بروتوكولات حكماء صهيون» التي وضعت كخطة في مؤتمر بال 1898 بإشراف هرتزل. وتنص هذه التعاليم والخطط على دعوة اليهود للسيطرة على العالم أجمع، وتأسيس حكومة ملكية استبدادية مقرها أورشليم أولاً، ثم تستقر إلى الأبد في مدينة روما.

بعد أن أعلن علم الآثار عن عدم تطابق آثار هذه المنطقة مع التاريخ التوراتي، وعن عدم إثباته لأي من الأحداث التوراتية في هذه المنطقة، ظهرت نظرية «التوراة

جاءت من عسير في الجزيرة العربية» لكمال صليبي لكي تتحدث عن جغرافيا بديلة حصرتها في منطقة محدودة جداً بعد أن كان عرضها الأرض بين النيل والفرات، ثم عرفتنا أن تلك الممالك لم تكن أكثر من قرى أو مضارب للبدو، وأن الملوك ما كانوا أكثر من رؤساء عشائر، وأن هذا المجتمع لم يشكل حضارة إلا عندما يتجاوز حدوده باتجاه الشمال، وهكذا فإن هذا الكتاب يقدم دليلاً جديداً على أن التوراة هو كتاب أدبي ديني وأنه امتلأ بأسماء أمكنة كانت قد فسرت مواقعها على منطقة تمتد من نيل مصر إلى فرات العراق عبر بلاد الشام وسيناء، وأن هذه الأسماء لم تجد لها محلاً على هذه الخارطة الجغرافية المترامية الأطراف إلا في عسير.

وإذا كان المؤلف قد حاول إيجاد الخارطة الأكثر انطباقاً على هذه الأسماء، فلقد اعتمد على الشك القائم على ترجمة هذه الأسماء. بسبب التحريف في حركاتها واعتمد على تأويله لأسماء المواقع الحالية في عسير مستفيداً من علاقاتها ببعضها ومن أوضاعها الطبوغرافية، والحق أن خيبة الآمال المتتابعة التي أصيب بها علماء الآثار التوراتيين، جعلتهم يشكون في أرض التوراة ذاتها، فإذا كانت جميع أعمال التنقيب لم تؤكد بعد ما إذا كانت المواقع التوراتية مثل أورشليم أو جرار أو بئر السبع. هي ذاتها المعروفة اليوم، فإن هذا يعني أحد أمرين، فإما أن يكون التاريخ التوراتي لهذه المواقع مزعوماً، وإما أن تكون هذه المواقع هي غير المواقع التوراتية. وفي الحالتين فإن الشك يقع مرة على التاريخ التوراتي ومرة أخرى يقع على الجغرافية التوراتية، وأخيراً نرى أن الشك يقع على الزمان والمكان التوراتيين بوقت واحد، فإذا كان الأمر كذلك فإن الوجود الصهيوني كله يصبح دونما إحداثيات جغرافية أو تاريخية.

اندفع إلى التنقيب والبحث والكتابة في تاريخ إسرائيل على ضوء التوراة، كل من البرايت ورايت Wright وغيرهم ثم ابتدأت معارضة اتجاههم من العالم فنكلشتاين Finkelstein ووايتيلام Whitelm وطومسون Thomson الذي حورب بشدة، وطرد من جامعته وتلقته جامعة كوبنهاغن في الدانمارك، واعترفت أن طومسون كان دقيقاً في بحثه، وشجاعاً في مناهضته للأفكار غير العلمية. ويؤكد وايتلام انه لابد للعرب والفلسطينيين من إثبات تاريخهم وفضح محاولات استعمارية تعتمد

على قوة عظمى، كانت تدعى إسرائيل القديمة، اختلقها التوراتيون وصوروها على أنها إمبراطورية بدوافع سياسية لتسويغ احتلالهم أرضا ليست لهم. بينما يرى وايتلام: أن إسرائيل القديمة لم تكن إلا خيطا رفيعا في نسيج التاريخ».

5- السياسة وعلم الآثار- نداء

في الإطار السابق لابد من الإشارة إلى النداء الذي وجهه الدكتور البهنسي في كتابه «تاريخ فلسطين من خلال علم الآثار»، وجاء فيه :

منذ العام 1967 تتابع اخفاق الحفريات التي قام بها الإسرائيليون حصراً، مما كشف عن تاريخ فلسطين العربي الجذور، اعتمادا على اعترافات الأثريين العاملين في فلسطين وفي بلاد الشام، وعلى نتائج حفرياتهم التي كشفت عن حضارة كنعانية امتدت منذ الألف الثالث قبل الميلاد، تعتمد عقيدة ولغة واحدة، ما زالتا تشكلان جذر الحضارة العربية السائدة.

ولكن من المؤسف أنّ العالم السياسي اليوم لا يتحدث بمنطق العلم رغم أنه يعيش في عصر العلم، بل إنه يتحدث بمنطق القنبلة مغيّراً صفة العصر الحضارية إلى صفة همجية، ولست أدري متى يصبح في الكونغرس عضو من أولئك الذين يعيشون هذا العصر، يستطيع أن يقرأ التاريخ ويتابع الكشوف الأثرية ثم يبني كلامه وصوته على هذه القراءة. ولست أدري متى يستطيع أحد أعضاء الكنيست من غير التوراتيين أن يقرأ كيف تكذّب الاكتشافات الإسرائيلية ذاتها جميع إرهاصات اليهود التوراتية، عندها عليه أن يقول كلمة، أو يهاجر عائداً كما يفعل الكثيرون ممن أغوتهم كذبة الوطن الموعود، فعرفوا الحقيقة ولاذوا بالفرار.

ثم لست أدري متى ينهض السياسيون العرب، لكي يقرؤوا ما يكتبه علماء العالم ويتابعوا ما يكتب عن حقيقة الوجود اليهودي وعن تاريخ الصهيونية وتاريخ فلسطين منذ بدايته حتى اليوم؟... لماذا لا يقرؤون التوراة ذاتها، لماذا لا يناقشون التطلعات والمطامع اليهودية والصهيونية، على أساس الأسطورة

والخيال المريض والكذب المفضوح؟. أليس انتصار التاريخ هو انتصاراً للعدالة والحق؟.. إذاً لماذا لا نضع الأمور في نصابها ونجعل للتاريخ وعلم الآثار الدور الأول في معركة المصير التي تخوضها مع اليوم؟!.. أليس من العار أن نخاطب أنفسنا على أساس الواقع المهزوم. أليس من الجهل أن نحاور العالم على أساس حكايات التوراة التي أصبحت بفعل الصهيونية مسلمة لدى أغبياء العالم.

لماذا لا يُمنح مؤرخو العرب جميعاً وعلماؤها الأثريون فرصة الكلام في مجالس السياسة، لماذا لا نوظف قوة التاريخ وبرهان العلم في معركة المصير، كما وظف الصهاينة قوة الأسطورة والتوراة في معركة وجودهم وأطماعهم.

لقد كانت ثمة تجارب ناجحة جداً خاضها العلم والتاريخ في معركة اكتشاف إبلا، وفجأة تضافرت جميع القوى لإخماد الصوت التاريخي في معارضة الصوت الأسطوري التوراتي. ولنا أن نعرف بعد ذلك حدود خيبة الأمل التي أصابت أولئك العلماء الشرفاء في العالم والذين حسبوا أن قوة العلم التي أشهرناها هي قوة يؤمن بها أهل السياسة أيضاً، فانكفؤوا على أنفسهم مبتعدين عن ساحة لا سند للعلم فيها في معركته ضد الوهم، فماذا عسانا أن نقول للجيل القادم من الذين آمنوا أن التاريخ هو أقوى ما يحفزنا على بناء المستقبل، هل نقول لأولئك إنّ دروس القومية التي يتعلمونها هي دروس في وطن مغلق، أم نعود مرة أخرى وبكل شجاعة للقول إن دروس القومية هي دروس من التاريخ ومن العلم وإن ما نتحدث فيه عن عروبتنا وأصالتنا هو حديث حضاري يهم العالم كله أن يعرفه، وأنه الحديث الذي نستطيع به أن نقهر ونهزم جميع الادعاءات غير التاريخية

إن معركة الوجود والمصير تتحرك في ساحة العلم الذي يؤمن به أيضاً علماء العالم والمثقفون، وإذا تنكب المثقفون العرب عن استعمال جميع أسلحة العلم في هذه المعركة، فإن من يحل محلهم ليسوا قادرين على مجابهة قوة المدفع وقوة الأسطورة التي تدعم الحقوق المزعومة، وتؤدي إلى جعل القدس عاصمة موحدة وجعل الجولان جزءاً من دولة إسرائيل.

هل كان لليهود وجود سياسي خلال خمسة عشر قرناً مضت مؤخراً؟! هل استطاع العلماء اليهود إثبات وجود دولة لهم على هذه الأرض أو تحتها؟.

هل دفع أحدهم ثمن هذه المدينة من دمائه كمل فعل العرب المسلمون في مذابح الفرنجة سنة 1099م؟! هل كان من السبعين ألف شهيد في القدس، يهودي واحد دفع ثمن الوطن دماً وروحاً؟!.

ويقال إن سليمان أنشأ هيكلاً، ونحن نعرف أن الصوريين هم الذين أنشؤوا هذا الهيكل. وبعد السبي الأول (586 ق.م) ماذا بقي من اليهود وكم كان عددهم. إنها روايات متناقضة حتى ظهر من العرب من يقول إن التوراة كتبت في عسير وليس في فلسطين وإنّ العائدين لم يذهبوا إلى فلسطين بل تناثروا في الأصقاع؟.

إذاً تلاحقنا عقدة التوراة في السياسة وفي علاقاتنا الدولية ثم في بناء الفكر العربي والبحث عن الحقيقة، ويصل بنا الأمر حتى نخترع تاريخاً ونفصّل جغرافية على مساحة هذا التاريخ. دون أن ندري ونحن نتحرك في ساحة السياسة أو في ساحة العلم على منابر الجامعات، أننا أسرى الأفكار التوارتية التي نسجت خيوط العنكبوت على أفكار الكثيرين من سكان العالم العربي. وصدق من قال: إن الصهيونية خارج حدود اليهودية هي أشد خطورة وأوسع انتشاراً.

لقد أراد بناة إسرائيل أن يوظفوا علم الآثار لتأكيد نص التوراة فلم يفلحوا. وعندما أرادت البعثة البريطانية البحث عن بوابة هيرودوتس الآدومي 37 ق.م، لم تعثر، في حفرياتها قبل الاحتلال حول أسوار الحرم الشريف، على البوابة بل عثرت على ثلاثة قصور أموية اعترف العالمان الإسرائيليان مازار ومساعده بن دوف، أنها تعود إلى عهد عبد الملك بن مروان. وعندما طالب اليهود بحقهم بحائط المبكى أسست لجنة البراق الدولية وأثبتت تاريخياً أن هذا الجدار يعود إلى منشآت عربية إسلامية وليس لليهود حق فيه. ولقد أكدت منظّمة اليونسكو اليوم عروبة هذا الجدار. ومع ذلك فإن حائط المبكى كان أول مكان صلّى فيه الحاخام الإسرائيلي

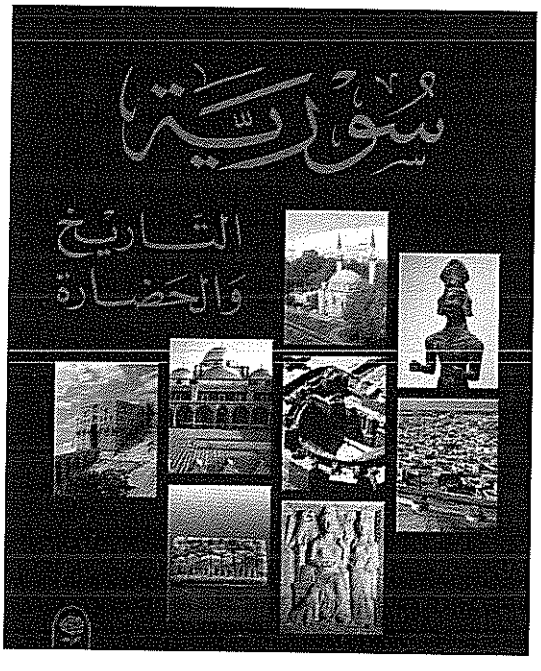

بعد احتلال القدس الشرقية في عام 1967. ثم وسع الجدار خمسة أضعاف، وهدمت الأحياء القديمة التاريخية المجاورة وأنشئ بديلاً عنها أحياء يهودية جديدة، وامتدت حركة التهويد إلى جميع أنحاء المدينة على المستوى الإداري والتعليمي والعمراني، بل لقد هدمت أماكن مقدسة وأحرق المسجد الأقصى عام 1969 وسرقت كنوز كنيسة القيامة واحتلت الأراضي الوقفية المسيحية.

بعد أن غادرت مديرية الآثار والمتاحف، قامت بعثة ألمانية وسورية بالتنقيب في الطبقة وتم اكتشاف أشياء مدهشة تثير الاهتمام من تماثيل وعقائد وآداب وكتابات، ومعنى ذلك أن الأرض السورية واعدة دوماً لتقديم أشياء على أعلى المستويات، أنا أتألم أكثر من غيري لأنني لا أعرف من سيكمل المشوار الذي ابتدأته وأنا أعلم أن القائمين على الآثار جيدون، ولكنهم منهمكون بمشكلة الاعتداء على الآثار، الرسالة التي ابتدأتها تحتاج إلى إيمان قوي جدا وأنا إيماني لم يكن نظرياً أو عاطفياً بل كان نتيجة أشياء رأيتها بعيني.

قررت أن أعمل كتاباً عن سورية بعد 15 سنة، جمعت أساتذة التاريخ من جامعة دمشق في القاعة الشامية وقلت لهم إنكم نقبتم وعرفتم بكل مراحل سورية الحضارية، وحدثتهم بما ننوي عمله، ولكونهم اختصاصيين بهذه الفترات فإننا نريد دراسات توضع في كتاب عن تاريخ سورية، وبقينا شهراً كاملاً في النقاشات، ولم يقم أحد بكتابة حتى سطر واحد، بينما علماء الآثار بعد حوالي خمسة أشهر قدموا كتاباً مطبوعاً ولكن لم يكن ما أريده، حيث أنني لم أكن أريد أن يكتب كل

منهم ما قام بعمله، ولكن أن يقوموا جميعاً بإعادة كتابة التاريخ، وكان من نصيبي أن أعمل كتاب (سورية طريق الحضارة)، وأنا أعدّهُ أهم كتاب عن سورية لأنه لا يحتوي أي كلمة غير موثقة نتيجة اكتشافات ومراجع ووثائق، ولأول مرة لم نعتمد على المؤلفات القديمة، مثل ما كان حتي[26] يعتمد على الكتّاب السابقين في كتابه تاريخ العرب، بينما في كتابي أدرجت ما كشفت عنه عمليات التنقيب، وما قاله كل عالم شارك فيها، وأين تم نشر ذلك.

لكن سورية أغلى من كل هذا بكثير وأغلى من طموحاتي وأغلى من كل ما أعرفه لذلك تحتاج إيماناً، ومن يقوم بهذا العمل يجب أن يكون مؤمناً بأن هذا التراث ليس له حدود، وفي كتبي أقوم بتذكير الناس المقبلين والمسؤولين عن الآثار بأن عليهم متابعة رسالتي، ومتابعة عمليات التنقيب الجدية والواسعة جداً التي ابتدأتها، خلال عشرين سنة كان هناك عمل متواصل واكتشافات عديدة وكبيرة. كتاب «سورية تاريخ وحضارة» هو كتاب كبير وكان يجب أن يكون في مجلدات وكتبت فيه عن سورية بكل جوانبها وبحسب مشاهداتي ووجودي خلال كامل فترات العمل، وهو كتاب مرجعي.

6- التنقيب تحت البحر

لم يقتصر التنقيب على اليابسة، وإنما امتد إلى البحر، فقد جاءني ذات يوم غطاس شاب من طرطوس ومعه جرة أثرية قال إنه وجدها تحت الماء، فشكرناه، وصرفنا له مكافأة، ثم بعد فترة جاءني بخمس جرات وقال إنها من طرطوس أيضاً، ثم في المرة الثالثة قال لي إنّ هناك المئات من الجرار مكدسين فوق بعضهم وموجودين في قاع البحر.

لم نكن نمتلك أي تقنيات للعمل تحت الماء وكان هناك بعثة يابانية تعمل مع NHK وهي مؤسسة تلفزيونية ولها العديد من الأفلام الوثائقية، فقالوا إنّ ال NHK تساعد بعمليات التنقيب في تدمر وهي مهتمة بعمل فيلم فوافقنا على ذلك وعملنا عقداً معهم على أساس أن يأتوا ببحارة وغطاسين، وأتوا بغرفة إنعاش

يدخل إليها الغطاس بمجرد خروجه من الماء ليتخلص من اختلاف الضغط الذي يسببه الغطس والعودة، وكان عددهم حوالي الخمسين غطاساً في عمل مستمر، وقاموا بإخراج خمسة آلاف جرة بارتفاع متر تقريبا سموها أمفورة، وأمفورة هي كلمة لاتينية مستعملة في اللغات الآثارية ومعناها جرة أثرية، وكان عليها ترسبات حصلت مع الزمن ولم تعد جرة عادية. عادةً كانوا يضعون فيها الزيت أو الخمر أو العملات المعدنية، أول ما خطر بذهننا أن يكون فيها عملات، ولكن لم يكن فيها شيء، فاستنتجنا أنها كانت تحوي الزيت أو الخمر، ومازال هناك خلاف عن الزمن الذي تعود إليه خاصة وأن الفحم 14 لم يعطنا الجواب الشافي، ولكنها على ما أظن تعود إلى 3000 سنة.

كانت العملية منظمة تماماً، وتمّ تصويرها وعمل أفلاماً عنها، وطلب استعارة بعض هذه الأمفورات لعرضها ضمن معرض كبير أقاموه عام 1988 في مدينة ناغويا عاصمة اليابان القديمة، وقمنا بإعارتهم خمس جرار، وحين التأمين عليهم قاموا بتقدير قيمتهم بنصف مليون دولار، وقد قمتُ بقصّ شريط المعرض وإلقاء كلمة وكان المعرض تحت رعاية سورية. وعادت الجرار سالمة بعد انتهاء المعرض ومازالت جميعها محفوظة في جزيرة أرواد. كان هناك لغط بين اليابان وأميركا، كان الأميركيون يتهمون اليابانيين بأنهم يصدرون ولا يستوردون، فقالوا لهم إننا نشجع دول العالم على الاكتشاف وهذا مصروف كبير ولذلك عملوا هذا المعرض، وضعوا الجرار الأصلية وعملوا جراراً اصطناعية، وعملوا زورقاً طوله حوالي الأربعين متراً حيث أننا كنا قد اكتشفنا بقايا الزورق الذي كان يحمله الجرار وقد تآكل مع الأيام وأصبح بقايا، فأعاد اليابانيون تشكيله، وكان هذا عملاً كبيراً جداً تمّ توثيقه بالكامل وإخراجه بشكل جديد، وكان اسمه ناغويا إمبورت، وعملوا الكثير من الاكسسوارات بشكل الأمفورة بغرض الدعاية لهذا الاكتشاف. وعلى المرء أن ينحني أمامهم لدقتهم في العمل وإتقانهم لعملهم ولكونهم لا يتأثرون بأحد بل يعملون حسب طرائقهم، ويأتي بعدهم الألمان، ولكن ما قدمه اليابانيون كان أكبر من الـ NHK. وتعاملنا أيضاً مع جريدة يابانية ساعدتنا بشكل كبير.

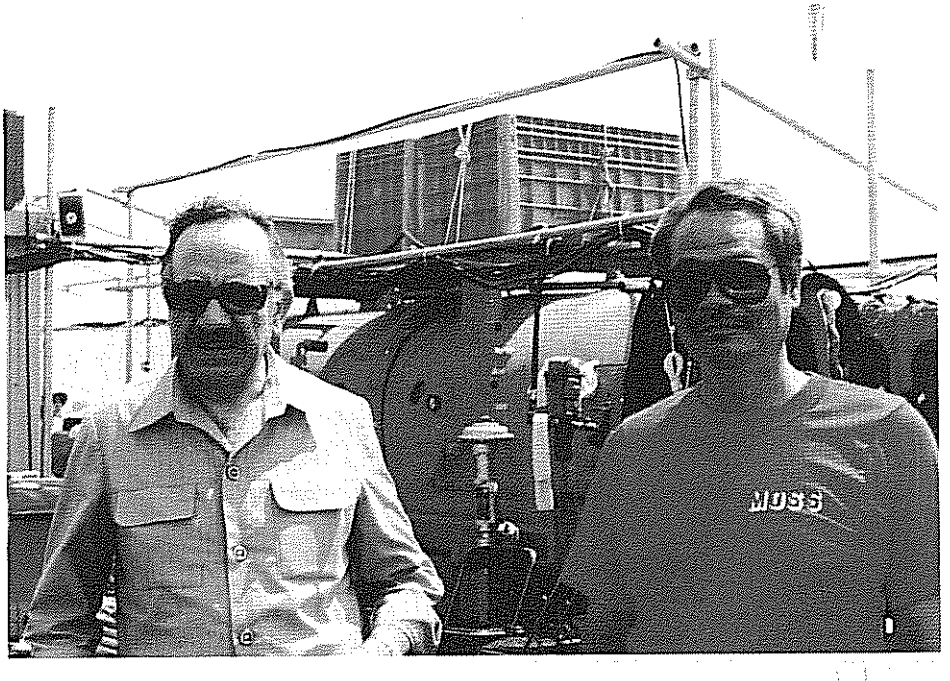

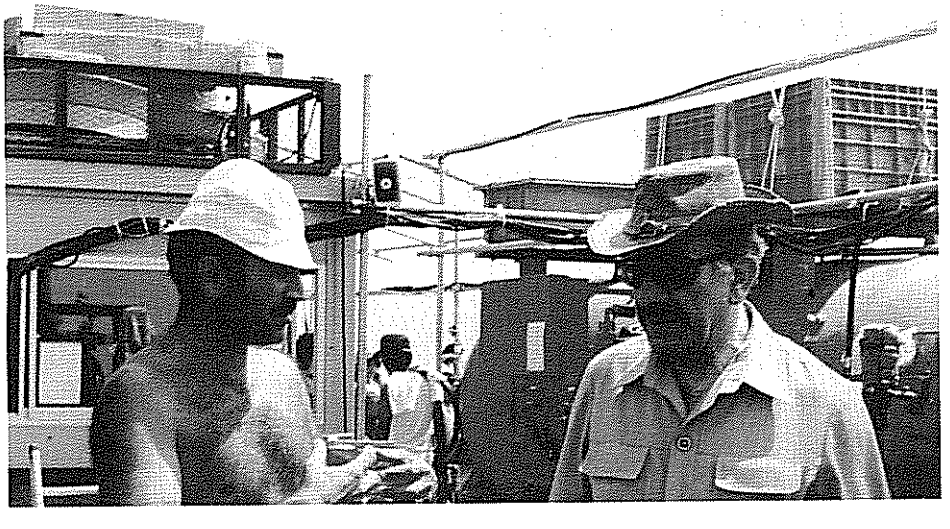

عملية إنقاذ الجرار أمام طرطوس

من المحزن أنه ذات يوم وضعنا إشارة الآثار على بيت «الخطيب» في دمشق القديمة، كان لديهم بيتٌ أثريٌ فيه غرفة جميلة. قال لنا أصحابه إنكم تقومون بتعطيل البيت لأجل هذه الغرفة، وطلبوا منا نقل الغرفة كي يستطيعوا التصرف بالبيت، فقمنا بفكّ الغرفة ووضعناها لدينا. جاء اليابانيون وقد كان لديهم متحف في الهواء الطلق يحتوي بيوتاً من كل العالم مع تقاليده وطرائق العيش فيه، وطلبوا منا هذه الغرفة وقالوا بأنهم يريدون وضعها في هذا المتحف لأنهم لا يمتلكون سوى خيمة، ولكن حدث سوء تفاهم مع الوزيرة، ومع مجلس الآثار، وتمّ رفض الموضوع على الرغم من أنه كان من الممكن أن يكون دعاية كبيرة لسورية. بقيت الغرفة في المستودعات ولم يتم الاستفادة منها.

7- معرض الآثار السورية المتجول

كانت صعوبة الظروف السياسية العالمية في العقد السابع والثامن من القرن الماضي، سبباً في عزلة سورية وفي ضعف النشاط السياحي، وكان لا بد أن نبادر في تقديم تراثنا المتحفي إلى العالم، للتعريف به ولتقوية العلاقات الثقافية مع العالم. ووضعنا مشروع إرسال ألف تحفة من الآثار السورية في معرض جوال عبر العالم، ووضعنا برنامجاً وشروطاً تتضمن انتقال المعرض وذلك بموجب اتفاقية رسمية تتضمن ضمان عودة الآثار إلى بلادنا سالمة.وتحمل تكاليف نقلها وتأمينها. كان إرسال ألف قطعة أثرية خارج سورية يتطلب جرأة. قدمنا كتاباً إلى رئاسة مجلس الوزراء الذي قام بتأليف لجنة من ثلاثة وزراء برئاسة وزير الاقتصاد لدراسة الموضوع، وعندما سألني عن الموضوع قلت إننا نريد عمل المعرض لأن الناس لا تأتي والسياحة ضعيفة، فعلينا تعريف العالم بما نملك، وبأن لديّ غيرة من معرض توت عنخ آمون المصري الذي يدور المتاحف الأمريكية ويستقبل بشكل كبير وبإخراج ضخم جداً، فقال لي: وما الذي يضمن الآثار؟ فقلت: إنّ التأمين هو مائة مليون دولار، فقال لي: هل تتحمل مسؤولية ذلك؟ قلت: نعم لأنني أعرف مع من أتعامل، وبأن العمليات كافة تتمّ وفق أهم المواصفات الفنية وبدقة كبيرة، فوافقت اللجنة على الموضوع.

بعد النجاح الكبير الذي لاقاه معرض الآثار السورية الذي أقيم في سبع مدن كبرى في اليابان عام 1976 وما لاقاه من صدى أقيم معرض مماثل للآثار السورية في عدة مدن ألمانية اعتباراً من تاريخ 23 آذار (مارس) 1982 وافتتح المعرض في قاعة قصر شارلوتنبورغ في برلين ثم انتقل المعرض بين مدن ألمانية هي برلين وآخن وفرانكفورت وميونيخ. وانتهى عرضه في 24 تموز (يوليو) 1983، تحت عنوان «عشرة آلاف سنة من الفن السوري»، لينتقل إلى فيينا عاصمة النمسا حيث افتتح في 13 شباط (فبراير) 1984 في مقر الكونسرت هاوس باسم «أرض بعل» وحضر المعرض مستشار الدولة، ثم انتقل إلى مدينة لينز وانتهى في 15 تموز (يوليو) 1984، لينتقل إلى باريس في القصر الصغير وحضره الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك وكان حينها رئيس بلدية باريس، وانتشرت اللافتات عن المعرض في أنحاء باريس تحت عنوان «عشرة آلاف عام من الفن والآثار في سورية». ثم الى إيطاليا حيث افتتح في روما في 15 شباط (فبراير) 1985 في متحف الكابيتول تحت عنوان «من إبلا إلى دمشق» وانتهى في 15 أيار (مايو) 1985 وحضره رئيس الوزراء ووزير الثقافة، وكان صفّ الانتظار يصل إلى خمسة كيلومتر حيث ينتهي اليوم وما يزال الناس في الانتظار. ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأميركية بمساعدة مؤسسة سميثونيان. عندما زرتُ واشنطن العاصمة وجدت أنها مليئة بالمتاحف، زرتُ متحف الفرير وهو اسم الشخص الذي تبرع بالمتحف، وزرت متحفاً جديداً عن الشرق الأقصى، ومتحفاً آخر جديداً عن الفن الحديث. عندما سألت لمن هذه المتاحف، قالوا إنها لمؤسسة سميثونيان، وهي تمتلك ثمانية متاحف في واشنطن والكثير من المتاحف في باقي الولايات المتحدة، فطلبت اللقاء بمسؤول من هذه المؤسسة، فحضرت سيدة تعمل فيها، وعندما سألتها هل تعرفين بلادنا؟ أجابت: نعم. فدعوتها لزيارة سورية وقلت لها أريد معرفة رأيك هل من الممكن لمؤسستكم مساعدتنا في موضوع عمل معرض؟ جاءت السيدة وزارتنا ودهشت بما رأته، وقالت لي بماذا تفكرين؟ فقلت لها إنني أفكر بعمل معرض لألف قطعة من العصور كافة، وهي أهم القطع الموجودة في متاحفنا وخاصة متحف دمشق، فأبدت موافقتها. سألتها عمّا يمكن أن

تقدّم المؤسسة لنا، فقالت إنّ المؤسسة تتعهد بإقامة المعرض في متاحفها، ونقل المعرض وتغليفه، مع تكفلنا بزيارتك ومن معك لكل أماكن إقامة المعرض في الولايات المتحدة، وعددت لي الأماكن من واشنطن وسان فرانسيسكو ولوس أنجلوس... والتأمين على المعرض بقيمة مئة مليون دولار وبأن قسماً كبيراً من الإيرادات تعود لنا مع طبع كتاب عن المعرض وكل ما إلى ذلك. وعملنا قوائم بكل قطعة وقيمتها الفردية.

وافتتح المعرض في 16 أيلول (سبتمبر) 1985 في كينكيناتي وبالتيمور وريشموند ودترويت. ثم عرض في متحف التاريخ الطبيعي بواشنطن، وحضر المعرض وزير الخارجية الأمريكي سايروس فانس يرافقه السفير الأمريكي في دمشق وكتب في صفحة الزوار «شديد الإعجاب والدهشة بعراقة الحضارة السورية، وأعد نفسي بزيارة المتحف السوري». ومن واشنطن انتقل إلى ولاية كاليفورنيا في مدينة لوس أنجلس في 13 أذار (مارس) 1986 وعرض بمتحف التاريخ الطبيعي واستمر عرضه حتى أوائل حزيران، واستمر هذا المعرض متنقلاً في الولايات المتحدة الأميركية طيلة عام 1986 وعام 1987. ويعد أكبر تظاهرة ثقافية. أشبعت رغبة ملايين الأمريكيين.

وقد تم طبع مجموعة من الكتب في 500 صفحة ملونة بلغات مختلفة، اليابانية والألمانية والإيطالية والإنكليزية والعربية والفرنسية تتضمن دراسات معمّقة مختلفة عن المكتشفات التي حقّقها علماء من أنحاء العالم من قبل هذه الدول، تعريفاً بتاريخ سورية الحضاري من خلال الآثار المعروضة. وفي فرنسا قامت جامعة السوربون بدورة كاملة مدتها ستة أشهر للحديث عن الآثار في سورية. واحتفل اليابانيون بشكل أكبر، وطبعوا كتاباً ضخماً وأنيقاً جداً باللغة اليابانية. ومن الهام الإشارة أن الكتب التي نشرت لم تؤلف من قبل نفس الشخص، فأصبح لدينا محصلة كبيرة، وكنت أدير هذه الأعمال كي أنسق بينها، ولم نتكلف أي مبلغ على الطباعة أو النشر وأخذنا كميات وقمنا بتوزيعها وما زلتُ أحتفظ بكل النسخ. وتحملت الجهات المضيفة جميع نفقات المعرض،

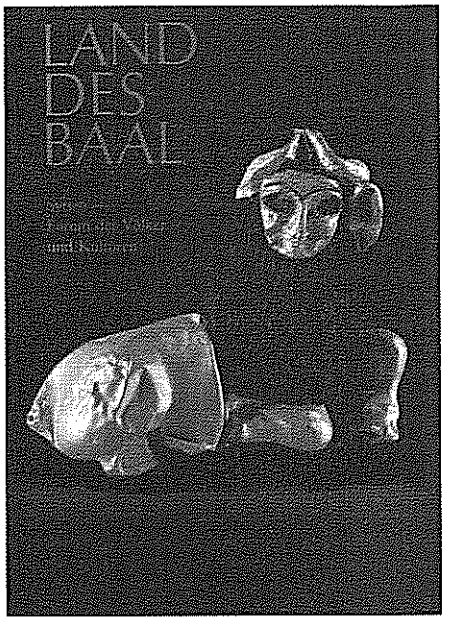

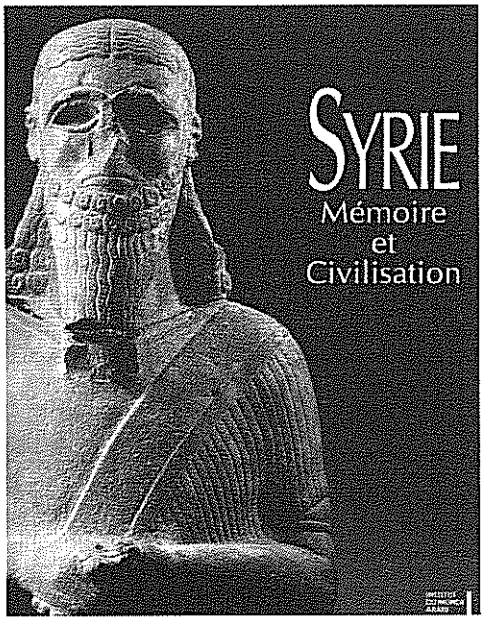

وتحملت مسؤوليته، وقُدّر مبلغ الضمان بمئة مليون دولار، وكانت عائدات المعرض لصالح سورية. وفي كتابي «علم المتاحف والمعارض» تحدثت بالتفصيل عن هذا المعرض.

المعرض في باريس حضره جاك لانغ، وقد كان وزير الثقافة، وهو حالياً رئيس معهد العالم العربي في باريس، وهذا الرجل شخصية مشاكسة جداً، وتحدى أمريكا وقت كنا في المكسيك إذ انتقد أمريكا بأنها تفرض نفسها على اليونسكو، وقامت أمريكا بسحب مساعدتها لليونسكو، وحضره يوسف شكور وكان سفيرنا هناك.

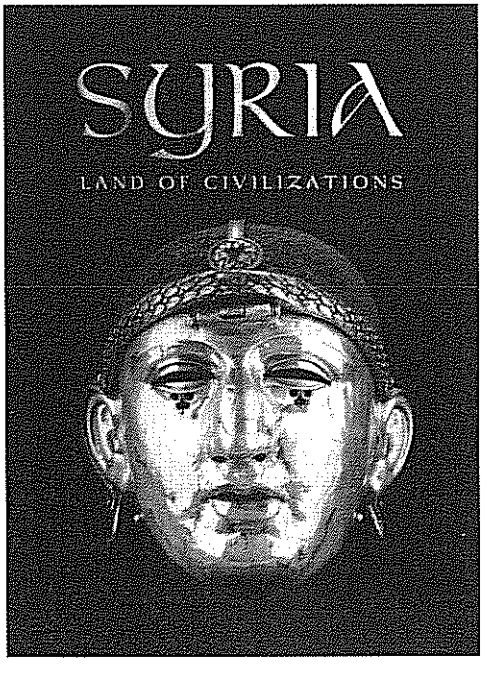

بعض الكتب التي صدرت بمناسبة معرض الآثار السورية

أما بالنسبة لروما فأريد تسجيل نقطة هامة حيث أننا أقمنا المعرض في الكابيتول، وهو أضخم آبدة موجودة في روما يتصدرها شيء له علاقة بملك روما القديم، وبالخلف هناك قاعة ضخمة وضع تصميمها مايكل أنجلو، وهذه القاعة كانت للماير، وهو رئيس بلدية روما . النظام في أوروبا وأمريكا أن رئيس البلدية مطلق الصلاحية في العاصمة، أنا ألقيت كلمة ولكن فوجئت بوجود وزير الخارجية والثقافة الإيطاليين والدكتورة نجاح العطار وسفيرنا في روما، فوجئت بأن المنصة الضخمة لرئيس البلدية عبارة عن منصة عالية عليها الأعضاء وخلفها تمثال بارتفاع ثلاثة أمتار هو لفيليب العربي فألقيت كلمتي وقلت إني سعيد جداً أننا نقف تحت ظلال إمبراطور سوري أقام العدل في روما، وفسح المجال لكثير من الاتجاهات الحرة، وكان سبب انتشار الدين المسيحي، وهو فيليب العربي، فقام الجميع بالالتفات إلى التمثال وكان التصفيق شديداً وكانت مفاجأة لكل الحاضرين.

في الولايات المتحدة أقيم المعرض في أكثر من مدينة، في دنفر ولوس أنجلوس وريتشموند وأوهايو وأخيرا أقيم في متحف التاريخ الطبيعي في واشنطن العاصمة وهو أضخم متحف في الولايات المتحدة، وهناك ألقيت كلمة ومن حسن الحظ قالت القائمة بالأعمال السورية بالخطاب إنكم الآن تشاهدون آثار سورية ولكن أريد أن أقول إن سورية أصبحت تعرف من خلال الآثار المكتشفة وأعطتني الكلمة، وكان فعلاً معرضنا في ثمان مدن هامة في الولايات المتحدة حدثاً كبيراً، وطبع كتاب سميك جدا تحت عنوان (سورية ألف عام من الحضارة).

في الدول الثانية مثل ألمانيا تولت مديرية المعرض في برلين عملية نقله إلى العديد من المدن الألمانية ثم نقل إلى النمسا حيث حضره المستشار النمساوي وأقيم في أعظم قاعة موجودة في فيينا . دار المعرض العالم كله خلال 12 عام حاملاً اسم سورية إلى أبعد مدى من التقديم والعرض الرائع، وحضره الملايين من الناس، وكتبت عنه وسائل الإعلام، وصدرت دراسات عن التراث الأثري السوري باللغات

المختلفة اليابانية والألمانية، وكان مثلاً كتاب النمسا غير كتاب ألمانيا مع أن كليهما صدرا بالألمانية وكتاب فرنسا صدر بصورة منفردة وكذلك كتاب إيطاليا.

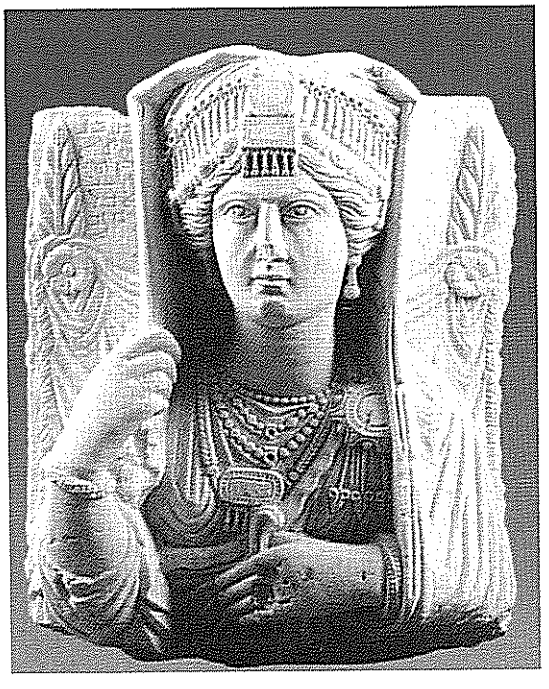

منحوتة لسيدة من تدمر

أدى النجاح الكبير الذي لاقاه معرض الآثار السورية الذي أقيم في اليابان عام 1976 وما لاقاه من صدى في أوربا وأميركا إلى مسارعة بعض الدول الأوربية كألمانيا والنمسا وإيطاليا إضافة إلى الولايات المتحدة الأميركية بالطلب من المديرية العامة للآثار والمتاحف لإقامة معرض مماثل للآثار السورية في مدنها. فتم تنظيم معرض (روائع الحضارة التدمرية في سورية) الذي افتتح منتصف عام 1986 في وارسو بولونيا، ثم انتقل إلى الاتحاد السوفييتي ليعرض في لينينغراد ثم في موسكو ونقل بعدها إلى ألمانيا الديمقراطية وعرض في برلين واستمر حتى نهاية العام، ليتابع بعد ذلك مسيرته مع بداية العام 1987 في بودابست هنغاريا ثم لينز النمسا ثم عرض في ميونخ وفرانكفورت في ألمانيا الاتحادية ثم استوكهلم في السويد. وتم طبع دليل عن هذا المعرض من قبل كل دولة.

8- الندوات الدولية في تاريخ سورية وآثارها

عقدت المديرية العامة للآثار والمتاحف خلال إدارتي لها ندوات دولية لتاريخ وآثار دمشق والفرات وأوغاريت ودير الزور، وقد شارك في هذه الندوات أكثر من

مع العالم كلود شيفر

ندوة أوغاريت – اللاذقية

ثلاثين باحثاً أوربياً وأميركياً وعربياً وسورية، ألقوا خلالها أبحاثاً تدور حول أعمال التنقيب الأثري والدراسات التاريخية في المواقع الأثرية.

في الندوة التاريخية في مدينة المنكب (المونييكر) 1984

الندوة العالمية لحماية دمشق القديمة

نظراً لأهمية هذه المدينة التاريخية والأثرية فقد عقدت يومي 25-26 أيلول (سبتمبر) 1982 ندوة عالمية موضوعها (دمشق القديمة- مستقبلاً) أقامتها نقابة المهندسين فرع مدينة دمشق، وكبار المختصين من الجهات الأخرى، وبعض المختصين والمهتمين من المديرية العامة للآثار والمتاحف

الندوة الدولية لتاريخ دير الزور وآثارها

في الفترة الواقعة بين 2-6 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1983 أقيمت ندوة لبحث عراقة تاريخ وآثار دير الزور بشكل خاص، وخاصة مملكة ماري في تل الحريري التي مر على اكتشافها خمسين عاماً برئاسة أندريه بارو، وهذا الاكتشاف يوضح لنا جانباً هاماً من تاريخ سورية القديمة، وحضارة ما بين النهرين بشكل عام. والسبب الهام الذي دفع لإقامة هذه الندوة هو ازدياد الأعمال التنقيبية في المنطقة واكتشاف آثار ذات أهمية بالغة مما يدعو إلى التعريف بها وإظهارها، لفسح المجال

مع الأمين العام لليونيسكو في بصرى الشام: عبد الرزق قدوره - عدنان البني - هشام دياب - عفيف البهنسي - رونيه ماهو - مدام ماهو - بديع حقي - خلدون كناني

أمام المواطنين للاطلاع على تفاصيل هذا التاريخ. وحماية لموقع ماري ثم ابتكار وسيلة هي سقف من مادة البوليستر.

ندوة من الشام إلى الأندلس

افتتحت المديرية العامة للآثار والمتاحف بين الثامن والعشرين من نيسان (ابريل) والأول من أيار (مايو) 1986 الندوة الدولية «من الشام إلى الأندلس» بمناسبة ذكرى مرور اثني عشر قرناً على انتقال عبد الرحمن الداخل من موطنه الشام إلى الأندلس. وكانت هذه الندوة استكمالاً لندوة شاركنا فيها في مدينة المونييكر التي وصل إليها عبد الرحمن الداخل في طريقه إلى قرطبة. وشاركنا

من دمشق إلى قرطبة - الندوة الدولية

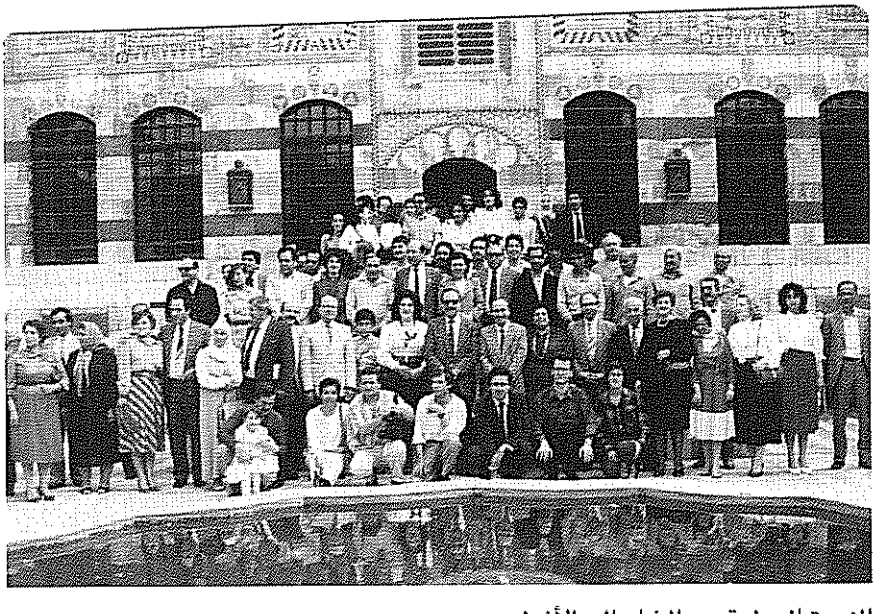

الندوة الدولية من الشام إلى الأندلس

في ندوة أثار الرقة، ويظهر إلى يمين المشاهد د. عبد السلام العجيلي

بتقديم الألواح التصويرية عن مدينة دمشق هدية للحاكم الذي رعى إقامة تمثال ضخم لعبد الرحمن الداخل على رأس شارع يحمل اسم دمشق.

9- حماية المباني الأثرية والتاريخية وترميمها وتسجيلها

في مجال الترميم والكشف عن الأوابد لا بد من ذكر أعمال الكشف عن جدران الجامع الأموي الكبير بدمشق وتسهيل الوصول إليه بفتح طريق جديد، وترميم كثير من الأبنية الأثرية وجعلها متاحف.وقد عمدنا إلى توظيف هذه المباني في الميادين الثقافية للمحافظة عليها.

قلعة جعبر

كانت شبه جزيرة في نهر الفرات، ولكن عملية الغمر بعد إقامة سدّ الفرات ونشوء بحيرة الأسد جعلتها جزيرة، وقمنا بترميم القلعة ولم يكن العمل سهلاً. تم ترميم أكثر جدران القلعة ولكن لم نستطع بناءها كما كانت، وعملنا للجزيرة برزخاً حيث أصبح من الممكن الذهاب إليها براً، وقدّمت لنا إدارة سدّ الفرات عملاً كبيراً لا نستطيع نحن القيام به، حيث قامت بتغليف

قلعة جعبر بعد حمايتها ومد الطريق إليها

جدار الجزيرة بشكل كامل بجدار إسمنتي مسلح، وكان الفضل بذلك للأستاذ المهندس صبحي كحالة المدير العام لمؤسسة سد الفرات ووزير سد الفرات لاحقاً في ذلك الوقت. قمنا بذلك لأن الضغط الميكانيكي على التربة كان سيؤدي إلى تفتيتها وزوال القلعة لولا السّتار الذي أقامته مؤسّسة سد الفرات ولم يكن هذا بالعمل البسيط.

قلعة حلب

أدركنا تماماً أن هذه القلعة لا مثيل لها وهي بحالة جيدة جداً وتحتاج إلى عناية خاصة، فقمنا بوضع خطة استثنائية لها، وبخاصة قاعة العرش الفسيحة جداً، التي كانت مهملة جداً، كانت هناك آثار وزخارف داخلية اقتنيناها من أحد بيوت مدينة دمشق، وتعود إلى بداية العهد العثماني فنقلناها إلى قاعة العرش، وكلفنا فريق عمل اختصاصياً بعمليات الترميم لتزيين هذه القاعة بالزخارف الداخلية أو ما يسمى العجمي، وهي زخارف خشبية ملونة نافرة، وأصبحت القاعة تستقبل نشاطات كثيرة ذات أهمية بالإضافة إلى كل المباني التي كانت موجودة في القلعة، ومنها ثكنة إبراهيم باشا، التي جعلناها متحفاً للقلعة،

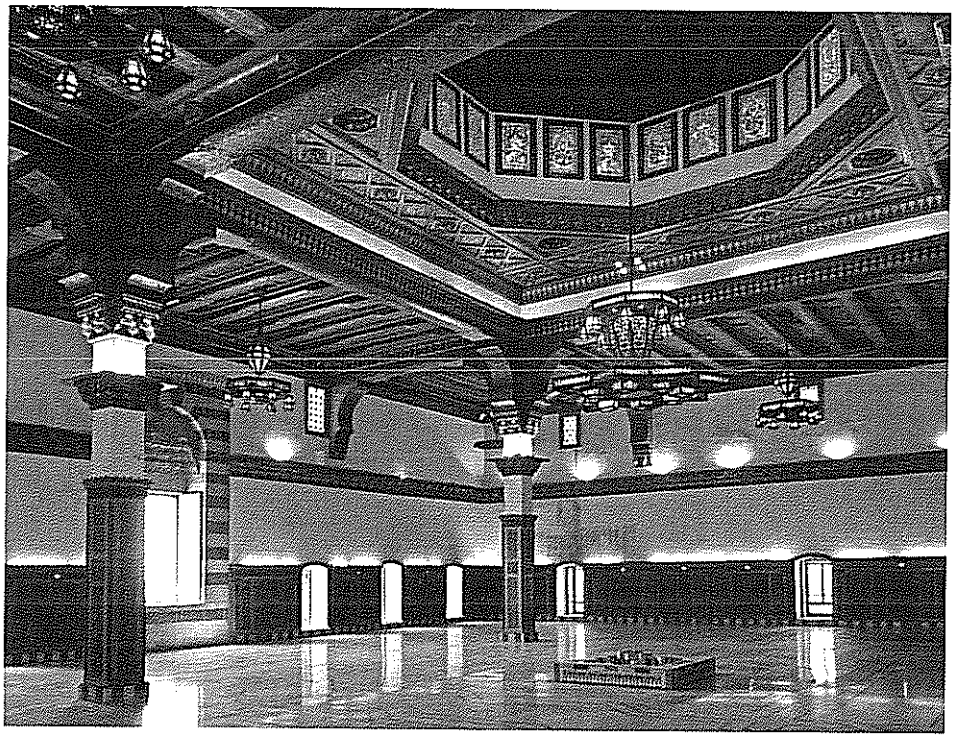

قلعة حلب – قاعة العرش

كانت قلعة حلب بادرة أعمالنا منذ بداية السبعينات، ويوجد قرب قلعة حلب خان جميل جداً هو خان الشونة، أتاني أحد الأصدقاء من حلب وهو الأستاذ أنطاكي وقال لي إنّ أصحاب الخان، وهم من أصل إيطالي، يريدون بيعه، وهم يريدون 75 ألف ليرة سورة ثمناً له، وهذا الحديث كان في بداية الثمانينات، فقلت له إننا سنقوم بشرائه وأصدرت قراراً بأن خان الشونة أصبح موقعاً أثرياً، وأصدرت قرار استملاك ودفعنا له المبلغ المطلوب، ثم قمنا بترميم الخان وكان في النتيجة من أجمل الخانات، ولم يكن الترميم صعباً لأن حالته كانت جيدة. والآن تستثمره وزارة السياحة، ونحن مع الأسف في مديرية الآثار لا يوجد لدينا فرص استثمارية لأن القانون لا يسمح لنا، وعلينا أن نعطي الأبنية التي نرمّمها إلى الجهات الأخرى للاستثمار، مادام الأمر لصالح الدولة وليس لمصلحة أشخاص.

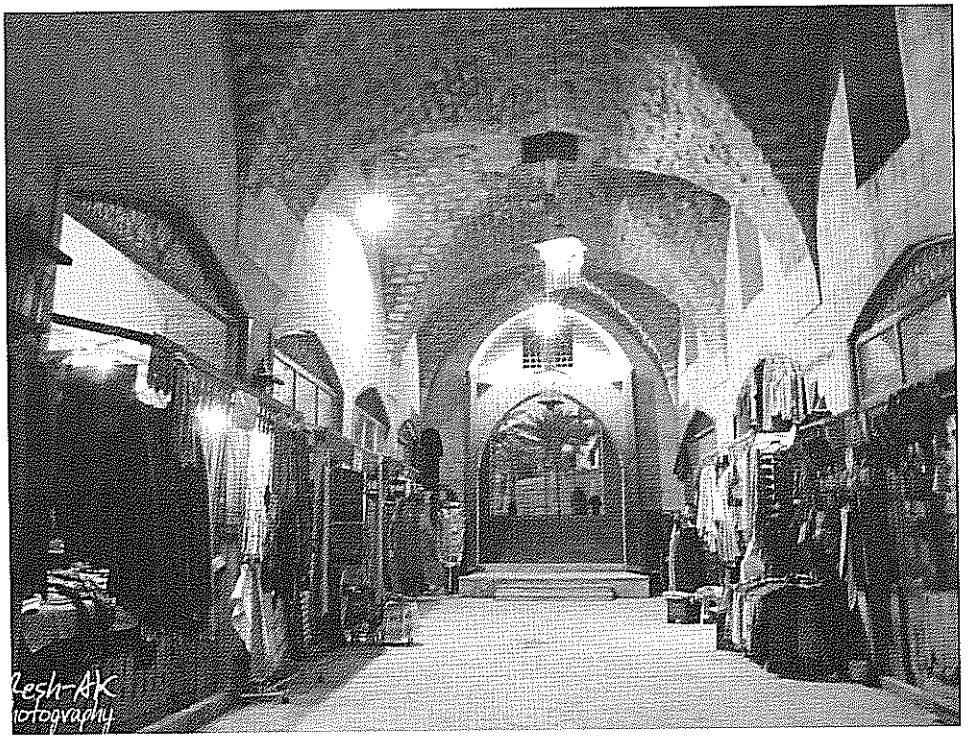

خان الشونة – حلب

قلعة دمشق

كانت قلعة دمشق مشروعاً ضخماً جداً جداً، وقمنا بترميمها بهدوء دون ضجة إعلامية، ولكن بتعاون جيد جداً مع الجهات الرسمية، يكفي أن وزارة الداخلية سلمتنا القلعة لأن كل المنشآت التابعة للبلديات كانت تحت إدارتها، ذهبنا إلى وزير الداخلية ناصر الدين ناصر حيث أقنعناه بأن القانون يقول إنّ هذه القلعة بعهدتنا، وكان الوزير إيجابياً وتفهّم الموضوع، خاصة أنه غير قادر على استغلال القلعة لأن وضعها كان بائساً جداً، حتى المنشآت الإضافية التي كانت فيها كانت بوضع يرثى له، وكانت القلعة عبئاً على وزارة الداخلية وأكبر من طاقتها، فساعدنا وسلمنا القلعة. وبعد أن تسلمناها باشرنا عملية ضخمة جداً وهادئة تماماً.

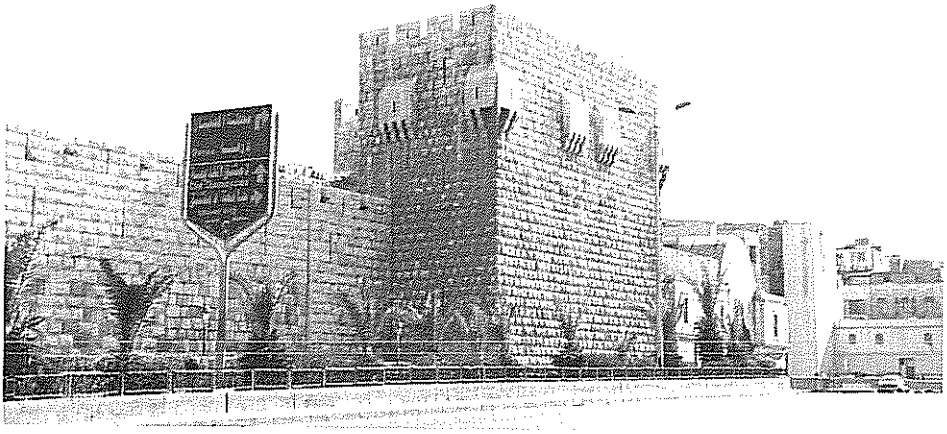

البرج الثامن بجوار مدخل سوق الحميدية بعد إعادة تشييده وترميم الواجهة الغربية

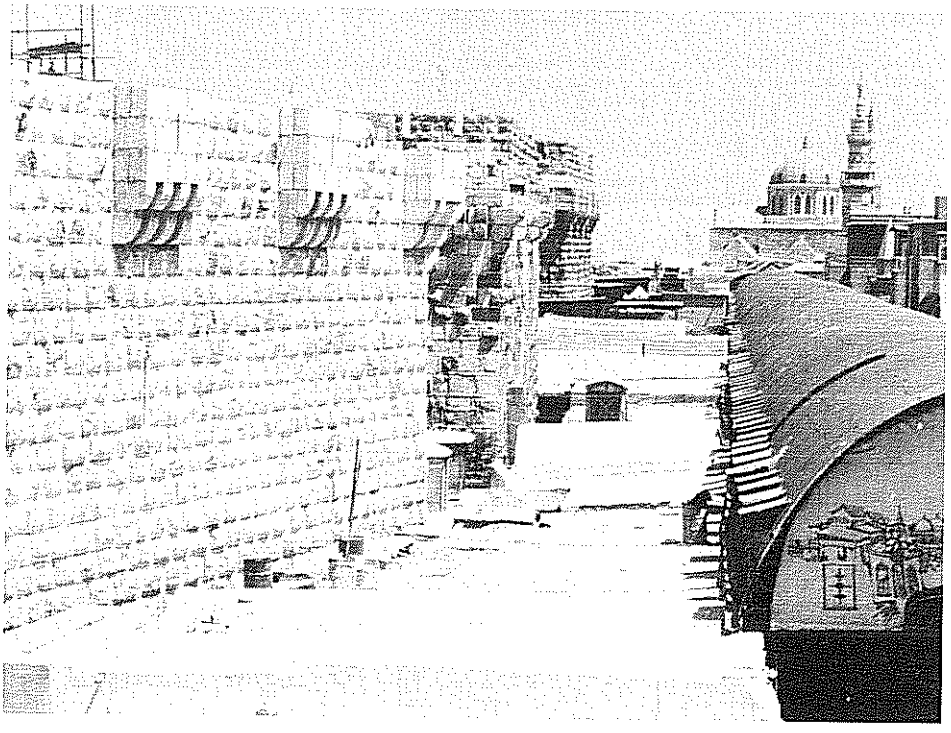

جدار القلعة الشمالي (المخفي) ويفصله ممر عن محال سوق الحميدية

كانت قلعة دمشق مغطاة تماماً من جميع وجوهها، وإلى ذلك كان هناك مشروع تنظيمي في منطقتها، يستوجب أن يكون هناك شارع من السنجقدار

إلى المرجة، ووجدنا أنفسنا أمام قلعة متهدمة، وخاصة الواجهة الغربية التي كان يخفيها سوق الخجا القديم، والبرج الثامن المجاور لسوق الحميدية، فبدأنا التحضير لعمليات الترميم. وفي الواقع كانت هذه العمليات فوق طاقتنا لأنها أولاً تتطلب تحضير الحجر، وتتطلب ثانياً جهوداً استثنائية، لذلك لجأنا إلى مؤسسة الإسكان العسكرية حيث قال لي رئيسها العقيد خليل بهلول، وهو إنسان نشيط جداً، إنه ليس لديه خبير في الترميم فقمت بنقل مدير الهندسة في مديرية الآثار محمد دهمان إلى الإسكان العسكرية بشكل مؤقت لبضع سنوات لكي يكون الخبير المشرف على عمليات الترميم الأثري. وكانت هذه مسؤولية كبيرة جداً لأن المنشآت المضافة للقلعة كانت بشكل اعتباطي وسيء جداً وكان الوضع بائساً جداً جداً، فقمنا بعملية تنظيف في البداية حيث أزلنا الجهة الشرقية وكثيراً من المنشآت الطفيلية التي كانت مشوهة جداً، وأعطينا كميات هائلة من الحديد لمعمل الحديد، وقد أخذت عمليات التنظيف منا زمناً وجهداً كبيرين.

كانت باكورة عمليات الترميم إعادة تشييد البرج الثامن الذي وجدناه على الحضيض حيث لم نجد له قاعدة وكانت القلعة محاطة بحوض ماء خندق يصل عرضه أحياناً إلى 12 متراً، وبعد بناء عدة مداميك من قبل مؤسسة الإسكان تهدّمت، قبل أن ننجح في العودة للقواعد الأساسية لإقامة البرج، واستطاع المرمّمون أن يستفيدوا من بعض الأبراج الشرقية لكي يحاكوا عملية الترميم على أساس علمي وواقعي وأن يعيدوا بناء البرج الثامن بكل تفاصيله الداخلية، حيث يوجد أدراج ومداخل، وكان إنجاز هذا البرج من الأعمال المميزة جداً وكل هذا بتعاوننا مع مؤسسة الإسكان العسكرية. استبقينا في القلعة بناءين مضافين، قمنا بترميمهما وإشغالهما بمعهد الفنون التطبيقية ومعهد الآثار والمتاحف.

كان التنفيذ للمؤسسة والإشراف اليومي لنا حتى لا نقع بخطأ في عملية كانت ذات أهمية كبيرة لإبراز القلعة، إلا أنني ما زلت أعتقد أن هناك عملاً لم نستكمله وهو أن جدار القلعة الجنوبي الموازي لسوق الحميدية بحالة جيدة جداً مازال مخفياً، بينما بين الجدار وبين المحال التجارية لسوق الحميدية فراغ يمتد

أحياناً لعشرة أمتار، وكان لديّ مخططات له وتمّ فتح المدخل ولكني فوجئت بإغلاق هذا المدخل من قبل المحافظة ولم يكتمل المشروع لأنني كنت أريد أن تظهر معالم هذا الجدار الرائع الذي يبرز روعة قلعة دمشق، وما زلت بحسرة على عدم اكتمال هذا المشروع علماً أن كل ما أقامته المحافظة هو جدار يمكن نقبه حالاً وفتح ممر سياحي يكشف عن جدار القلعة ويعطي فرصة للمحال أن تفتح أبوابها على هذا الممر لتمارس استقبال السياح من هذا الممر. تمّ رفض الموضوع من قبل محافظ دمشق وليد حمامية، الذي قال إنه لا يريد حصول مشاكل مع أصحاب محال سوق الحميدية، وبرأيي أن هذا المشروع لو تم سيعود بالنفع عليهم، ومازلت أرى أنه يجب كشف هذا الجدار لأنه سليم بشكل كامل تقريباً، فقد كان محفوظاً ولم يتعرض للقصف، بعكس البرج الذي أعدنا بناءه، وسيظهر بصورة رائعة لأنه يعود إلى زمن أقدم من زمن السلطان عبد الحميد وبناء سوق الحميدية[27].

خان أسعد باشا

كانت عملية ترميم خان أسعد باشا أسطورية، حيث يوجد فيه مئة غرفة كبيرة وجناح، والجناح أحياناً مؤلف من غرفتين وأحياناً من غرفة ويملكها تقريباً حوالي عشرة الآلاف شخص بالوراثة، كان الوضع بائساً تماماً وكان في صحن الخان بضائع منذ خمس وعشرين سنة تعجّ فيها القوارض، وكانت البحرة الموجودة في الوسط تسرب الماء فأثرت في أساسات القباب التسع وكاد البناء أن ينهار.

ذهبت مع المحافظ الأستاذ محمد السيوفي، وهو إنسان إيجابي جداً، إلى الخان ورأينا الواقع وأعلنت على لوحة قماشية بعرض عشرة أمتار أننا نريد استملاك البناء، ونريد أن نعمل فيه سوقاً للصناعات الشعبية، وبأن التجار سيخرجون منه من الباب ويدخلون من النافذة ويستغلونه في الصناعات الشعبية. لم يعترض أحد من التجار، ثم أصدرنا قانون استملاك وتمّ الاعتراض على المبلغ المقرر، فوافقنا وضاعفنا المبلغ وبقيت سنتين أوقع سندات للمالكين إلى أن أصبح الخان ملكا للمديرية العامة للآثار والمتاحف، ثم بدأنا بعمليات الترميم وكنت سعيد جدا

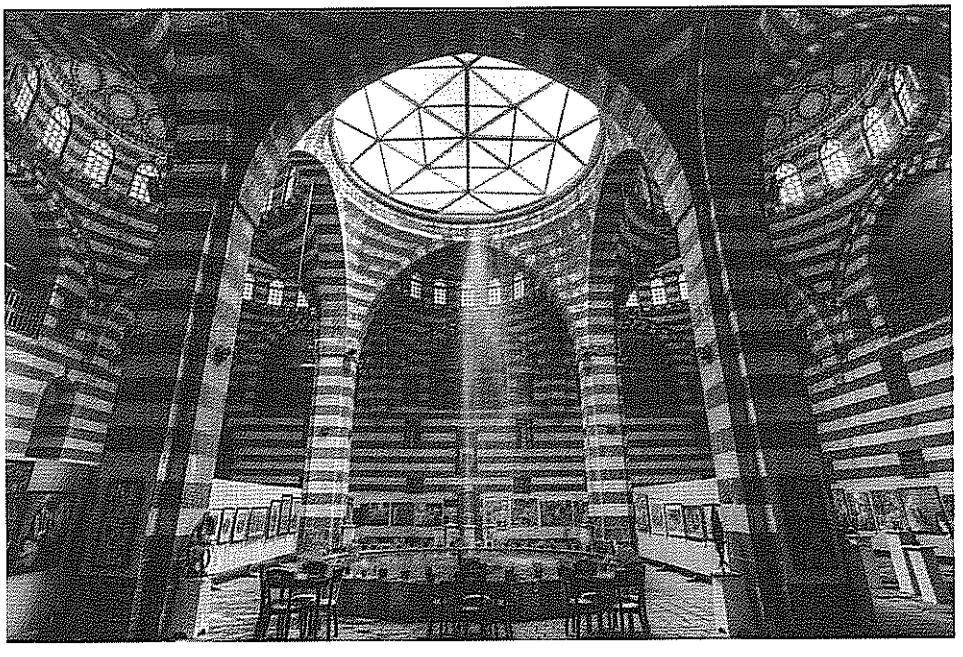

خان أسعد باشا اليوم

بأن عمليات الترميم كانت نظامية ونجحنا، ولكن كان الأجدر إنقاذ المبنى فقمت بدعوة أساتذة العمارة والهندسة لتقديم النصح فيما يتعلق بكيفية تقوية الأعمدة والأساسات. كانت الاقتراحات غير عملية أحياناً وكان لدينا بعض العمال المهرة في عمليات الترميم فقال لي أحدهم، وما زلت أذكره، إنه يستطيع وضع حل لهذه المشكلة ولكن عليٍ أن أتفرغ لهذا العمل، حيث أنني سأستقيل من الوظيفة، وأنت ستبرم معي عقداً لإنجاز الموضوع. وسأعمل أعمدة مؤقتة من الاسمنت المسلح وأسند بها القباب ثم أفك الأعمدة القديمة وأصلحها وأقويها، وأعيد الغلاف الحجري القديم لها ثم أهدم الأعمدة المؤقتة، فحاز الحل على إعجابي ووافقت عليه فقام بهذا العمل وأنا لا أذكر كم كانت تكلفة العمل إلا أنها كانت زهيدة جداً، وكانت مدة العمل ستة أشهر، وأعاد الأحجار مثلما كانت بعد أن رقمها وصب الأسمنت المسلح داخل الأعمدة. وبالوقت نفسه كنا قد مهدنا الأرض التي كانت بحالة سيئة نتيجة المياه المتسربة كما قلت، فقمنا بتنظيفها وكسوتها، وأعدنا البلاط الحجري كما كان وأصلحنا البركة الكبيرة بالوقت نفسه لتركيب الأعمدة.

البيمارستان النوري – متحف الطب والعلوم عند العرب

كان هذا أهم عمل قمنا به بالنسبة لخان أسعد باشا وكان الترميم بأيدي عمالنا فقط دون أي تدخل أجنبي. وأصبح المبنى ظاهراً للجميع بجماله المعماري، وتم توظيفه ثقافياً وسياحياً وساهمت الحفلات الموسيقية والمعارض الفنية التي أقيمت فيه باكتشاف جمال عمارته المتميزة.

بالإضافة إلى قلعة دمشق وخان أسعد باشا، عملنا في البيمارستان النوري وهو كان المشفى الوحيد قبل إنشاء مشفى الغرباء، ويعود إلى عهد نور الدين محمود الزنكي. كانت له وظائف طبية متقدمة، وكان يعالج بالموسيقا وبالعناية المشددة، ولكن كانت تشغله وزارة التربية وكان ملعباً لطلاب مدرسة التجارة، ولم تكن عملية إحيائه سهلة فقمنا أولاً بتسجيله، وثانياً باستملاكه، ونقلنا ملكيته إلينا وقمنا بتفريغه من المدرسة ورممناه، وأصبح فعلاً جديراً بأن يوظف فقمنا بتوظيفه كمتحف للطب والعلوم عند العرب.

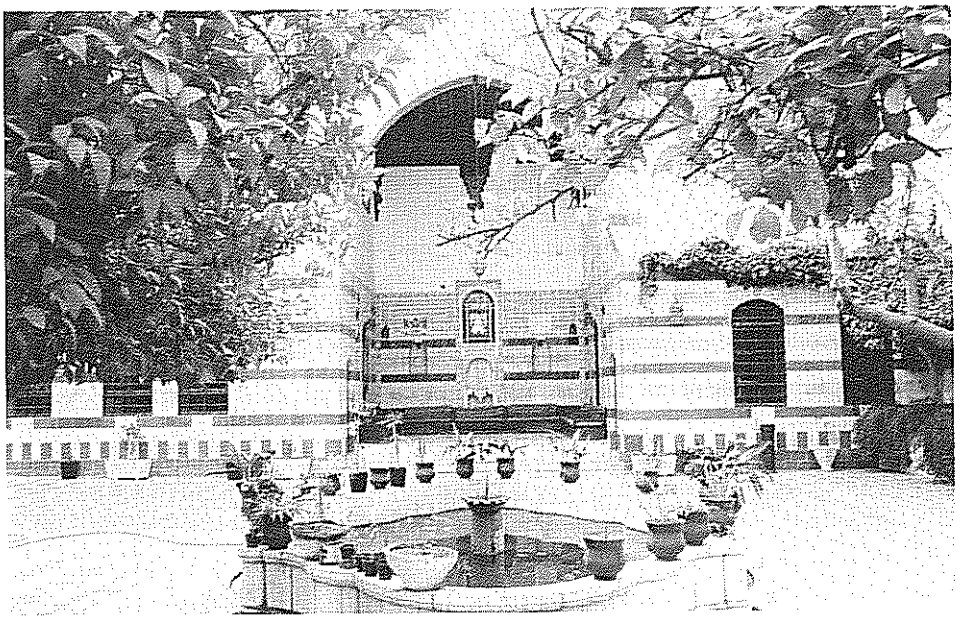

بيت خالد العظم - متحف دمشق التاريخي

بيت خالد العظم

يتميّز بناء بيت خالد العظم في سوق ساروجة بروائع العمارة الشامية المزينة بالزخارف العربية الأصيلة، ويعود تاريخ بنائه إلى مئتي عام، وكان مؤلفاً من ثلاثة بيوت متداخلة بعضها ببعض، من أجمل البيوت، وكان خالد العظم يقيم حفلات الدعاية الانتخابية والاستقبال فيه حين يرشح نفسه للبرلمان، وفي آخر أوقات هذا البناء احترق فتركه وأقام في أبو رمانة.

قمنا بشراء البيت من الوريثة زوجته السيدة ليلى الرفاعي، وقرأت قبل أشهر مقالة في جريدة الوطن الدمشقية كيف أن هذه الزوجة بددت الأموال التي كنا ندفعها لها[28]، حيث كنا ندفع لها مبلغاً تلو الآخر، وأقمنا حفلاً بعد أن تمت إعادة البناء إلى ما كان عليه، وقد تم الانتهاء من قسمه الداخلي مع بداية عام 1983. وأصبح متحف دمشق التاريخي، وقد أغنينا مجموعات المركز الوثائقية من سجلات المحاكم الشرعية والأوقاف، والصور التذكارية الضوئية وذلك بالحصول على صور تاريخية من ورثة المصورين. وحضرت الحفل السيدة علية[29] ابنة خالد

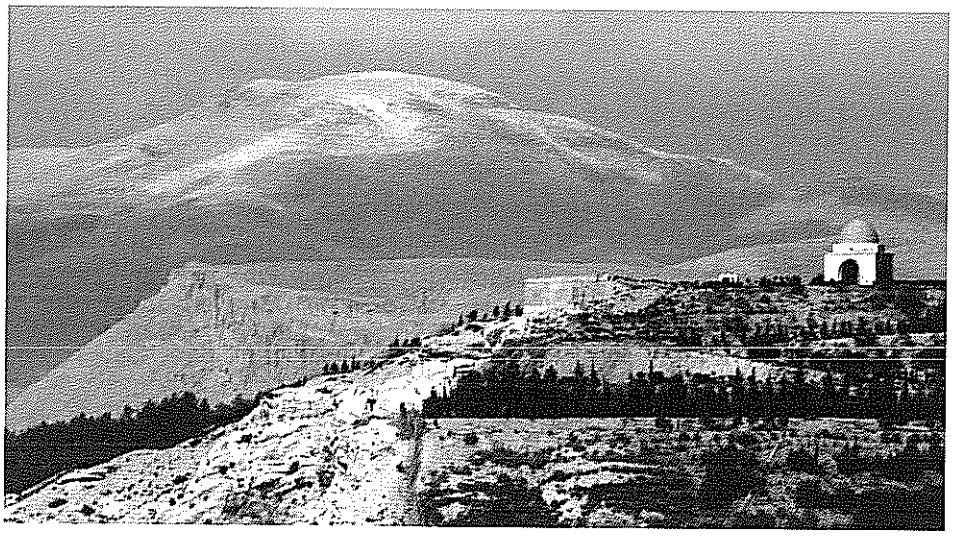

قبة السيار

العظم، التي لم تكن ليلى أمها، وصارت تبكي على تاريخ البيت ولكنها كانت فرحة بالوقت نفسه لأننا أعدنا بناءه على أكمل وجه. وقد قام بعملية الترميم عمال المديرية العامة للآثار، ودعونا الطلاب من كليتي الفنون والعمارة للمشاركة في الترميم لأنهم يعرفون استعمال الألوان والريش، وذلك بإشراف مهندسي المديرية، وهذا الأمر لم يقتصر على بيت خالد العظم بل استمرّ في غيره من البيوتات التي قمنا بترميمها في دمشق التي كانت دوماً فيها حركة دائبة من عمليات الترميم، استملكنا مكتب عنبر وبيت نظام وبيت القوتلي وبيت السباعي والعديد من البيوت، وكلها ترممت والآن تقوم مؤسسة آغا خان بعملية تجميلها واستثمارها، كما قلت إننا لا نستطيع استثمارها، ولكن نحن بمجرد استملاكها وترميمها نكون قد أنعشناها وهنا تنتهي مهمتنا .وقمنا بعمليات استملاك للبيوت التي كانت جديرة بأن تصبح نموذجاتٍ للتراث الأثري السوري في دمشق وحلب وحمص واللاذقية.

قبة السيار

أما بالنسبة لقبة السيار، فقد كانت محطمة ونحن استطعنا أن نرمّمها وأن نعمل لها إضاءة وأن تكون رمزاً لمدينة دمشق، وهناك اختلاف حول الزمن الذي

متحف ادلب

أنشئت فيه، وأنا أقول إنها أنشئت بزمن والي دمشق السيار الشجاعي لأنه ترك آثاراً ثانية في مدينة دمشق، ويضاف إلى ذلك أنه عندما أقيمت كانت عبارة عن مرصد، وليس قبراً، لأن الواقف في هذه القبة يستطيع أن يرى إلى مسافة كيلومترات من القادم باتجاهات مختلفة.

10- المتاحف

وجدت فقراً في المتاحف، وأنه لم يعد لدينا مخازن وأمكنة لاستيعاب نواتج عمليات الحفر والتنقيب التي توسّعت كثيراً، لذا وجدت أنه يجب أن يكون هناك في كل محافظة متحف على الأقل.

ابتدأت بتوسيع متحف دمشق، وأنشأت متحف الخط العربي، ومتحف الطب والعلوم، وعملت في حلب متحف الفنون الشرقية، حيث اشتريت بيت أجق باش، ورممته وافتتحته وعملنا ندوة فيه. ثم ذهبت إلى اللاذقية وأخذت خان التتن، ورممته ورممت حديقته، وعملته متحفاً جميلاً جداً، ثم ذهبت إلى إدلب وبنيت متحفاً فخماً لآثار إبلا، وذهبت إلى الرقة وأخذت بناء البلدية وحولته لمتحف.

متحف الرقة

كل ذلك كان بأساليب سريعة جداً، حيث كنت أذهب إلى المحافظ وأطلب بناءً بذاته، فيحدد لي ثمنه، فأقول له إنني سأقوم بتحويل المبلغ الآن. مثلاً ذهبت إلى إدلب وطلبت مبنى وقع اختياري عليه فقالوا لي إننا بدأنا ببنائه لغاية أخرى، فأرسلت لهم ما تكلفوه عليه حتى لحظة طلبه مما أثار دهشتهم. لقد كنتُ آمر الصرف ولديّ موازنة للمتاحف كانت تنتظرني. ثم كلفت جامعة حلب بإنجاز المتحف بعد أن أعطيتهم الهيكل والبرنامج.

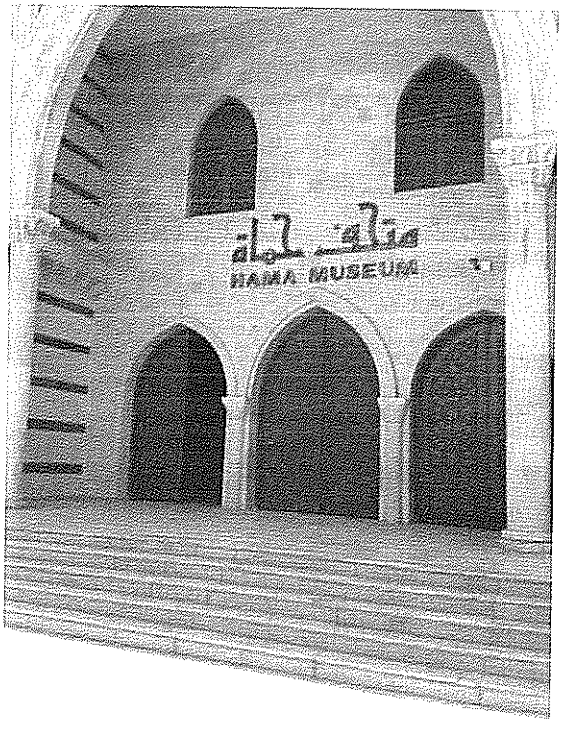

متحف حماه

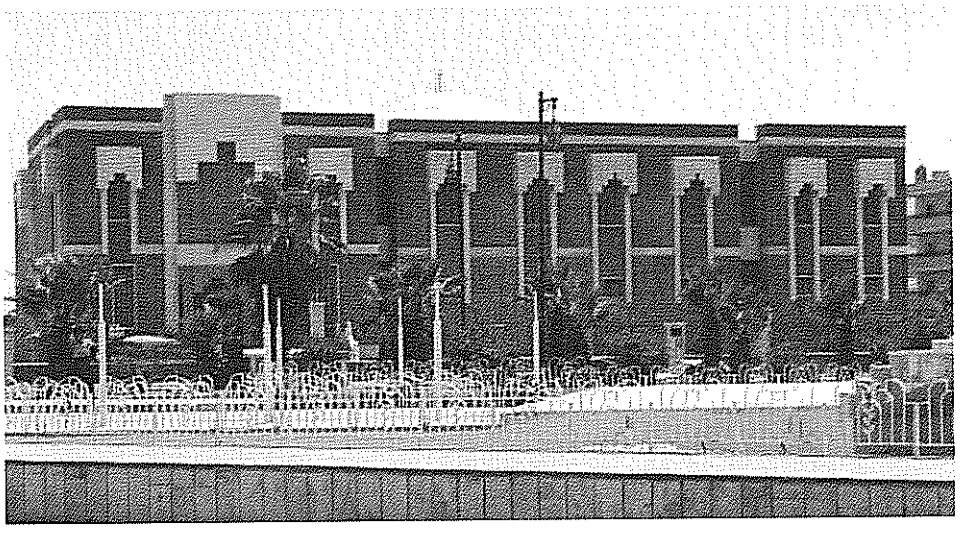

متحف درعا

أما في حماه فقد ذهبت مع المحافظ إلى وزير التخطيط، وعندما طلبنا منه إنشاء متحف قال لي إنّ لديكم متحفاً فقلنا له إننا سنقوم بتخصيص المتحف الموجود للتقاليد الشعبية، ولكننا نود إنشاء متحف للفنون، وقد قام المحافظ بإعطائنا الأرض، ولكننا نريد المال، فقام بتخصيص مبلغ لنا وأجريت المخططات في المديرية وأنشأنا المتحف، وكذلك الأمر لمتحف دير الزور والسويداء. كلّ هذه المتاحف تمّ تصميمها في المديرية دون أيّ مسابقات، بل من قبلي أنا والمهندسين في المديريات. أما الواجهات فكنت أترك أمرها للجهة المنفّذة (مؤسسة الإسكان العسكرية).

وهكذا أقمت متاحف نموذجية ترتيبها أفضل من المتحف الوطني بدمشق[30]، لأن ترتيب متحف دمشق كان على مراحل، وأرى أن هناك خطأ في ترتيبه بشكل كامل وقد عدّلت قسماً كبيراً من هذا الترتيب، وجدت أنه يجب فصل أقسام المعروضات بوضوح، إذ لا يجوز إرباك المشاهد، فيجب فصل القسم الإسلامي وحده، خاصة بعد وجود واجهة قصر الحير في المتحف، والكلاسيكي وحده، والشرق القديم مثل عمريت وأوغاريت وحده. وقسم الفن الحديث وحده. كنت أنوي أن أقتطع قسماً من الجهة الشمالية الشرقية لحديقة المتحف، من ناحية «التكية»

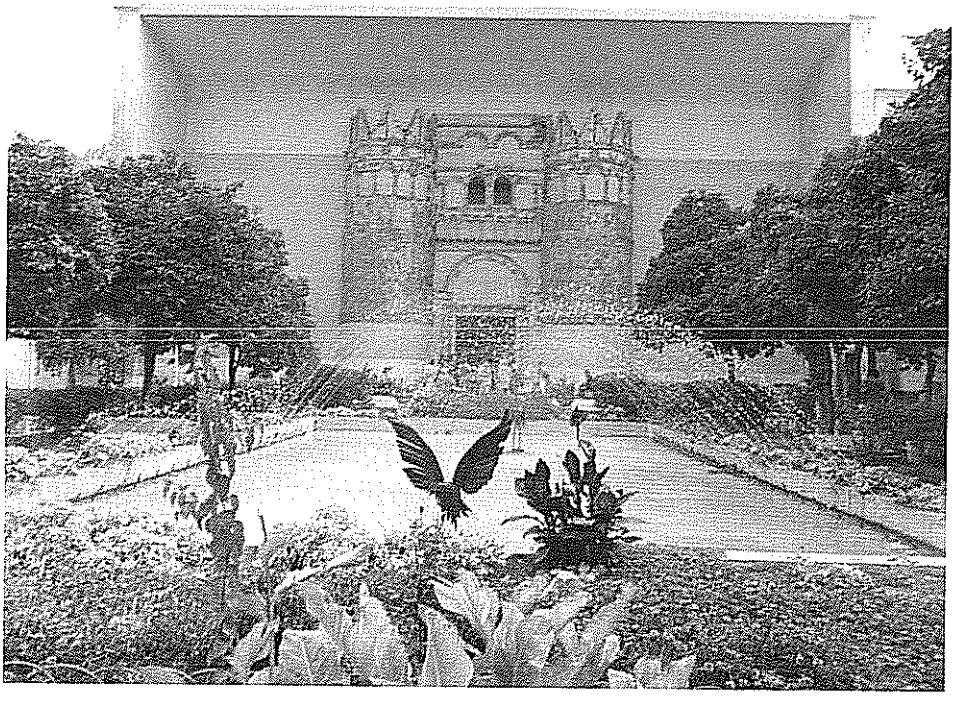

المدخل الجديد للمتحف من واجهة قصر الحير

وأعمل فيها الجناح السوري القديم، وتوسيع القسمين الإسلامي والكلاسيكي، وأن أعمل أربعة متاحف، وأن أفصل الإسلامي والكلاسيكي والسوري القديم. وقد أحدثت جناحاً لما قبل التاريخ وهو في الطابق العلوي من الجناح الغربي. كنت أرغب في أن أنقل المديرية العامة للآثار والمتاحف كلّها من المبنى وأن يبقى متحفاً فقط وإن كانت المديرية لا تشغل إلا عدداً محدوداً من الغرف ولكنني أردت أن أوسّع إلى حدّ بعيد. وكنت أرغب في تنفيذ خطة جريئة لعمل متاحف منفصلة كل منها له رسم دخوله وبطاقته الخاصة.

وقد قمت بتطوير ترتيب المتحف بشكل جوهري حيث غيرت المدخل، فقد كان المدخل القديم عميقاً جداً، ودوماً كانت هناك مراسم دخول وغير ذلك، بينما مع المدخل الجديد صار الشارع محاذياً للمتحف تقريباً، وهناك هيبة واجهة قصر الحير التي يجب أن لا تترك هكذا، وعملتُ البحيرة أمام الواجهة،

مستشفى الغرباء

وفي وسطها تمثال من البرونز اشتريته من أحد المعارض ولم أعدّ أذكر من الفنان صاحبه. وبنيت ملحقات، وفصلت المديرية عن المتحف. وبنيتُ بناءين على يمين ويسار القسم الشمالي ونقلت إليهما مكاتب إدارة المتحف وقسم بيع البطاقات والمستودع، وأقمت بجوار الجدار الغربي حديقة فاصلة عن الشارع، وبعد هدم مدرسة الحلبوني، وجدتُ شرفة وأعمدة جميلة، فأتيتُ بها ووضعتها على مدخل المديرية في جنوب المبنى، الذي كان مدخلاً عادياً جداً فأصبح مزدهراً وجميلاً بعد هذه الإضافات. وعملتُ مقهى أيضاً في الجانب الغربي من الحديقة بعد القاعة الشامية التي كانت من أصل البناء، والتي قام المدير العام السابق د. سليم عادل عبد الحق، بمضاعفة حجمها حيث أصبح حوالي ثلثاها ابتكاراً، بينما كان الثلث الأول من القاعة الشامية هو نفسه الذي تم تقديمه من بيت جميل مردم بك، فأصبحت قاعة تمثل تماماً القاعة الشامية بشكل متحفي.

ولكن العمل الذي لم يكتمل هو أنني أخذتُ مستشفى الغرباء من الجامعة بعقد مع رئيس الجامعة، وبقيت حوالي السنتين أعمل بها كي تصبح متحفاً للفن الحديث، كما كنتُ أنوي أن أنقل عبد القادر أرناؤوط ليصبح مديراً لهذا المتحف لأنه ذو ذوق رفيع،

وكنت قد قمت بتكليفه بعمل قاعة المعارض في المركز الثقافي العربي عندما كنت مديراً للمركز. ولكن عندما تركتُ المديرية قرروا في الوزارة بناء متحف جديد للفن الحديث، وأقاموا مسابقة دولية لتصميم المتحف، وأخذوا أرضاً عند بساتين العدوي، ولكن لم يتمّ أيٌ من الأمرين، واسترجعت الجامعة المستشفى وأصبحت الآن مركز رضا سعيد.

❖ ❖ ❖

في الندوة الفكرية التي أقامتها وزارة الثقافة عام 2008 تكريماً للدكتور البهنسي، (وقائع الندوة في الفصل الواحد والعشرين) تحدث الأستاذ بشير زهدي الأمين الرئيس للمتحف الوطني بدمشق، عن علاقته بالدكتور البهنسي، وعن عمله كمدير عام للآثار والمتاحف، فقال:

«بدأت صداقتي مع الدكتور عفيف البهنسي منذ الطفولة في روضة الأطفال، واستمرت في المدرسة الابتدائية والإعدادية والجامعية وخلال العمل في وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف، وجمعية أصدقاء دمشق، فهو أقدم صديق وأعز أخ لي، أقدم إليه أجمل تحياتي الأخوية والأمنيات السعيدة.

عندما تسلّم الدكتور عفيف البهنسي منصبه الجديد مديراً عاماً للآثار والمتاحف شهدت هذه المديرية نشاطاً جديداً، وفعاليات مختلفة ومتميزة جعلتها من أهم مديريات الآثار في الوطن العربي، وموضع تقدير الجميع. ولم يكن في سورية سوى دائرة للآثار في مدينة حلب ومنذ العام 1975 ابتدأ بإحداث دوائر للآثار في كل المحافظات، وكان المدير العام يدعو إلى مؤتمر سنوي يضم كل رؤساء دوائر الآثار في المحافظات والمديرين لمناقشة أوضاع الآثار والمتاحف وإعداد خطة

في حفل تكريم الحاصلين على وسام الاستحقاق السوري، ويظهر في الصورة الشيخ محمد أحمد دهمان ونائب السيد الرئيس د. نجاح العطار ثم الدكتور البهنسي وبجواره خالد معاذ

عمل للسنة الجديدة، ومتابعتها. كما قام بترشيح ثلاثة من العاملين الناجحين لمنحهم وسام الاستحقاق، وهم السادة كامل شحادة وسليمان مقداد وغالب عامر. ورشح العالم الايطالي ماتييه[31] والفنانة جوزفين تاجر، كما رشح ثلاثة من الباحثين المتميزين في تاريخ دمشق وهم: الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان، الأستاذ العالم والفنان خالد معاذ، والأستاذ عمر رضا كحالة، وكان قد رشح في مجال الخط العربي الخطاط بدوي الديراني، والخطاط حلمي حباب لمنحهم هذا الوسام».

سرد الأستاذ بشير زهدي أهم المنجزات التي قام بها الدكتور عفيف البهنسي خلال عمله في المديرية العامة للآثار والمتاحف، وعند حديثه عن الاهتمام بالمتاحف ورفع مستواها وزيادة عددها في كل من المحافظات كتب:

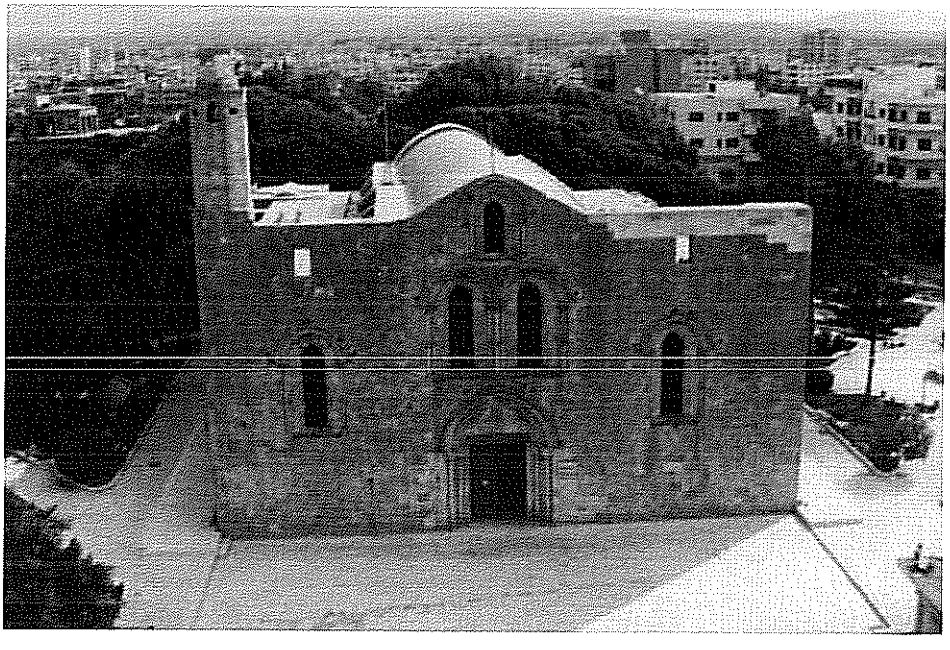

متحف طرطوس

«عندما احتفلت سورية بعيد الجلاء، لم يكن في سورية سوى خمسة متاحف هي: - المتحف الوطني بدمشق- متحف السويداء- متحف حلب - متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم بدمشق - متحف طرطوس. وازداد عدد المتاحف بمبادرة وإشراف الدكتور البهنسي حتى زاد عن الثلاثين متحفاً. وسعياً لعرض روائع المكتشفات في إبلا تمّ بناء متحف إدلب. ومن المتاحف الجديدة أيضاً متحف حماه الأثري، في منطقة الحاضر، وقد بوشر في بنائه منذ عام 1985 من قبل الشركة العامة للإنشاءات. ومتحف كبير في دير الزور ومثله في اللاذقية وفي السويداء. اهتمت المديرية في عهده بترميم الأبنية القديمة وتحويلها إلى متاحف كخان أفاميا وأصبح متحفاً للآثار الكلاسيكية والفسيفساء، ودار اجقباش بحلب وأعدّ ليكون متحفاً للتقاليد الشعبية في حلب، وتمّ قيام متاحف في المعرة وأرواد، وفي دار البلدية بحمص وضم الآثار المكتشفة في هذه المحافظة، وقلعة أرواد، والخان العثماني في تدمر، وبيت طيفور في حماة، ولأهمية مبنى السرايا القديم بدير الزور قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف باستملاكه وترميمه وافتتح متحفاً في 2 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1983. منذ العام 1988 بوشر ببناء متحف كبير

متحف السويداء

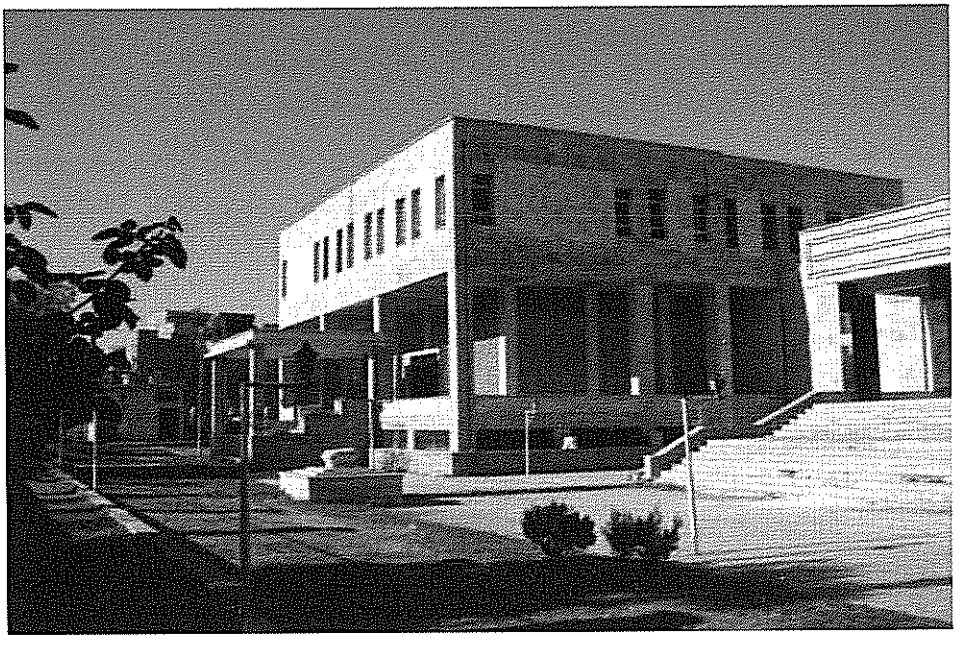

متحف دير الزور

في دير الزور مخصص للآثار المكتشفة في المحافظة، وتم استملاك دار المندوبية باللاذقية، التي تعود إلى عهد الانتداب الفرنسي، فعمد إلى ترميمه حيث أعيد المبنى إلى ما كان عليه، وتم افتتاحه رسمياً في 19 نيسان (أبريل) 1986. و قام باستملاك خان مراد باشا في معرة النعمان بسبب ما أصابه من ضرر نتيجة سوء استعماله، فاستطاع المهندسون ترميمه وإعادته إلى ما كان عليه، وتم افتتاحه في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1986 كمتحف للفسيفساء. وقام بعد جهود كبيرة باستملاك مبنى البلدية القديم في مدينة الرقة لترميمه وتحويله إلى متحف. وقام بتوسيع مبنى المتحف الوطني بدمشق وبناء أجنحة جديدة ومكاتب وغيرها. وجعل مدخل المتحف الوطني بدمشق من واجهة قصر الحير الغربي. وأشرف على تحسين مدخل المديرية باستعارة أعمدة وشرفات مبنى ثانوية الحلبوني.

ولتطوير جناح الفن الحديث والمعاصر في المتحف قام بتكليف كبار الفنانين التشكيليين بإعداد لوحات متميزة ذات مواصفات تنسجم مع أهمية المتحف. ومن هؤلاء الفنانين: لؤي كيالي، وفاتح المدرس، ومحمود حماد، ونصير شورى، وممدوح قشلان، وأسعد عرابي، ونذير نبعه، وغيرهم من الفنانين السوريين الذين أبدعوا لوحات فنية كبيرة ومتميزة بالجمال الفني والإبداع الأصيل. وكلف الفنان أحمد إبراهيم برسم لوحات فنية كبيرة لمتحف إدلب تبرز الفعاليات المختلفة التي تميزت بها مملكة إبلا، وطلب من أحد الفنانين نسخ تمثال أسد اللات التدمري، لإضافته إلى معروضات حديقة المتحف الوطني بدمشق».

❖ ❖ ❖

يستحضر حديث الأستاذ بشير زهدي بعض ذكريات الدكتور عفيف البهنسي حول نقاط تحدّث عنها، ومنها مكافأة العاملين في دوائر الآثار:

في بصرى الشام أنجزنا عملاً كبيراً بقيادة إنسان شجاع تمّ منحه وسام الاستحقاق السوري، وهو الأستاذ سليمان مقداد، وهو إنسان عادي كان حارساً. مثل عدد من الأشخاص الموجودين في المواقع الأثرية، الذين كانوا حراساً وأصبحوا هم حماة الآثار ومديريها بمهاراتهم. سليمان مقداد كان شخصية عجيبة جداً وله

متحف اللاذقية

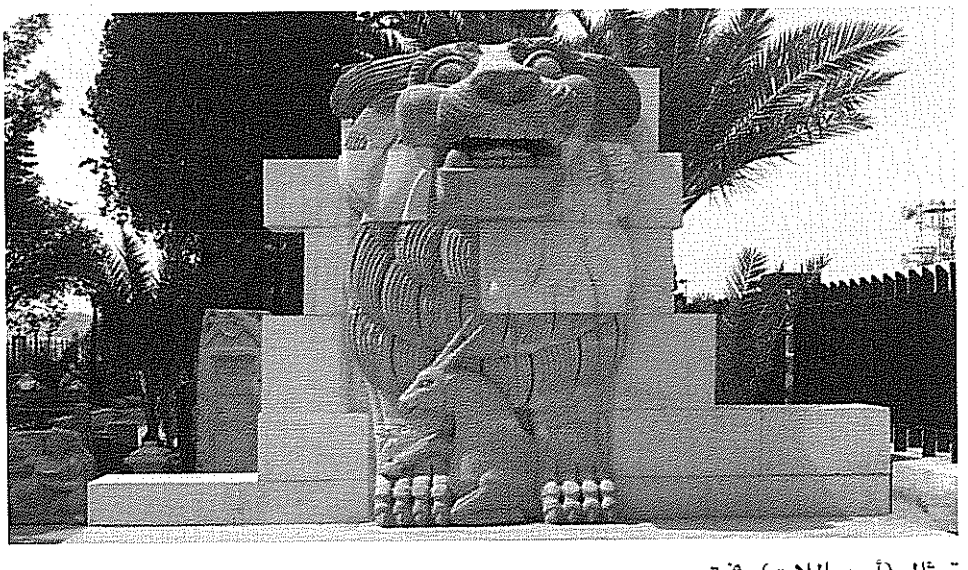

تمثال (أسد اللات) في تدمر

شعبية كبيرة كأنه زعيم عشيرة أو زعيم منطقة، وحين رحل عن الحياة حصلت له حفلة تأبين مهيبة. كان لدينا مشروع لتنظيم المنطقة وإلغاء كل المنشآت الموجودة

بصرى الشام

في بصرى القديمة من بيوت أو غرف أو مبانٍ وغيرها مقابل تعويض أصحابها بأرض مقابلة لها في غير مكان، وقد تم كل ذلك بفضل سليمان مقداد الذي لا بد من ذكره دائما لأنه بشعبيته وبمحبته بشكل عجيب من كل الناس، قام بشراء كل هذه البيوت دون أن يعترض عليه أحد، وكانت النتيجة أن تم تنظيف بصرى كما تم تنظيف تدمر قبل تسلمي منصبي، ففي عشرينات القرن الماضي، كانت المدينة الأثرية في تدمر مشغولة بكثير من الأبنية السكنية العشوائية وتم تنظيفها وإعطاؤها الطابع التراثي القديم، وقمنا في بصرى بالعمل نفسه، وكان طموحنا أن ننشئ فيها مركزاً ثقافياً دولياً، ولهذا تركنا بعض المنشآت حتى تكون مراكز بحث.

عمل كبير آخر قمنا به في أفاميا حيث يوجد فيها خان كان مهملاً بشكل فظيع، وكان التراب وروث الحيوانات يغطي كل قاعاته، واستطعنا فعلاً بوساطة المشرفين هناك، أن نقوم بعملية ضخمة جداً، وضعنا لها خطة شاملة، فبدأنا أولاً بعملية تنظيف المكان من آلاف الأمتار المكعبة من التراب والأوساخ، ثم عمليات الترميم،

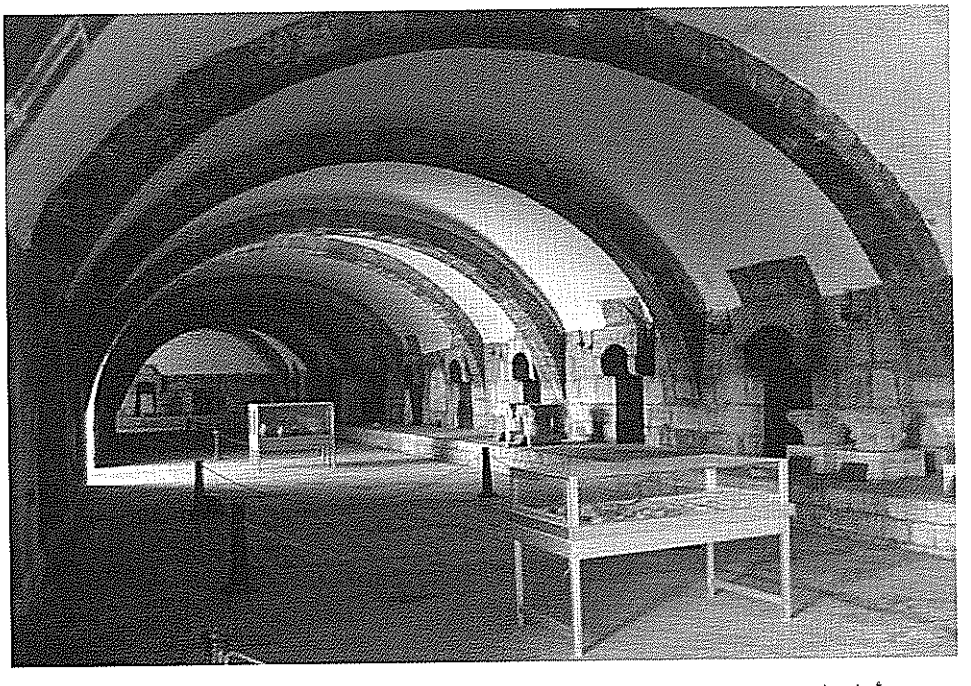

متحف أفاميا

ثم تحويل هذا الخان إلى متحف ضخم للفسيفساء يضاهي متاحف الفسيفساء في العالم كله، وكان المسؤول عنه إنساناً بسيطاً جداً، هو كامل شحادة وتمّ منحه وسام الاستحقاق السوري. تصور هذا الإنسان الذي يعمل ليل - نهار ولا أحد يعلم به، وتخيّل مشهد أولاده الذين كانوا يحسبون أباهم مجرّد حارس، وإذا به يكرّم من قبل الدولة بوسام الاستحقاق ويُكشف عن أعماله الجليلة.

كنت أقول إنه على الدولة أن تقدم فقط الثناء وليس العقاب، وذكرت في إحدى مقابلاتي أنني كنت مرة في حلب وبحضور الدكتورة نجاح العطار على مائدة الطعام وأمامنا مسؤول كبير، قال لنا إنه قام بإغلاق أربع محال واعتقال عشرة أشخاص وإلى ما هنالك، هنا لم أستطع السكوت فقلت له: يا سيدي إن العقوبة سهلة حيث أن الشرطي يستطيع أن يحقق كل العقوبات وأن يحيل الإنسان إلى المحكمة العرفية ولكنه لا يستطيع أن يمنح وسام، أما الدولة فهي التي تستطيع أن تمنح وساماً، لذلك أقول لك بصراحة، وأنا أتعهد بما أقول، إنني لم أعاقب أي

الشارع الرئيس في أفاميا

إنساناً خلال العشرين سنة التي قضيتها ولا قبلها ولا بعدها ولكنني كنت أؤمن بالمكافأة التي تعمل عمل السحر. تكريم الدولة هو عمل له تأثير بالغ ليس فقط في المكرم بل أيضا على كل من يجتهد ويعتقد أن الدولة ساهرة على حمايته ورعايته وتكريمه، هذه النقطة أريد لفت النظر إليها.

نعود إلى أفاميا وعملية ترميم شارع الأعمدة فيها، وقد كان يتطلب جهداً كبيراً لأن الزلزال أدى إلى أن تنام الأعمدة كلها باتجاه واحد وقام عبد الرزاق زقزوق، مدير آثار حماة، بعملية ضخمة جداً لإعادة رفع هذه الأعمدة. إن أفاميا تعادل تدمر تقريباً، لذلك فإن الأعمال الاستثنائية التي قمنا بها هناك كانت نتائجها باهرة، ليس الخان وليست قلعة المضيق التي رممناها وليس الجامع الموجود أيضاً، بل كل ذلك مجتمعاً، وقد أقمنا مؤتمراً وقلت فيه: أيها الأفاميون نقدم لكم الآن تراثكم فحافظوا عليه.

جزيرة أرواد

نصل إلى أرواد وهي جزيرة لا مثيل لها حيث أن البيوت والمحال كلها بحجم صغير جداً، هذه الجزيرة مهيأة لأن تكون سياحية وعلى أعلى المستويات. فيها قلعة جميلة جداً وخان مملوكي ضخم جداً، أقمنا متحفاً في القلعة ونظمناها تنظيماً جيداً جداً، وأصبحت مهيأة بشكل كامل للزيارات السياحية، وقمنا بترميم الخان ولكن كما ذكرت دائماً كان يجب أن يرافق عملنا مشروع سياحي معين بالنسبة لهذه القلعة الفريدة حيث أن أرواد تحتاج إلى وزارة سياحة خاصة بها وتستثمر بمختلف أشكال الاستثمار. وشعب أرواد راقٍ جداً ويحبّ بلده وهو صانع المراكب وصانع شباك الصيد وصانع الملاحة. أروادُ تحتاج إلى استثمار عالي المستوى.

أعمال كثيرة أردت أن ألفت النظر إليها، وكما أكرّر أن مهمتنا في عمليات الترميم كانت استثنائية وهي الأساس لأن عملية التنقيب كنا تقوم بها بالتعاون مع خبراء عالميين، ولكن لم تتقدم أي جهة عالمية لمساعدتنا بعملية الترميم لذا

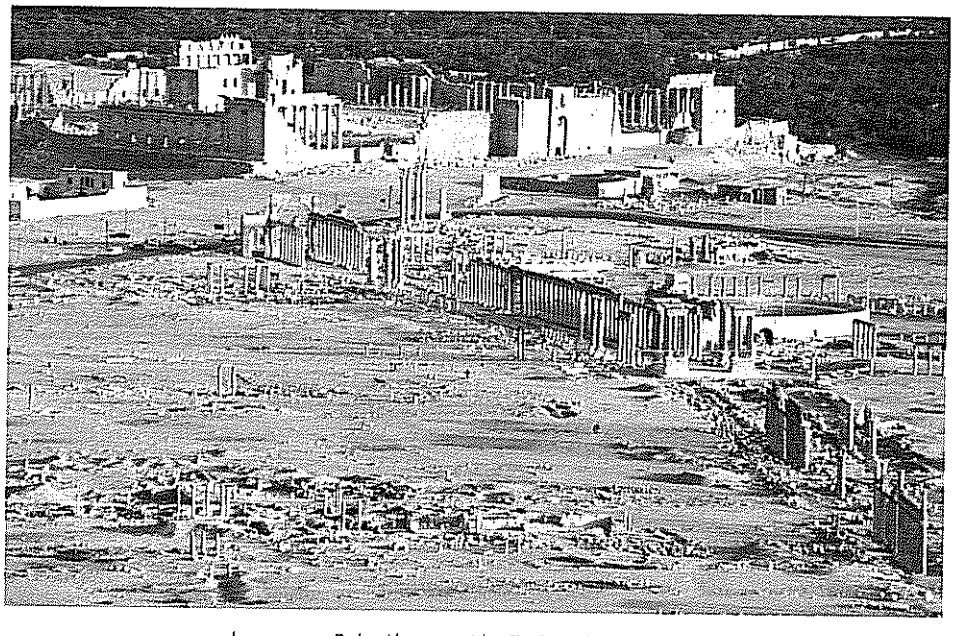

تدمر: الشارع المستقيم والترابيل (المصلبة) والمسرح والبوابة ومعبد «بل»

كان علينا أن نقوم بها بأنفسنا وأنا أشيد بمهارة العمال والمهندسين، كانت الدولة تستعير مهندسينا لبناء المنشآت الضخمة لأنهم تدرّبوا على أن يبدأ العمل من الصفر. المديرية العامة للآثار كانت مركز بحوث، وكانت أيضاً مركز بحوث ترميمية حيث أننا عملنا في كل القلاع الموجودة في سورية، وفي كل المباني التي استملكناها، مشاريع استثنائية تمّت في تدمر وفي بصرى وفي المدن المنسية التي تمتد من جنوب أدلب حتى الحدود التركية وهي تحتوي آثاراً ضخمة جداً ورائعة جداً. كانت مهمة المديرية العامة للآثار كبيرة جداً، ولذلك كنت أكافئ العمال بالتكريم أثناء المؤتمر السنوي لأنني كنت أذهب إلى مواقع العمل لأرى كيف يتم العمل، فأراهم أحياناً يقومون بالأعمال الشاقة لذلك كنت أنتهز الفرصة لتكريمهم حتى لو معنوياً.

كان نجاح هذه العملية دليلاً على التعاون الواسع الذي يتمّ بين المواقع الأثرية والإدارة في المديرية العامة للآثار. والفترة التي عشناها كانت فترة بنّاءة ومن حسن الحظ أن الجانب الذي تسلمناه كان جانباً له أهمية بالغة لجهة نهضة البلد

وتكوينها من جديد، فالبلد بعد خروجها من نير العثماني والاحتلال الفرنسي كانت فارغة تماماً ولا يوجد فيها كفاءات لذا كان على جيلنا نحن أن نساعد على إعادة بناء الوطن. وبالوقت نفسه، في إطار خاص له علاقة بالكرامة والحضارة، أنا إنسان عربي ليس بالكلام فقط أنا عربي بالثقافة والحضارة واستطعت أن أنبش وأتحقق من أن هذه الحضارة هي ثروة وثقافة وكرامة وهي مستقبل، بمعنى أننا لا نستطيع بناء المستقبل إذا لم نكن مدركين بأنه كان لنا دور حضاري معين في التاريخ، وقلت مرة إنّ تدمر ليست حكاية بل هي واقع ولا مثيل لها إطلاقاً لا في روما ولا في أثينا ولا في بنغازي، لقد زرت الجبل الأخضر في بنغازي وهو يحوي آثاراً إغريقية أكثر مما هو موجود في اليونان ولكن على الرغم من ذلك فهو لا يضاهي تدمر بتكاملها.

تدمر فيها المعابد والشوارع والحمامات وكل شيء، وجاء هؤلاء العتاة المجرمون ليدمروا أهم أوابدها. لا أدري كيف ستستطيع البلاد تحمّل هذه الخسارة التي ألحقوها بتراثنا، فهم لا يكتفون بقتل الأشخاص بل يريدون قتل الحضارة أيضاً، لا أدري من سيسوّغ لهم!!

وبالنسبة لتكليف مجموعة من كبار الفنانين برسم لوحات كبيرة لجناح الفن الحديث في المتحف الوطني، فقد سبق وذكرت الموضوع في أحد كتبي على لسان ممدوح قشلان والفكرة هي أنه كان هناك فقر كبير في متحف الفن الحديث، وحين أتى أستاذي، رينيه هويك، سار بشكل سريع في المتحف، ولم ينظر للوحات التي كانت كلها لوحات صغيرة، وعندها شعرت بأن الفنانين لم يأخذوا حقّهم تماماً، وعندما كنا نقوم بالاقتناء كانت أمورنا مادياً ليست بالجيدة فلم يكونوا يتجرّؤون على عمل أعمال كبيرة.

دعوتُ عدداً من الفنانين، وقلت لهم بأن لدي مشروعاً، ولدي موازنة له، حيث لدي موازنة اقتناء الآثار واللوحات وغيرها، فخصصت الميزانية في ذلك العام لدعم جناح الفن الحديث، وأنا أعلم أنكم غير راضين عن المتحف لأن كل أعماله صغيرة، لذا أفكر أن يعمل كل واحد منكم أطروحة هي عبارة عن عمل

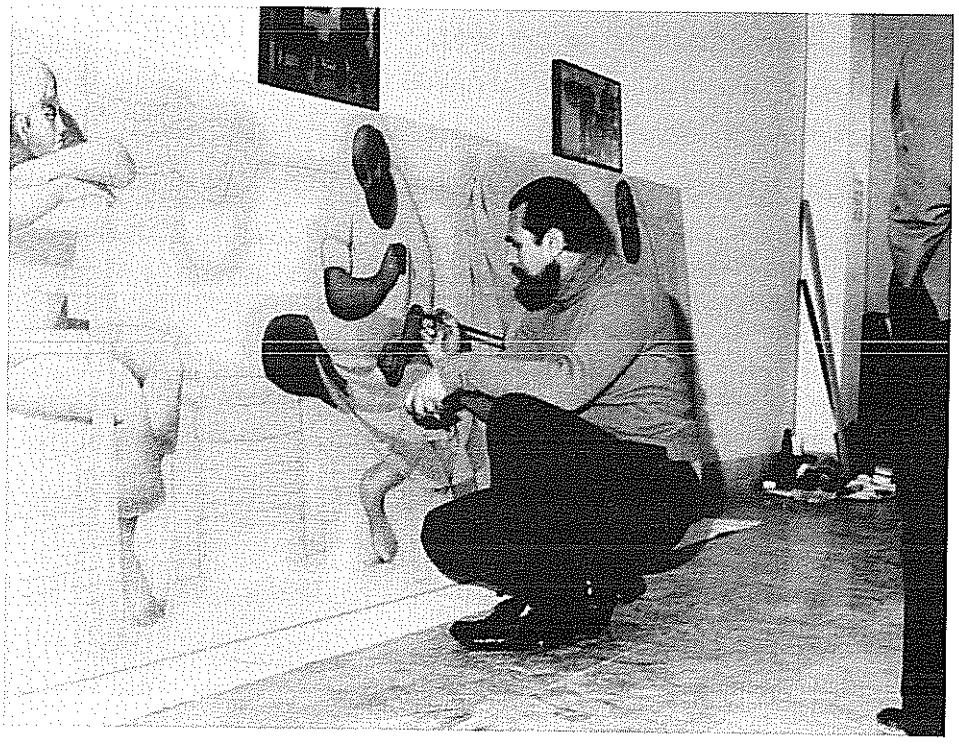

لؤي كيالي - أثناء تنفيذ لوحة «من وحي أرواد»

لؤي كيالي «من وحي أرواد» - المتحف الوطني بدمشق

فني يضع فيه خلاصة تجربته وأكبر طاقة من الجهد الذي يمكن أن يصرفه على عمل فني، ويقرر الفنان المبلغ الذي يريده. ومقابل أن يعمل لي أسكيتش أعمل معه عقداً مسبقاً حيث سيأخذ المبلغ مقابل لوحة حجمها معروف ومطابقة للإسكيتش.

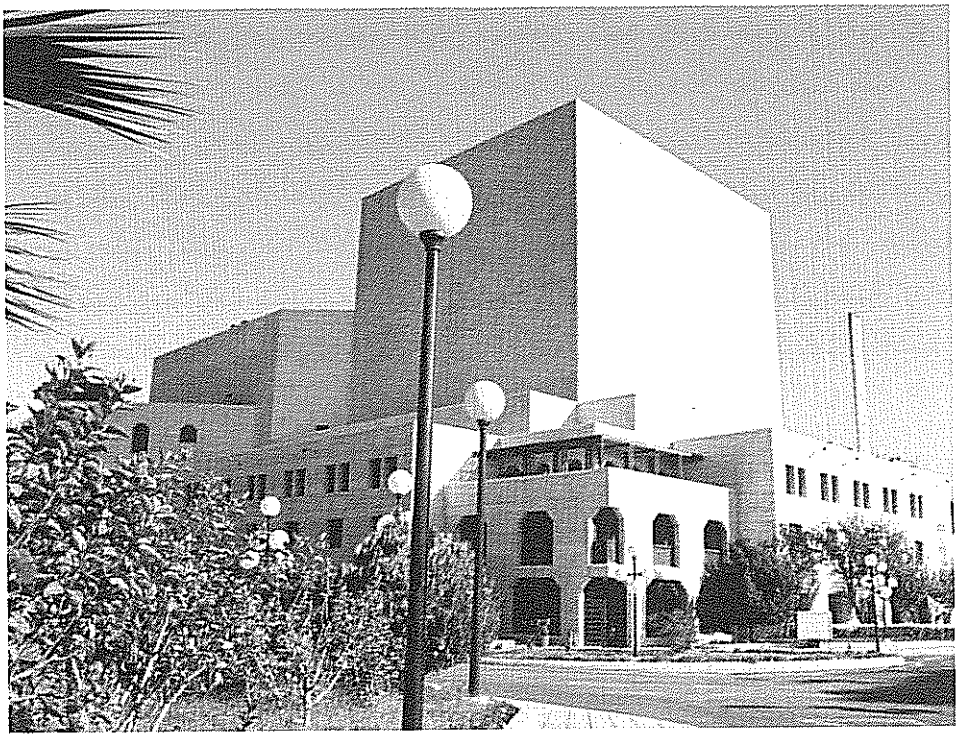

أوبرا دمشق

وقد كانوا ممنونين جداً، وقالوا إن ذلك لم يحصل من قبل، طبعاً أنا بهذا العمل أديت واجبي وكانت نتيجته رفع مستوى المتحف مئة درجة، وصرت ترى فيه لوحات بعرض ثلاثة أمتار، فيها أطروحة الفنان نفسه من أسلوبه وطريقته وذلك سواء كانت تجريدية أو واقعية، فسيقال إن هذا عمل الفنان الفلاني وهو مسؤول عنه، دون أي تدخل مني أبداً، وكانت النتيجة، باعتقادي، جيدة جداً.

بقيتُ في المديرية العامة للآثار والمتاحف إلى بداية العام 1989 وعندما تركت كان مُمَدّداً لي لأنني أنهيت السنّ القانونية. لقد أحببتُ المديرية، وتعاونتُ مع الدكتورة نجاح العطار خلال عشرين سنة، وكانت إنسانة حكيمة جداً، وهادئة جداً، وإيجابية جداً، تريد أن تحقّق بكثير من النزاهة والاستقامة أهداف الوزارة. لقد كانت علاقتي بالدكتورة نجاح علاقة صداقة وإيمان بأن لكلّ منا دوراً، فهي

وزيرة ثقافة وعملي مرتبط بها، ولكن صداقتي معها كانت أقوى من أن تكون هناك سلطة وصاية، خلال عشرين عاماً كنت أذهب إليها كل يوم سبت ونتحدّث في كثير من الأمور التي تهمّ الثقافة والآثار. وأنا أشهد أنها استطاعت أن تقوم بعملها على أكمل وجه أطول مدة ممكنة تجاوزت ربع قرن، وأنها موضع تقدير الرئيس بشار الأسد، كما كانت موضع تقدير الرئيس حافظ الأسد، وأنها حققت الكثير من الإنجازات يتقدمهما إنجازان مهمان جداً: مكتبة الأسد الوطنية، ودار الأسد للثقافة والفنون الأوبرا، وهذان عملان صعبان جداً وليسا بسيطين، وأشهد بنزاهتها وترفعّها.

الشيء الملفت أنني عندما كنت مديراً عاماً للآثار والمتاحف وضعت نظاماً جديداً لها، وقلتُ إنّ المدير العام يجب أن يكون اختصاصياً، وهذا أمر هامّ جداً، لأنها ليست مؤسسة إدارية أو سياسية، وهنا أكرّر بأن المديرية العامة للآثار والمتاحف هي أهمّ مركز بحث في كل سورية لأنها تعمل ليل نهار على البحث في تاريخ الحضارة، لذلك المفروض أن يكون المدير العام من المختصين ويستوعب كل النشاطات وأن يكون له فكر إبداعي لكي يسهّل عملية البحث والتنقيب وإدارة المتاحف وإلى ما هنالك.

وقبل أن نختم محور المديرية العامة للآثار والمتاحف طلبت رأي الدكتور عفيف في المديرين العامين الذين جاؤوا بعده، وبالمديرين الذين عملوا معه في المديرية، عن المديرين العامين قال:

لا أستطيع التحديد، لأنهم لم يبقوا لفترات طويلة، أنا استفدت من الوقت، فخلال العشرين سنة لم أقفْ عن العمل، وفي كل يوم عندي جديد. الدكتور سليم عادل عبد الحق بقي عشر سنوات وأنجز الكثير، يتقدمهما عملان هامان جداً هما تنظيف مسرح بصرى وإعادته للحياة، والعمل في قصر الحير ونقل واجهته إلى المتحف الوطني بدمشق. وكان وراءه سعد الله الجابري الذي كان رئيسا للوزراء ومن المهتمين بالمشروع، وكان يأتي يومياً لرؤية ما يحدث. أما المديرون الذين جاؤوا بعدي فلم يكنْ لهم الوقت الكافي للإنجاز، ولكني أشيدُ بالمدير الحالي

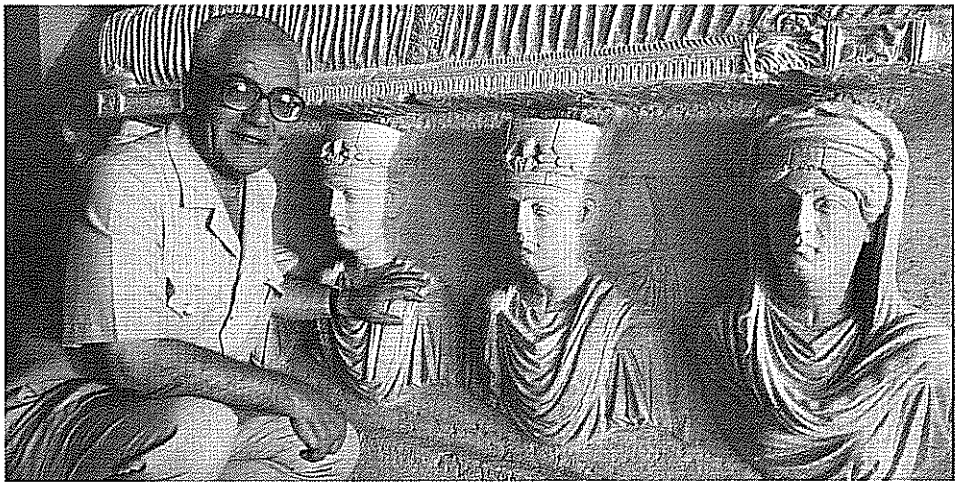

الشهيد خالد الأسعد

الدكتور مأمون عبد الكريم، وهو أستاذ جامعي مختص وله إنجازاته، ومالئ لمركزه، ويحبّ هذا العمل. وفي المعركة الآن يقوم بواجبه في حماية الآثار والدفاع عنها وهو يمثّل سورية في كل المحافل أحسن تمثيل، وأنا أعتقد أن كل الأشخاص الموجودين مؤهلون، وأصبح لديهم في المديرية ملاك واسع من الاختصاصيين. غير أنه لابد أن أذكر الدكتور علي أبو عساف الذي فوجئت بمدى اطلاعه، وقد قدّم كتابين رائعين مما يدل على إلمامه الكامل بتطور الأعمال الأثرية في سورية، وعمل في عين دارة جيداً هو وزميل من حلب، واستطاع أن يبيّن إلى حد بعيد وجود أصالة الحضارة الآرامية في سورية، على كل حال نحن كنا نتناول في المؤتمر السنوي بعض الأمور التي لها علاقة بتحديد هوية المراحل التي نقبنا فيها.

وعن الأشخاص الذين يشعر أن عليه تذكرهم خلال عمله الطويل في مديرية الآثار، أجاب:

أريد أن أكرّر أن المديرية العامة للآثار والمتاحف كانت مركز أبحاث، وأن هذه الأبحاث كانت واسعة جداً لأنه شارك فيها علماء العالم كله، وكانت مهمتنا أن ننشر لهؤلاء الذين قاموا بعمليات التنقيب والدراسة أبحاثهم لكي نتعرف نحن على تاريخنا، ومن حسن الحظ أن زملائي في المديرية كانوا قدوة لزملائهم سواء مدير

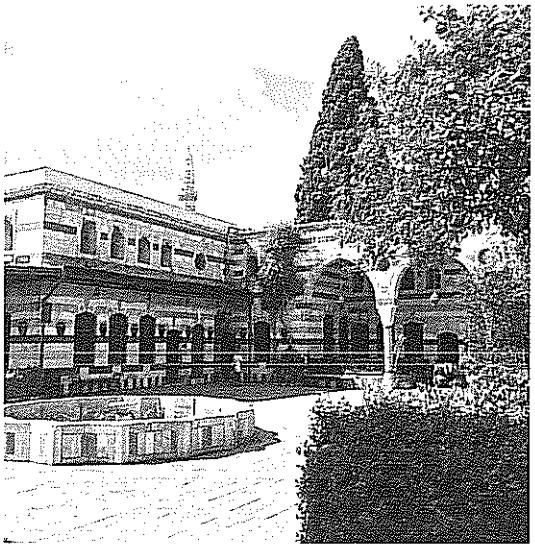

قصر العظم (متحف التقاليد الشعبية)

التنقيب الدكتور عدنان البني أو مدير المباني الدكتورعبد القادر الريحاوي، أنا أشيد دوماً باستقامتهما وبسعيهما فعلاً لإدارة المديريات التي كلّفا بها، وقام كل منهما بأعمال تنقيب أيضاً. الدكتور عدنان البني قام بأعمال تنقيب في ابن هانئ والدكتور الريحاوي قام بأعمال التنقيب في دمشق. وأشيد بشكل خاص بالدكتور أبو الفرج العش الذي كان مديراً للقسم الإسلامي وهو عالم يُشهد له في المسكوكات أي العملات القديمة، وخاصة العملات الإسلامية. وأريد أن أشيد بالمهندسين مثل المرحوم دهمان وعمله في قلعة دمشق وكان عملاً صعباً جداً، وله أعمال أخرى قام بها في الطبقة. والمرحوم الشهيد خالد الأسعد الذي كان إنساناً مرتبطاً بكل عمود وبكل تاج وبكل مبنى في مدينته تدمر.

بالنسبة لأمناء المتحف في دمشق أشيد بالأستاذ بشير زهدي فقد كان إنساناً مجدّاً جداً، وباحثاً. وكان حريصاً حرصاً قوياً جداً على تعزيز المتحف بمقتنيات جديدة، وقام بإدارة المتحف وكان هو الأمين الرئيس، وكان أقدم المديرين. وبالأستاذ حسن كمال وهو إنسان هادئ واستمر لفترة طويلة في إدارة قسم الفن الحديث، ويتمتع بمهنية عالية جداً، وأردت أنا أن ينتقل إلى عمل أوسع وهو إدارة متحف التقاليد الشعبية، في قصر العظم[32]، وهناك فعلاً استطعنا أن نتدخل في تطوير المتحف بشكل كبير حيث أننا عزلنا الغرف الإدارية التي استحوذت على قسم كبير من المتحف ووضعناها في بناء خاص جديد، وشغلنا الغرف المفرغة لإقامة قاعة للموسيقا وقاعة للكتاب الشعبي القديم: ولا بد أن نذكر شفيق الإمام الذي كان أميناً لهذا المتحف وكان حريصاً جداً على أن يعزّز هذا المتحف سواء من

حيث المقتنيات أو من حيث الترتيب، وكما هو معروف فإن المبنى كله كان قد تأثر بالعدوان الفرنسي وقام هو بالإشراف على عمليات الترميم عندما كان مساعداً فنياً أما السيدة هيام دركل فإني لم أرَ موظفة ملتصقة بعملها بالحرارة نفسها والمسؤولية مثل السيدة هيام دركل وفيما بعد تسلمت بكفاءة ومعرفة قسم الفن الحديث وتقاعدت منذ عهد قريب. لا أستطيع أن أتحدث عن كلّ موظف على حدة لأني شعرتُ بأنه لم يكن هناك من كان مقصراً في عمله، بل كلّ منهم كان يعمل حسب طاقته.

وأختم هذا الفصل بسؤال الدكتور عفيف: بعد سردنا الموجز عمّا قدمته للآثار والمتاحف أريد أن اسأل: ما الذي قدّمه لك عملك الطويل في الآثار والمتاحف؟ ويجيب:

كما قال أخونا بشير زهدي إني لم أترك أيّ فكرة تخطر على بال أحد إلا قمت بعملها. عرفت كم أن سورية غنية، وكم يجب المحافظة على تراثها والكشف عن حضارتها، لذا أنا سعيد أن آثار سورية أصبحت ظاهرة ومعروفة. أعتز بالمعرض الذي عملته في كلّ أنحاء العالم، وبالمتاحف الضخمة التي أنشأتُها، وبفترة تُعَدّ قياسية. فمثلاً متحف دير الزور، الذي يُعَدّ من أضخم المتاحف السورية، استغرق بناؤه حوالي السنة والنصف لا أكثر، وكذلك الأمر بالنسبة لمتحف السويداء. أنا أعتزّ أنني استطعتُ أن أغرسَ إضافة هامة جداً في نطاق الآثار والمتاحف، وهذا ما اعترفتْ به الدولة، وكرّمتني على أساسه، لذلك أنا أشعرُ بالرضا.. لقد أعطتني المديرية العامة للآثار والمتاحف الفرصة لأن أحقّق شيئاً كان يجب أن يتحقّق.

الفصل الحادي عشر - المنجزات الآبدة

تمثال عدنان المالكي

بعد استشهاد العقيد عدنان المالكي أرادت الدولة تكريمه، واقترحت مديرية الفنون إقامة تمثال له. وكلّفتُ النحات القدير فتحي محمد بعمل تمثال له، وكان في آخر شارع أبو رمانة عند قصر الضيافة مقبرة فرنسية ومحطة وقود مهجورة تصلح مكاناً لمشغل نحت مؤقّت، وقام فتحي محمد بصنعه في هذا المكان، وتمّ صبّ تمثال البرونز من قبل سالم الشوا ولا أذكر من قام بتكليفه بهذا الأمر، وقد كان الصبّ الأولي ضعيفاً، وتم إعادة الصبّ والترقيع عدة مرات.

أما الضريح فقد صمّمه وهبة الحريري، وهو فنان حلبي لا يجارى بما يسمى اليد الحرة، وكل مهندس معمار يجب أن يكون قوياً باليد الحرة، وقد أهداني كتاباً ضم اسكتشات قام برسمها لكل المواقع الأثرية في السعودية، وهو كتاب ضخم جدا وقد أهديته لمكتبة الآثار.

صرح الجندي المجهول

من المنجزات الهامة التي أسهمت بإنجازها، صرح الجندي المجهول على سفح قاسيون وبانوراما حرب تشرين التحريرية عند مدخل دمشق الشمالي، ويقع كلاهما في قمة المنجزات التي تمت في مدينة دمشق، والتي أسهمت فيها ضمن لجنة عليا من الاختصاصيين: المهندس الدكتور وليد الجابري والمهندس محمد الفرا والعميد محمود عنباوي، وعلى رأسها العماد حسن توركماني وزير الدفاع، وتولت

هذه اللجنة إنجاز الآبدتين بدءاً من التصميم إلى التكامل بالتعاون مع الفنان محمود حماد. بتنفيذ شركة يعقوبيان من الاسمنت الحر.

اعتمد في تصميم صرح الشهيد على القبة ممثلة للعناية السماوية، وعلى القوس معبّراً عن النصر. وفي عمق أرض هذه الآبدة أقيم متحف فني للشهادة وثمة قاعة دائرية تحوي خمس لوحات عن مشاهد تاريخية، تمثل معارك اليرموك، وحطين، وميسلون، ولبنان، وتحرير مرصد قمة جبل الشيخ، وقام بإنجاز هذه اللوحات البانورامية فنانون سوريون. هم حيدر يازجي واحمد ابراهيم وممتاز البحرة.

بانوراما حرب تشرين التحررية

أما بانوراما حرب تشرين التحريرية، فلقد أقيمت شرقي المدينة على شكل قلعة دائرية، تتضمن أكبر لوحة بانورامية دائرية بطول 125 متراً وارتفاع 14 متراً، تمثل موقعة القنيطرة في حرب تشرين 1973. قام

ساحة عدنان المالكي - التمثال والضريح

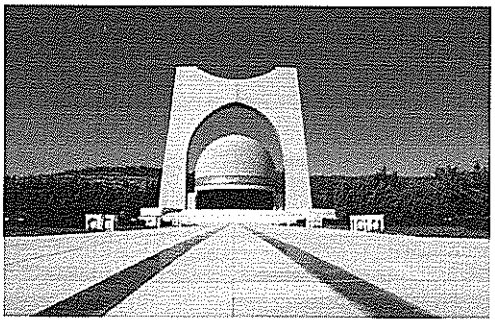

صرح الجندي المجهول

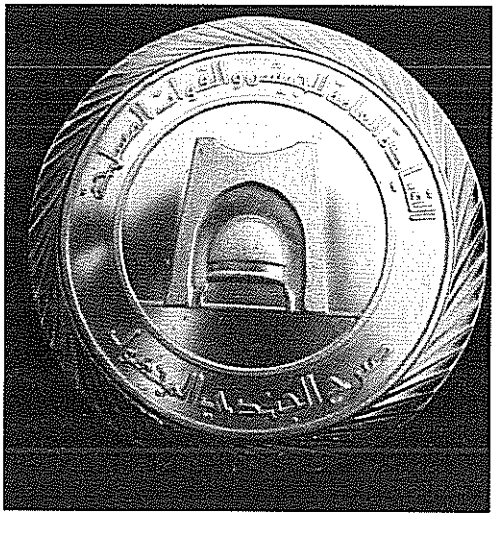

ميدالية صرح الجندي المجهول

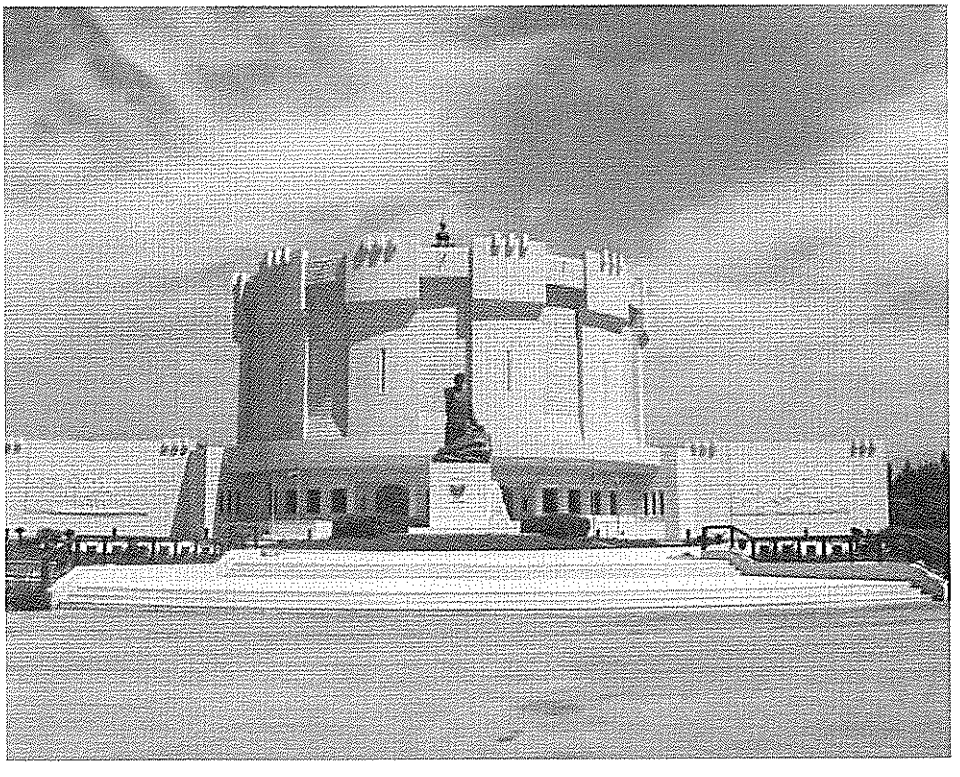

مبنى بانوراما حرب تشرين

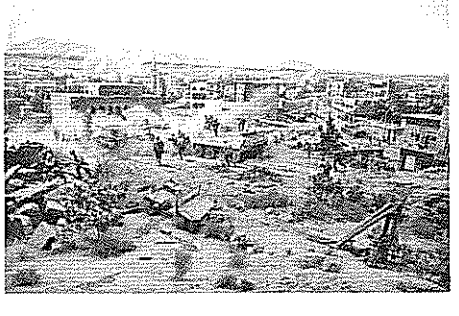

من اللوحة البانورامية الدائرية

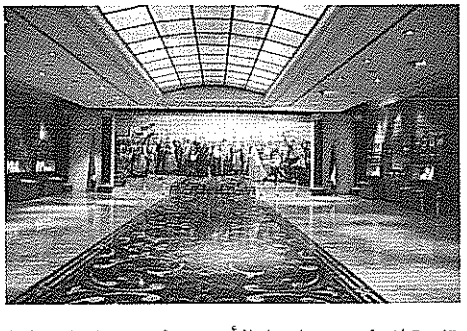

قاعة الرئيس حافظ الأسد في مبنى البانوراما

بتنفيذها مجموعة من أقدر الرسامين الكوريين الشماليين. وثمة مشروع طموح لم يكتمل، يهدف إلى إنشاء متحف للتاريخ العسكري، شاركت في إعداده مع اللجنة برئاسة العماد داود راجحه، وإقامة مسابقة لتصميمه وإعداد الأرض المخصّصة لبنائه.

اللجنة العليا: العماد توركماني والمهندسان الفرا والجابري والعميد عنباوي

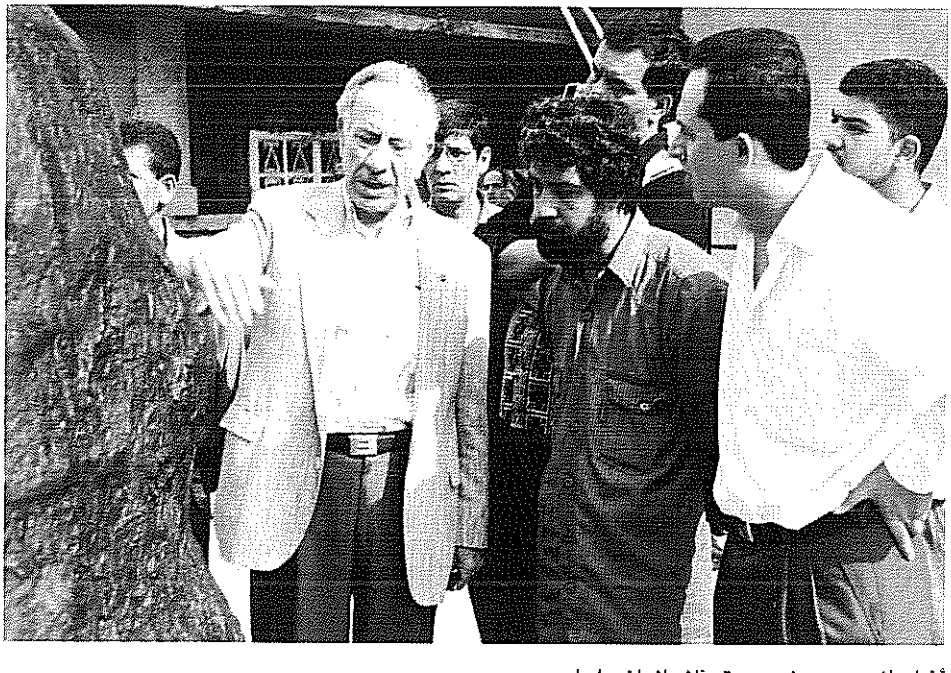

أثناء التحضير لصب تمثال البانوراما

الفصل الثاني عشر - جمعية أصدقاء دمشق

عندما تسلمت إدارة المركز الثقافي العربي أبو رمانة أردت أن أحدث تغييرات في الاهتمامات الإجتماعية لأبناء مدينة دمشق فأنشأت جمعية أصدقاء المركز الثقافي، وفي وقت لاحق أسّستُ جمعية أصدقاء دمشق التي أعدُها من الإنجازات ذات الأهمية البالغة. وقد كنا بحاجة إلى أحد عشر مؤسِّساً، وقد جمعت أسمى زملائي ومنهم الأستاذ المهندس صبحي كحالة والأستاذ برهان قصاب حسن وعدد من الموظفين في المديرية العامة للآثار، وكان من أعضائها عدد من المحافظين الذين تعاقبوا على مدينة دمشق. وأصبح الأستاذ صبحي كحالة رئيساً وجاء بعده برهان قصاب حسن وغيرهم، وفي الفترة الأخيرة كلّفت لمدة تزيد عن عشرة أعوام بإدارة الجمعية التي تحتفل اليوم بمرور أربعين عاماً على تأسيسها.

في الندوة الفكرية التي أقامتها وزارة الثقافة في ربيع 2008، تكريماً للدكتور عفيف البهنسي تحدث الأستاذ نزار نسيب القباني عن عمل الدكتور البهنسي في جمعية أصدقاء دمشق وما أضافه إليها، ومما قاله في ورقته المقدمة إلى الندوة (وقائع الندوة في الفصل الواحد والعشرين):

«بدعوة منه تنادت في عام 1977 كوكبة من أصحاب الفكر والمعرفة لتأسيس جمعية أصدقاء دمشق، وكان من أهم أهداف الجمعية مؤازرة السلطات الأثرية والبلدية والوقفية والسياحية في حماية دمشق المدينة والغوطة وبردى وقاسيون والمواقع التاريخية فيها وآثارها، والمحافظة على طابعها، والعمل على تجميلها وتبني البحوث والدراسات التي تفيد في إحياء مدينة دمشق وتحقيق تاريخها، والتعريف بها، وتخليد أعلامها وبناء أضرحة العظماء المدفونين فيها (كما ورد في النظام

أعضاء الجمعية في محاضرة للبهنسي

الداخلي للجمعية). وقد أضفى الدكتور البهنسي بشخصيته العلمية والفنية على جمعية أصدقاء دمشق بهاء تاريخه العلمي وإنتاجه لأكثر من سبعين مؤلفاً مرجعياً في الفن والعمارة. يتجول القارئ في مؤلفات الباحث عفيف البهنسي المتعددة الجوانب الأدبية والفنية والعلمية لتنفتح أمامه مغاليق المعرفة المعمارية العربية والإسلامية بتجلياتها الجمالية. على صفحات كتبه نختار ما يتعلق بحضارة دمشق: «القصور الأموية» و«الشام الحضارة» و«دمشق الشام» و«الجامع الأموي» مبينا آفاق وحدتها الفنية في «جمالية الزخرفة العربية» و«ألواحها الخزفية» التي تودي بك إلى «مجاهل الأسماء في دمشق الفيحاء» وريفها على صفحات الحوليات الأثرية الصادرة في دمشق عن المديرية العامة للآثار والمتاحف، التي أدارها الأستاذ البهنسي باقتدار حتى عام 1987.

ويبقى من الإنسان الباحث الأستاذ الدكتور عفيف البهنسي أنه يحاول المساعدة على الحفاظ على تحديد جينات الشخصية الدمشقية في العمارة القديمة والحديثة وتجاوز جناية التبعية الغربية في نظام الأسرة التي تحول بعضها بفعل الوضع الاقتصادي العشوائي إلى الاستهلاك دون الإنتاج الايجابي، خاصة في

الريف، والاتجاه إلى الربح والتجارة دون العلم ومتابعته، والى الرفاهية الرخيصة دون الجد والمسؤولية. وتظل دمشق هاجس الدمشقي الدكتور عفيف البهنسي وهو الذي ساهم فعليا مع جمعية أصدقاء دمشق في الدعوة المستمرة لتطوير مدينة دمشق العريقة وحمايتها من عوادي الزمن والبشر».

في الندوة ذاتها تطرق الأستاذ محمد قجة رئيس جمعية العاديات في حلب إلى عمل الدكتور البهنسي في جمعية أصدقاء دمشق فقال في ورقته:

«الحديث عن الدكتور عفيف البهنسي يعني الحديث عن موسوعة متنقلة، فهو الباحث والأكاديمي والمؤرخ وعالم الآثار والأستاذ، وهو الإنسان الوطني المتشبع إيماناً بأرضه وأمته وتراثه، وهو الذي ملأ صفحات العلم بدراساتها وكتبه وبحوثه، وهو الفنان الذواقة الذي استطاع أن يوائم بين الفن كعلم، والعلم كفن، فكان لديه هذا التناغم البديع بين النتاج العلمي الأكاديمي، والنتاج الفني الثري على المستوى المحلي والعربي والعالمي. ولست هنا في مجال الحديث عن هذا النتاج إنما أريد أن أتوقف عند نقطتين أراهما هامتين في شخص الصديق الكريم الدكتور عفيف:

الأولى: هي هذا الجانب الإنساني النبيل في شخصية الدكتور عفيف، والمتمثل في مواقفه الوطنية الرفيعة، وعمق تمسكه بتراثه القومي وانتمائه العريض إلى هذا التراث، والمتمثل كذلك في نذره حياته للعلم، لا سعياً وراء مكسب زائل، أو شهرة زائفة عارضة، وإنما إيمان برسالة العلم كنتاج معرفي إنساني يتوخى القيم السامية العليا التي تعود بالخير على البشرية جمعاء.

والنقطة الثانية التي أودّ التوقف عندها هي الهم المشترك الذي يجمعني مع الأخ الدكتور عفيف، وهو همّ العمل الأهلي في جمعياتنا جمعية أصدقاء دمشق التي يرأس مجلسها الصديق الدكتور عفيف وجمعية العاديات التي أحظى بشرف رئاستها».

الفصل الثالث عشر - مع المنظمات الدولية

عندما انتهى عملي في المديرية العامة للآثار والمتاحف بداية عام 1989 قررت منظمة اليونسكو تسميتي عضواً في لجنة ثلاثية مع العلماء، الأمريكي ليو كوك والفرنسي بول لانفان، للإشراف على حماية مدينة صنعاء وترميم عماراتها وبنيتها التحتية، بالتعاون مع كوادر الآثار اليمنية وعلى رأسها الدكتور عبد الرحمن الحداد.

وابتدأت العمل ذهاباً وإياباً إلى صنعاء ما يزيد عن عشر سنوات، (ولابدّ من صنعا وإن طال السفر) وأشرفت على عمليات الترميم في هذه المدينة التي ترسم بعمارتها روح اليمني، وتشبهه، وتعكس كبرياءه وشموخه، حتى حصلت على وشاح الثقافة والفنون من اليونسكو والدولة اليمنية. وأعتزّ أنني قدّمت شيئاً إلى صنعاء وعندما أحرزت هذا الوشاح مع زملائي الفرنسي والأمريكي كنت أحسّ أننا أنجزنا عملاً خارقاً لأن المدينة كانت مهملة بشكل عجيب جداً، وهي مدينة غريبة جداً، ولا يمكن أن تتصور مدينة بهذا الشكل، فتسعة طوابق أو ثمانية طوابق يسكنها شخص واحد، ولها طراز معماري فريد كتبت عنه، وأصدرت عن طريق اليونسكو حين كلفتني بالكتابة عن الجامع الكبير في صنعاء حيث اكتشفت أن بعض الزخارف الموجودة فيه كانت من عهد الرسول (ص)، وقمت بتوثيقها، وهي أقدم شيء يمكن أن نحصل عليه من العهد الإسلامي، والرسول (ص) هو الذي أمر والي صنعاء في ذلك الوقت، واسمه منبت على ما أعتقد، ببناء الجامع، وقال له أقم المسجد قرب الكنيسة، حيث كان هناك ثمة

جامع صنعاء

كنيسة حبشية، وبين صخرة المملة، والرسول (ص) هو الذي أرسل أول قاضٍ في الإسلام إلى اليمن، وقال له بماذا تحكم فقال له أحكم بكتاب الله، فقال له: وإذا لم تجد فقال له: أحكم بسنة نبيه، فقال له: وإذا لم تجد، قال: أعود إلى عقلي ورشدي، فقال الرسول (ص): الحمد لله. كتابي هذا الذي صدر عن طريق اليونسكو طبع مرتين وسعيت أن أذكر فيه تاريخ صنعاء كله مما لم يكتب سابقا.

كانت صنعاء أو آزال في وجداني ومسؤوليتي، رافقت تأهيل جميع أوابدها وأسواقها وسمسراتها، وامتد انشغالي إلى ما حولها، بل إلى اليمن السعيد كلّه، حيث عمارة الكبرياء، نمت في بيوتها، وتمتّعت بجلسات مفارجها وأكلت من عنب المقاشم فيها وأسهمت في توظيف سمسراتها وكتبت عن جامعها الكبير. ومضيت مدهوشاً بسوق المُلح. وقصر الحجر ومدينة شبام كوكبان. وحفظت عمرانها، حيث العمارة التي لا نظير لها، وقد حوت كلّ فن.

وشاح الفنون والثقافة لأعضاء لجنة اليونسكو

مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية

في العام 1980 انبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في جدة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية أرسيكا ومقره قصر يلدز في إسطنبول. وفي اجتماع مجلس وزراء الخارجية في الدول الإسلامية، تقرر تسميتي عضواً في مجلس إدارة هذا المركز الذي يضم الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي والأستاذ أحمد محمد عيسى والدكتور كولزار حيدر والسيدة راجا فوزية، وكان الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي مديراً للمركز. واستطاع المركز بإدارته إنجاز مشاريع هامة في الثقافة الإسلامية والتراث. ثم انتخب أميناً عاماً لمنظمة المؤتمر الإسلامي في جدة مع مضاعفة اهتمامه بمركز أرسيكا.

أعود إلى الآثار، فالآثار لم تكن بالنسبة لي سورية فقط لأنني أعتقد أن الحضارة العربية هي فعلا متماسكة مع بعضها البعض ومتداخلة وفيها تأثيرات متبادلة وهوية واحدة وكنت ناشطا في كثير من لجان اليونسكو لعمليات حماية التراث

العربي الإسلامي. وقد اشتغلت في صنعاء واشتغلت أيضاً في إسطنبول، حيث أتيحت لي الفرصة بعد أن انتخبت من قبل مجلس وزراء الثقافة الإسلامي رئيساً لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إسطنبول ومقره قصر يلدز، واستمرّت 12 عاماً في رئاسة هذا المركز، واستطعنا أن ننتج مجموعة من الكتب التي تدلّ على تاريخ وحضارة الإسلام بصرف النظر عن الناحية السياسية أو التاريخية حتى، لأننا كنا نعمل في ظل نظام أتاتوركي وهذا النظام كان يرفض الحديث عن التاريخ العثماني، ولم نشأ نحن أن نتدخل في هذا الموضوع ولكن أردنا أن نستخرج من مكامن وذخائر ذلك القصر الكبير والزاخر بالأشياء التي لها علاقة بسورية بشكل خاص، وأن نصدر كتباً ذات أهمية بالغة، واعتنينا بشكل خاص بالخط العربي، وأقمنا مسابقات ما زالت تقام حتى اليوم في إسطنبول لكبار الخطاطين، والعجيب أن الذين كانوا يتفوقون في الخط العربي هم من الأتراك الذين يجهلون الكتابة العربية لأنهم ورثوا عن الخطاطين الكبار مثل حافظ وغيره البراعة الخارقة في كتابة الخط العربي. وأصدرنا كتاباً عن الخط تحت اسم فنّ الخط فيه شواهد لكبار الخطاطين في العالم العربي والإسلامي. أقمنا حفلات ومهرجانات في إسطنبول وأشياء تدلّ فعلاً على أن إسطنبول كانت ذات يوم عاصمة إسلامية ذات مكانة بالغة معمارياً وثقافياً وتاريخياً، كل ذلك ونحن نتحاشى مؤاخذة السلطة فيما يتعلق بالتدخل بالسياسة وما زالت سياسة المركز هي العمل بنشاط خارق، وأهم نشاط شاركت فيه، هو إصدار أضخم موسوعة عن تاريخ الإسلام فيما يزيد عن خمسة عشر مجلداً، هذا يحدث اليوم.

وفي العام 1985 تأسست اللجنة العالمية لحماية التراث الإسلامي برئاسة الأمير فيصل بن فهد، وانتخبت نائباً للرئيس. ومن أهم نشاطاتها إعداد مسابقات دورية لأعمال الخطاطين مع تكريم لأشهر الخطاطين أمثال ابن البواب والمستعصمي وحامد الآمدي.

أريد أن أقول إن عشقي للآثار سببه إيماني أن هناك صفحات غير معروفة وغير مقروءة بالنسبة لتاريخ منطقتنا، وخاصة سورية، أنا لماذا أتعلق بهذا الحماس لبلدي سورية لأن الذي اكتشفته هو أكثر بكثير مما صرّحت عنه وأكثر مما نشر،

ولذلك أنا أدعو الآن جميع المحافل أن تعود إلى المكتشفات التي تمت خلال الفترات السابقة لكي تعيد النظر في كتابتها وتبين إلى أي مدى كان هذا التراث أولاً ذا أسبقية خارقة، وثانياً أنه ذو تنوع عجيب جداً ولكن مع وحدة وأنه كان مع الأسف مجهولاً.

الفصل الرابع عشر - على منابر التدريس الجامعي

خلال ما يزيد عن أربعين عاماً قمت بتدريس مادة تاريخ الفن والعمارة في كلية الفنون ومادة العمارة في كلية العمارة، ومادة جمالية الأدب العربي في كلية الآداب، وبالإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه. وأشعر بالسعادة الغامرة إذ كونت صداقة حميمة مع أجيال من المتخرجين الذين لعبوا أدواراً هامة في تطوير الحركة الفنية، وفي تدريس الفنون في معاهد البلاد العربية. ومنهم من اغترب وكان سفيراً فنياً أدى رسالته بأمانة وإخلاص وبنى شهرة نعتز بها.

وتكاد لا تخلو جامعة عربية لم ألتق بأساتذتها وطلابها، وكثيرة هي الجامعات العالمية التي حاضرت فيها، مثل السوربون، وكامبردج، وأكسفورد، وهارفرد، ولوس أنجلوس، وطوكيو، وسدني. وكنت محاضراً في فصول دراسية كاملة قدمت فيها محاضرات جامعية، بدأت في بغداد عام 1975 بدعوة من منظمة اليونسكو حيث قمت بالتدريس خلال شهرين في معهد الترميم الأثري. وبدعوة من مدير عام جمعية الدعوة الإسلامية الدكتور أحمد الشريف قدمت عام 1986 في جامعة الدعوة في طرابلس - ليبيا محاضرات عن جمالية الفن الإسلامي، وفي الولايات المتحدة قدمت عام 1988 لمدة شهرين محاضرات في جامعة UCLA كاليفورنيا - لوس أنجلوس، بدعوة من العالم جيورجو بوتشيللاتي، وقدمت محاضرات في جامعة سان دييغو. وفي الرياض وبدعوة من جامعة الملك سعود قدمت عام 1993 محاضرات خلال فصل كامل. وفي أضنة — تركيا، دعيت عام 2006 لإلقاء محاضرات في جامعة آق دينيز.

مع رئيس جامعة دمشق وائل معلا والأساتذة - طلابي سابقاً

محاضر في جامعة كامبردج مع الدكتور يوسف ايبيش من الجامعة الأمريكية في بيروت

عن الدكتور عفيف البهنسي الأستاذ الجامعي تحدث الدكتور عبد الكريم فرج عميد كلية الفنون الجميلة سابقاً، كواحد من طلابه القدامى:

«كل هذه الأجيال التي زادت أعمارها عن ستة عقود، والمؤلفة من خيرة المثقفين في مجال الفنون الجميلة، إنما تعود في جزء كبير من ثقافتها وعلومها إلى هذا الرجل الباحث الذي أعطى نموذجاً هاماً للوطنية والانتماء، المعلم الصبور والمربي الأستاذ الدكتور عفيف البهنسي، فلقد كان أول أستاذ لتاريخ الفن رافق نشوء كلية الفنون الجميلة منذ أن كانت معهداً في أول الستينات من القرن الماضي.».

وقدم الناقد الفني والفنان الدكتور محمود شاهين عميد كلية الفنون الجميلة الحالي حديثه بالقول:

«قبل ارتياد كروم الجمال وحقوله الساحرة، التي زرعها ورعاها الأستاذ الدكتور عفيف البهنسي حتى أينعت وأثمرت، وتَضَوَّعَ عطرها بين جنبات وطننا العربي الكبير، وأنا واحد من تلاميذه الكثر الذين رافقوا عملية الزرع والرعاية والجني»

وعن انطباعات طلابه في كلية العمارة التي كان أستاذاً فيها خلال عشر سنوات، تقول المهندسة المعمار د .ريم عبد الغني:

«أغنى أستاذ تاريخ العمارة الدكتور البهنسي المكتبات بالمؤلفات والمعاجم والموسوعات في تاريخ العمارة والفنون باللغات العربية والعالمية، مما سيبقى مراجع قيمة وهامة في هذه المجالات وبخاصة في تعزيز المراجع للطلاب والمهندسين والباحثين في كلية العمارة».

ويقول المهندس المعمار وليد السيروان:

« خلال محاضراته في صفوف كلية العمارة حيث تابعت الدراسة، تابعت مؤلفاته في فن العمارة التي لا تعد والتي أغنى بها المكتبة العربية خلال أربعين عاماً، فقد

خلال تحكيم رسالة جامعية في كلية الفنون الجميلة، 2006

ترك لنا معاجم هي من الندرة أغنت المعماري والباحث وفتحت بصيرته للإحساس بمعالم الإدراك إلى سبر غور النفس. لقد قدم لنا موسوعة تاريخ الفن والعمارة من خلال دار الشرق للتأليف والنشر، وأسهم بعدد من الأبحاث الموسعة وكذلك في الموسوعة العربية بدمشق، وقدم لنا معجم العمارة والفن بالعربية والفرنسية، والإنكليزية، ومعجم مصطلحات الفنون ثلاثي اللغات، ومن خلال رؤيته في كتبه التي تناولت أبحاثه المعمارية رأيناه محللاً ثاقب النظر وكالطود الشامخ يرفدنا كالوابل بالمعلومة الواضحة التي تنم عن غور عميق.

لقد وصف لنا أستاذنا بحسه السليم مشاكل العمارة الحديثة، فإذا به ينظر نظرة شاملة إلى المدينة التي تعرضت منذ بداية القرن العشرين للتغيير والتبديل والتشويه. المسؤولية كل المسؤولية تقع على عاتق المعاهد والجامعات المختصة، ومن المؤسف أن هذه المؤسسات التعليمية ظهرت متأخرة، ومع ذلك فإن مناهجها لم تكن كافية لإعداد الإنسان المعمار العربي، بل كانت مناهج تطبيقية لأساليب أكاديمية غربية. وإذا كان البحث عن ذخائر التراث هو أفضل الطرق لاستخلاص إمكانات العمارة العربية للمشاركة في تكوين عمارة المستقبل، فإن التراث المعماري كامن حولنا نعيشه نقرؤه في مؤلفات أستاذنا في كلية العمارة، الدكتور البهنسي»

ويقول الدكتور عبد النبي اصطيف في شهادته عن عمل الدكتور البهنسي على منابر كلية الآداب:

«التلمذة نوعان: تلمذة الحضور وتلمذة السطور، وقد تتلمذت على عفيف البهنسي حضوراً وسطوراً: درست عليه علم الجمال وتاريخ الفن والعمارة في سنة دبلوم الدراسات الأدبية عام 1973، وقرأت معظم كتبه المتصلة باهتماماتي المختلفة قبل ذلك وبعده، ولا أزال أتابع ما ينشره من مؤلفات. وعلى الرغم من مضي نحو من ثلاثة عقود ونصف على لقاء شخصي لي بعفيف البهنسي في جامعة أكسفورد حيث ألقى محاضرات وكنت طالباً للحصول على درجة الدكتوراه، وعلى الرغم من كل ما أبانت لي عنه هذه السنون من ودّ واحترام ولطف بل رقة وسمو في تعامله معي، ومع الآخرين عامة، فقد ظل يشغل في نفسي منزلة الأستاذ الذي تأخذك مهابته، ويأسرك كماله، ويفتنك علمه، ويأخذ بلبك بيانه، بل سحره الحلال، وتغوي عقلك رؤيته التاريخية العميقة لمسيرة الأمة التي ينتمي إليها. بل إنه كثيراً ما بدا لي صورة عن رجالات عصر النهضة الذين تعددت وجوه إبداعهم وأغنوا الحضارة الإنسانية في ميادين عديدة من المعرفة والعلم والفن. فهو الفنان التشكيلي، وهو مؤرخ الفن القومي والعالمي، وهو الناقد الفني، وهو عالم الجمال، وهو المفكر والمثقف، وهو الناقد التطبيقي، وهو المحرّر، وهو الإذاعي، وهو الإداري، وهو المنشئ والمؤسس للمتاحف والمعاهد والمراكز الفنية التشكيلية، وهو الأستاذ الجامعي، والمحاضر القطري والعربي والدولي في مختلف

المراكز الثقافة والجامعات ومراكز الأبحاث، وهو بعد ذلك الشاعر، إنه، باختصار شديد، الإنسان المتعدد المواهب والقدرات والإنجازات .

يومي من الدهر مثل الدهر ممتلئ عزماً وحزماً وساعي منه كالحقب

والحقيقة أن هذه الصورة قد تكونت لديّ نتيجة تجربة متميزة مع الرجل امتدت ثلاثة عقود ونصف، وبدأت بسنة دراسية غنية على المستويين المعرفي والإنساني عشناها، نحن طلاب دبلوم الدراسات الأدبية في قسم اللغة العربية وآدابها، مع عفيف البهنسي الأستاذ والإنسان على مدى عام كامل، كانت تجمعنا فيه القاعة الشامية الرحبة. وقد فسح لنا أستاذنا فيها زاوية كنا نتحلق فيها حول طاولة مستديرة تضمنا معه، ومن أصدقائنا فيصل سماق وحامد حسن وكان تحلقنا هذا مؤشراً واضحاً على فهم سام لطبيعة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ التي تقوم في رأي أستاذنا على الندّية، والديمقراطية، وإلغاء أي حاجز يمكن أن ينهض بين الشيخ والمريد .

وأما طريقة هذا الشيخ فكانت إثارة اهتمام مريديه بالقضية التي أرادها موضوعاً للقائه، ثم المضي للحديث عنها على نحو موجز، وفسّح أكبر قدر ممكن لشركاء الحلقة للإدلاء بآرائهم فيها بحرية وثقة كان مصدرهما رحابة صدر الأستاذ، وسعة أفق تفكيره، وثقته بنفسه وبهم، وكان شرطه الوحيد الذي يصرّ عليه دائماً هو الصدور في الرأي عن معرفة، وشفعه بالدليل، والسعي الجاد لإقناع الآخرين به من خلال المحاجة الهادئة المتزنة التي تحترم حق الآخرين في إبداء ما يرون من ملاحظات وانتقادات بدرجة تمسكها بحق المرء في التعبير عن رأيه بالحرية العارفة الخبيرة.

هذه هي بعض وجوه حضور أستاذي عفيف البهنسي في نفسي وروحي وعقلي وإنتاجي، الذي لم يكن غير ثمرة الغرس الطيب، لأبويّ، رحمهما الله، ولأساتذتي الذين كانوا مثال القدوة التي كنت أتطلع إليها ولا أزال، وهي التي كان عفيف البهنسي تجسيداً حياً سامياً لها، وكان بحق منارة يهتدي بها كل من فُتِن بهذا الوطن مكاناً

وسكاناً، وكان كذلك علماً من أعلام بلاد الشام الذين تفخر بهم الأجيال وستظل تفخر بهم لسنوات طويلة قادمة. ».

في تكريم جامعة دمشق 2008

في نيسان (ابريل) عام 2008 أقامت جامعة دمشق حفلاً تكريمياً للدكتور عفيف البهنسي شارك فيه رئيس الجامعة الدكتور وائل المعلا وعميد كلية الفنون الدكتور عبد الكريم فرج ولفيف من الأساتذة والخريجين. وجاء في كلمة الدكتور المعلا:

«تفخر جامعة دمشق بتكريم علمائها وأساتذتها الذين أرسوا قواعد العلم والتربية وقدموا معارفهم لأجيال متلاحقة عبر عقود عدة. حمل هؤلاء أوسمة الوطنية والانتماء بما أسدوه من مآثر إبداعية وفكرية وخصوصاً في المواقع التي كان لهم فيها دور الريادة.

الدكتور عفيف البهنسي واحد من الأساتذة الكبار الذين أسسوا كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، مصور ونحات وأستاذ لتاريخ الفن والعمارة فيها منذ عام 1959، وقد ساهم في تخريج الأجيال الفنية في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق على مدى ما يقرب من نصف قرن، ولا زال في قمة عطاءاته.

وقد شغل الدكتور البهنسي مناصب عدة وهامة في سورية، ومثّل الوطن بملتقيات في أكثر من ثلاثين جامعة عالمية ولم تمنعه مهامه ومسؤولياته الكثيرة من أن يكون غزير الإنتاج، منفتحاً على الثقافات الأخرى بقدر تمسّكه بلغته وثقافته، وخلال فترة عمله في كلية الفنون الجميلة واختياره نقيباً للفنون الجميلة

ومديراً لها لسنوات عديدة، نشر أكثر من ستين مؤلفاً ومرجعاً فنياً وعدداً من المعاجم والموسوعات تُرجم بعضها إلى اللغات الأجنبية».

إن جامعة دمشق تفخر بتكريم الرجل الذي يحمل ثلاثة عشر وساماً عالمياً رفيعاً والجائزة الأولى في الفن الإسلامي من منظمة العواصم والمدن الإسلامية. وهي تفخر اليوم بتكريمه لتكرّس رسالتها ونهجها في إعلاء شأن علمائها وهم في مكان القدوة والتقدير والإجلال على الدوام.

جامعة دمشق تتمنى للأستاذ الدكتور عفيف البهنسي موفور الصحة والمزيد من العطاء وأن يستمر قدوة للأجيال اللاحقة.»

الباب الثالث - التراث الفكري والفني

الفصل الخامس عشر - في رحاب الفكر والإبداع قراءات عن مؤلفاته

الفصل السادس عشر - ممارسة فن التصوير والنحت مختارات من المتحف الافتراضي

الفصل الخامس عشر - في رحاب الفكر والإبداع

كان أول كتاب نشرته يحمل عنوان «مدخل إلى الاشتراكية العربية»، فيه تحدّثت عن العروبة والأصالة والحداثة وما بعد الحداثة، وتحدثت في مجال الاقتصاد عن تيارات الاقتصاد من الرأسمالية إلى الاشتراكية. وكان هذا عندما كنت أدرس الحقوق والاقتصاد، ولكن عندما ذهبت إلى باريس وتحولت كلياً إلى دراسة الفنون، اتجهت فقط للتعريف بالفكر العربي من خلال الفن العربي، ومن خلال المفاهيم التي تعاقبت مع التاريخ لبناء الفكر العربي. كان ذلك ضرورياً لكي لا تكون العناوين مجرّدة ولكي لا يُساء فهم المصطلحات العربية ولا يُساء تأويلها. هكذا أردت من كتاباتي المتعلقة بالفكر العربي وبالاقتصاد العربي.

وحين أسّسنا في وزارة الثقافة مديرية الفنون الجميلة، كان أول عمل قمت به هو إصدار كتاب مختصر وضعت فيه نبذة عن حياة كل فنان تشكيلي مع صورة شخصية، وكلفنا مروان مسلماني لكي يقوم بهذه المهمة، وأصدرنا الكتاب تحت عنوان «الفنانون التشكيليون في الإقليم السوري» عندما كانت الوحدة بين مصر وسورية، وكان هذا الكتاب مازال في المكتبات. وتعاقبت الأمور وأصدرت أكثر من كتاب بتوسع عن الفنانين في سورية، ثم انتقلت بتكليف من منظمة اليونسكو إلى الكتابة لأول مرة عن الفن التشكيلي في البلاد العربية، وصدر هذا الكتاب أنيقاً جداً وشاملاً لجميع الاتجاهات الفنية في البلاد العربية، بدءاً بالرواد الكبار الذين ظهروا في مصر والعراق وسورية وغيرهم. وكان هذا الكتاب باكورة لكتب أخرى لها علاقة بهذا الموضوع، وخاصة كتاب مستقلّ كانت قد كلفتني به منظمة ألكسو، أي المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، وهو «رواد الفن التشكيلي في البلاد

العربية» وحصرت في هذا الكتاب الرواد الكبار. وهذا العمل ساعد المتذوقين لكي يتعرفوا على الاتجاهات الفنية التي ظهرت في البلاد العربية. وتضمنت هذه الكتب المعاهد الأولى التي ظهرت بدءاً بمعهد الفنون الجميلة في القاهرة في عام 1908 وأيضاً مدرسة الفنون الجميلة في الجزائر في عام 1920. كانت هذه المدارس بإدارة فنانين كبار غالباً ما كانوا فرنسيين ولذلك ظهرت الاتجاهات الفنية الحديثة التي لم تكن مألوفة بالنسبة لنا، حيث كان الفن العربي الإسلامي محصوراً بالمنمنمات والمرقنات، أي بالصور الإيضاحية الموجودة في المخطوطات وبالصور التي لها علاقة بالقصص الشعبية. أما الفن بمعناه الحديث، فأعتقد أنه ظهر في سورية منذ بداية القرن العشرين، وكانت مدارس الفنون هي التي دعمت هذه الاتجاهات، بالإضافة لعملية الإيفاد التي تمّت فيما بعد من تلك المدارس لتأهيل الفنانين في المعاهد الكبرى، وهكذا أصبح الفن الحديث الذي كان سارياً في الغرب مألوفاً في سورية، بالإضافة إلى الفنانين الذين جاؤوا من قبيل الاستشراق: الفنانون الذين جاؤوا إلى مصر وسورية والعراق جاؤوا من أوروبا بصورة خاصة وغالباً ما كانوا فرنسيين، وفي العراق كانوا بولونيين، وكان لهم تأثير في الحركة الفنية.

لم تظهر عملية التأصيل إلا عندما تأسّست مديرية الفنون، وأنا أعتقد أن وزارة الثقافة في سورية ومديرية الفنون كانت رائدة في تحفيز الفنان لكي يقدّم أساليب جديدة تضاف إلى الأساليب التي كانت سائدة، كالأسلوب التعبيري والأسلوب الانطباعي. وأن يكون هناك أسلوب يمكن أن نسمّيه أسلوباً عربياً.

كانت هذه الاتجاهات التي أوضحتها في كتبي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الاعتماد على الحياة اليومية الشعبية بصورة خاصة، التي أصبحت موضوع كبار الفنانين في مصر وسورية.

القسم الثاني: هو الاعتماد على المنمنمات، فهناك فنانون استكملوا أو تابعوا فن المنمنمات وهو فن قائم على تصوير الأشياء بشكل رمزي مبسط منهجي.

القسم الثالث: هو الاتجاه الكتابي بمعنى أن الفنان وجد أن الخط العربي هو آية فنية له مدارسه وله أنماطه ومبدعوه وتاريخه، ولذلك قام الفنان باستعارة كتابة الحرف أو الكلمة في أعماله الفنية وكان هذا اتجاهاً ثالثاً في تأصيل الحركة الفنية.

قلتُ في كتابي «الاستشراق والفن» إنّ فنانين كباراً عالميين مثل بول كلي وهوفر وغيرهم استعملوا الحرف العربي بشكل أو بآخر، وكان لا بدّ لهذا الاتجاه أن يأخذ مداه، فمنهم من استعمل الخط العربي بحسب مدارسه أي الديواني والثلث.

ومنهم من استعمل الخط العربي مع كثير من التصرف بمعنى أن الكلمة فقط هي الأساس ولكن بتشكيل جديد، ومنهم من استعمل فقط جمالية الخط العربي بمعنى أن الكلمة لا تقرأ ولكنها جزء من الخط.

هذه الاتجاهات الثلاثة قدّمتها بالتفصيل في كتبي لكي أبين أن هناك حركة جدّية في مجال التأصيل، وإذا وقفنا عند الكتابية أو الحروفية، فقد ذكرت كل رواد الكتابية في البلاد العربية وتحدّثت عن اتجاهاتهم وأفكارهم أيضاً، وباركت هذه النزعة في الواقع لأنها وضعت حداً للتجريد المجاني، بمعنى أن يكون هناك فقط ألوان أو خطوط، فقد استطاع الفنان الكتابي أن يوقظ هذه الحركة التجريدية بأن يكوّن لها مضموناً، وطبعاً ليست الكلمة ذات أهمية بمعناها ولكنها ذات أهمية بمبناها التشكيلي. هذه الاتجاهات ما زالت سارية حتى الآن وقد أوضحتها في كتبي.

الشيء الهام أنني كنت أشعر وأنا ألقي محاضراتي منذ بداية إنشاء كلية الفنون الجميلة أنه لا بدّ أن يكون بين أيدي الطلاب كتابٌ مرجعٌ. حتى في القاهرة لم يكن هناك أكثر من أمالي يقدّمها أستاذ تاريخ الفن هكذا دون أن تكون مثبتة في كتاب مطبوع، لذلك خطّطت لأول مرة كتاب «الفن عبر التاريخ»، وكان هذا بين أيدي طلاب كلية الفنون الجميلة، وانتقل إلى القاهرة لكي يكون كتاباً معتمداً، ثم وجد في المكتبات لكي يكون أساساً ومرجعاً. تطوّر هذا الكتاب وأصبح لا بدّ من أن

أتوسّع فيه حتى وصل إلى أن يكون في مجلدين ضخمين يضمّان الحركة الفنية في العالم كله بدءاً من ما قبل التاريخ، وحتى العصر الحديث، مروراً بالفنّ في أوروبا، وفن عصر النهضة والفن الإسلامي، ولكنني توقفت طويلاً عند الفن الإسلامي. عندما قمتُ بترجمة كتاب جورج مارسيه، الذي نُشر من قبل وزارة الثقافة في بداية السبعينات، شعرتُ فعلاً أن هذا الكتاب لا يفي تماماً بحاجة القارئ، لذلك توسّعت في الفن الإسلامي، بصورة خاصة، وأصدرتُ موسوعة تقريباً عن الفن الإسلامي وليس فقط من حيث التاريخ، وليس فقط من حيث المدارس، ولكن من حيث القيمة الجمالية لهذا الفن. أردت منذ رسالتي الجامعية الثانية في باريس أن أتوسّع في جمالية الفن العربي الإسلامي، وهذا أمر كان له أهمية بالغة، لأنه تبيّن لي أن علم الجمال الغربي لا يرتبط إلا باتجاهات الفن في الغرب، وكل أساليبه تتعلّق بهذه الاتجاهات، لم يتعرّض إلى فلسفة الفن الصيني والمكسيكي والإفريقي ولا لفلسفة الفن العربي، عندها قدّمت هنا رسالتي الجامعية لدكتوراه الدولة تحت عنوان «جمالية الفن العربي»، وتمت ترجمته إلى اللغة العربية وبأشكال مختلفة، حتى أن أحد أساتذة الجامعة في اللاذقية د. عزت السيد أحمد كان يدّرس الفكر الجمالي العربي من خلال كتبي وأصدر كتاباً عن طريق وزارة الثقافة تحت عنوان «عفيف البهنسي والجمالية العربية». أردتُ أن أبني في هذا المجال، مجال فلسفة الفن، علمَ جمال عربي نستطيع من خلاله تسويغ الاتجاهات الفنية السابقة للفن الحديث، والموازية لاتجاهات الفن الحديث وصولاً إلى حركات التأصيل التي ابتدأناها والتي اتخذت اتجاهات واسعة.

أكثر من كتاب تحدثت فيه ليس فقط عن الفن التشكيلي بل تحدثت عن فن العمارة، ولقد وجدت أن مصادر العمارة العربية تكاد أن تكون معدومة وأن ما يمكن أن يتعلق بجمالية العمارة وتاريخها واتجاهاتها والأصالة في العمارة، كلّ ذلك صدر في كتب متعدّدة لها علاقة بالعمارة تجاوز عددها العشرة وصدر بعضها باللغات الأجنبية.

بالإضافة إلى كتب العمارة وكتب الجمالية وكتب الفن الإسلامي وكتب تاريخ الفن، وجدتُ أن الحديث عن الفكر الفني مرتبط تماماً بالفكر العربي،

بل قلت مرة إننا نستطيع أن نتعرّف على الفكر العربي من خلال الفكر الجمالي. أردت إذاً أن أتوسع في الفكر العربي وأصدرت كتاباً تحت عنوان «حكمة العروبة». العروبة ليست كلمة، والعرب ليست كلمة، أردت من هذا الكتاب أن أبيّن فلسفة العروبة لأننا نعيش الآن في البلاد العربية تحت ظلال العروبة ومهما كانت هناك انقسامات سياسية، فلا يمكن أبداً أن ننكر أن خيمة العروبة ما زالت هي التي تغطي ثقافتنا وتدفعنا دوماً إلى التكامل والتعاطف والوحدة.

أردتُ من مجموعة من الكتب الفكرية المحضة التي جمعت أمثلتها أيضاً أحياناً من الفن وأحياناً من الفكر العربي المحض، والتي قد تتجاوز السبعين كتاباً، أن تكون منتشرة ليس في منطقة محددة. اليوم لدينا أزمة قارئ، لذلك تعاونت مع أكبر مؤسسات النشر في العالم؛ هاشيت في باريس، وفلاماريون ولايبزغ في ألمانيا، ولوسود في تونس، وفي البلاد العربية كلها وخاصة وزارات الثقافة حيث نشرت في تونس وفي مصر وفي العراق وفي الأردن وفي لبنان. دور النشر الكبرى التي ساعدتني على نشر كتابي على أوسع نطاق في البلاد العربية. والكتب التي صدرت عن طريق اليونسكو كانت تطبع طباعة جيدة، وتوزع توزيعاً واسعاً، وغالباً ما كانت تترجم. الكتب التي طبعتها الأسيسكو، وهي المؤسسة الإسلامية للثقافة، أيضاً ترجمت إلى الإنكليزية والفرنسية.

أريد أن أتوقّف عند الموسوعات والمعاجم التي قدمتها. ولم يكن العمل فيها سهلاً. عادة تقدم الموسوعات من قبل مجموعة من المؤلفين، إلا أنني تحدّيت هذا الواقع وقدّمت «موسوعة التراث المعماري»، في مجلدين ضخمين جمعتُ فيهما كل

روائع التراث المعماري الإسلامي في العالم، حتى في البلاد التي لم تكن إسلامية، والتي يوجد فيها معالم معمارية إسلامية، هذه الموسوعة ما زالت مرجعاً هاماً جداً للتراث المعماري الإسلامي العربي، وتتضمن تفصيلاً معمارياً وتاريخياً لما يقرب من ألف آبدة معمارية، من مسجد أو مدرسة أو مدفن، مع صور وافية ومخططات ومساقط. وتبنى إصدارها دار الشرق بدمشق. وأتطلّع دائمًا إلى ترجمة هذه الموسوعة إلى اللغات الأجنبية.

أما الموسوعة الثانية هي موسوعة «تاريخ الفن والعمارة»، وأيضاً في مجلدين ضخمين. الأول عن الفنون القديمة، والثاني عن الفن في أوربا، أما الموسوعة الكبرى فهي «سورية التاريخ والحضارة»، واسمح لي أن أرفع صوتي عندما أقول كلمة سورية، لأن هذا البلد الصغير جغرافياً مشحون بنموذجات حضارية لا حصر لها من التنوع والأسبقية. كانت سباقة في تاريخ البشرية والحضارات العالمية، وكانت متنوعة وغزيرة. لم أكتف بدراسة عاصمة سورية، بل عملت على تأليف موسوعة من أجزاء ثمانية تتحدّث عن المناطق والمدن السورية، الجزء الأول تاريخي وشامل، والجزء الثاني عن دمشق وريفها، والثالث عن حلب وإدلب، والرابع عن حمص وحماة، والخامس عن اللاذقية وطرطوس، والسادس عن الجزيرة والفرات، والسابع عن درعا والسويداء والقنيطرة، والثامن عن تدمر والبادية. وإلى جانب هذه الأجزاء التي صدرت بصور ملونة ومخططات وغلاف أنيق، صدر كتاب ضخم جامع بعنوان «سورية التاريخ والحضارة» في ألف صفحة تقريباً مع ألف صورة جديدة ملونة، ولقد تبنّت إصدار هذه الموسوعة وزارة السياحة برعاية الوزير السابق الأستاذ قاسم مقداد. أردت من خلال كتاباتي ألّا أترك عمليات التنقيب التي أشرفتُ عليها مرهونة فقط بالدراسات التي قدّمها العلماء بل قدّمتها على لسان هؤلاء العلماء بأسانيد واقعية، إذ وجدتُ أنه لا بد أن أتحدّى الحكاية والأسطورة والخرافة التي كانت أساس التاريخ القديم، وأبين بالأسانيد التي اكتشفناها أن التاريخ القديم مكتوب، وأننا نستطيع قراءته ونشره، وأننا نستطيع الإيمان بأن تاريخ العرب هو الأقدم في الإنسانية، وأنه قدّم أشرف ما يمكن أن تقدمه المعرفة.

تُرجمت مجموعة من كتبي إلى اللغات الأجنبية، وأنا سعيد جداً أن أرى أنني أغنيت المكتبة العربية بمصادر ومراجع غطّت كثيراً من الثغرات المتعلّقة بحضارتنا وتراثنا وفنّنا. الفن ليس عبارة عن رسم صورة إنما هو خلق وإبداع، وهذا الخلق والإبداع يتجاوز الصورة إلى معنى الصورة ومضمونها، كلّ ذلك بيّنته بكتاباتي المتعلّقة بجمالية الفن العربي. اللبنات الأولى التي قدّمتها في مؤلفاتي سوف تُقرأ وسوف تكون مرجعاً دائماً وأنا أتمنّى فعلاً أن يتابع الدارسون وخاصة الذين يحضّرون شهادات الدكتوراه هذا الإرث الضخم الذي تركته لهم كي يأخذوا من معينه في دراساتهم، المؤلفات التي ملأت مكتبات العالم، ابتداء من مكتبة الكونغرس. عندما ذهبت بصحبة سفيرنا إلى مكتبة الكونغرس وجدت فيها كتبي التي أفتقدها أنا، وسررت جداً أنني في أي بلد زرته وزرت الجامعة فيه وألقيت محاضرة كانت مكتبة هذه الجامعة تحوي كتبي. هذا اعتزاز لا بدّ من أن أعلنه، لأنه ليس هاماً أن أصدر كتاباً لكي يوضع على الرف، ولكن الهام أن يصل هذا الكتاب إلى أبعد قارئ على وجه الأرض، وهذا ما دفعني للاتفاق أخيراً على نشر كتبي على الطريق الالكتروني، بعضها يعاد نشره وبعضها حديث غير منشور.ولقد سرّني جداً نظام النشر الالكتروني لأنه يتيح للقارئ في أي مكان في العالم أن يقرأ كتابي ويقتنيه، وبهذا حلّت مشكلة دور النشر الورقية وأصبح هناك دور نشر الكتروني. وأشعر بالارتياح أنني أجبت على كثير من الأسئلة من خلال مؤلفاتي، الأسئلة التي كانت تراود الباحث والأستاذ والطالب وأنني عمرت مكتبة يمكن أن تكون مرجعاً دائماً للباحثين.

أصل إلى المعاجم المعجم الأول الذي نشر لي عن مجمع اللغة العربية بدمشق، كان «معجم مصطلحات الفن» ثلاثي اللغات، وكان قصدي البحث عن المصطلح العربي المعجمي الذي يقابل مفردات الفن من رسم ونحت ونقش، وإسعاف الباحث في المصادر الأجنبية والفرنسية والإنكليزية لاستعمال المصطلح الأكثر مطابقة والأكثر أصالة، واعتماده بديلاً عن المصطلحات الافتراضية الشائعة التي تختلف بحسب أمزجة الكتاب. واعتماداً على هذا المعجم صدر عن مكتبة لبنان- ناشرون معجمان في العمارة والفنون، الأول إنكليزي عربي وبالعكس، والثاني فرنسي عربي وبالعكس. ولقد تضاعفت المصطلحات في هذين المعجمين بزيادة مفردات العمارة

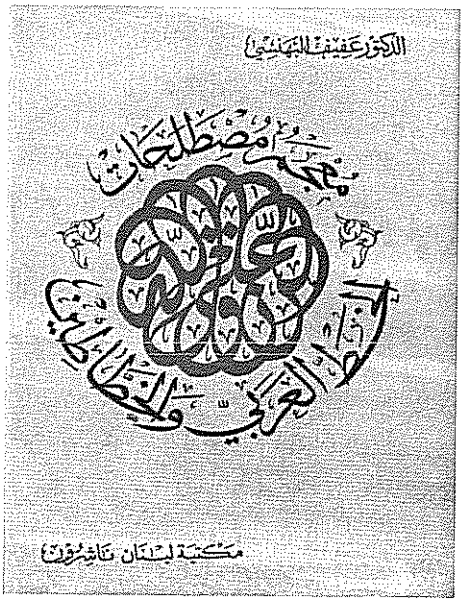

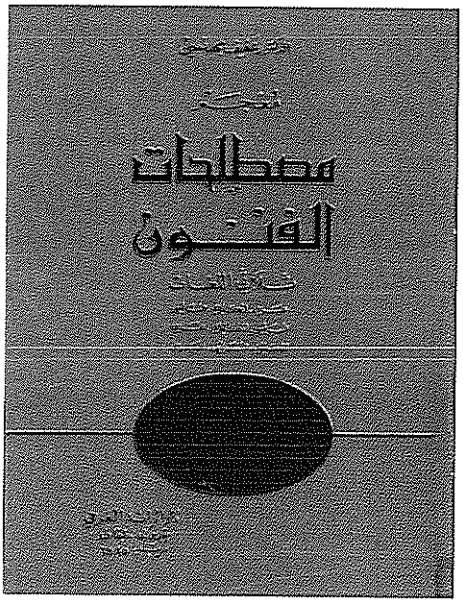

والآثار ومفردات جديدة في الفن.وعن مكتبة لبنان- ناشرون أيضاً، صدر معجم ثالث بعنوان «مصطلحات الخط العربي والخطاطين»، وهو معجم جديد بنوعه، إذ يتضمّن معاني المصطلحات التي وردت على لسان الخطاطين أو التي تخصّ تقنيات الخط، إضافة إلى لمحات تعريفية بالخطاطين المسلمين الأكثر شهرة، والأكثر حضوراً في تاريخ الخط العربي. هذه الكتب التي سميتها موسوعات ومعاجم فعلاً تبقى دائماً. ومن حسن الحظ أننا أصبحنا عن طريق الكمبيوتر نستطيع أن نعود إلى هذه المعاجم بقراءة الكترونية ولكن ما زال الكتاب هو المرجع الأساسي.

سألته عن رسالة الدكتوراه المعنونة «جمالية الفن العربي» إن كانت هي التي تم طبعها في سلسلة عالم المعرفة؟ فأجاب:

لا، الكتاب الذي صدر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية ليس له علاقة بالرسالة الجامعية، وإنما هو مقدمة واسعة لجمالية الفن العربي، إنما البحث في جمالية الفن العربي في الدكتوراه كان بحثاً فلسفياً محضاً ومتكاملاً. أريد أن أقول إن الكتاب الذي صدر عن وزارة الثقافة لأساتذة جامعة اللاذقية كان يتضمّن تعريفاً أوسع لبعض ما نشرته في عدد من مؤلفاتي.

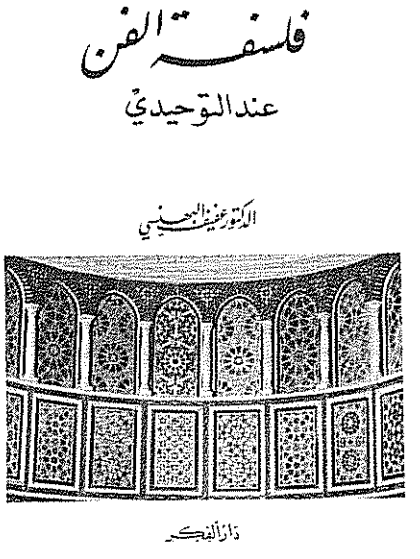

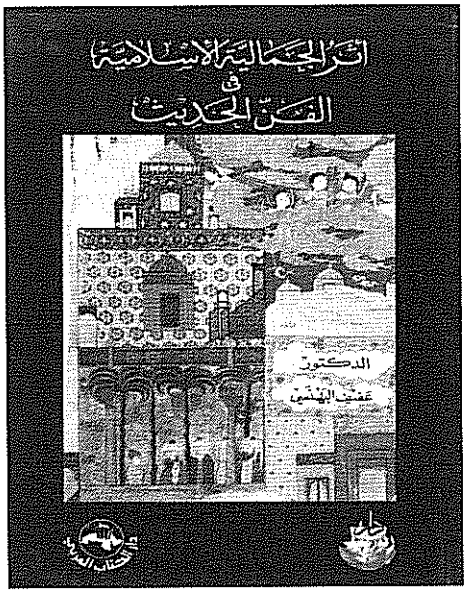

وأسأل: هل يدخل في هذا الإطار الكتب التي تحدّثت فيها عن الفلسفة الجمالية عند الفلاسفة العرب؟

ويجيب: توقّفت فعلاً عند أبي حيان التوحيدي، ووجدت أن هذا الإنسان في كتاباته «الإمتاع والمؤانسة»، و«المقابسات» وغيرها، أنه عالم جمال قبل ألف عام، وأن الأفكار التي قدمها لم يستطع الجماليون تقديمها، وأصدرت أكثر من كتاب فيما يتعلق بعلم الجمال عند أبي حيان التوحيدي وكانت متقاربة، ولكنها تختلف في الإضافات التي أضفتها. أول كتاب ظهر في بغداد ثم في دمشق ثم في القاهرة، ولكنه أخذ بعدا آخر في القاهرة، وذلك عندما احتفل المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة بأبي حيان التوحيدي، كنت هناك محاضراً وأصدر لي المجلس الأعلى للثقافة هذا الكتاب الثالث عن أبي حيان التوحيدي.

ما زلتُ أعتقد أن الدراسة عن أبي حيان التوحيدي لم تستكمل بعد وخاصة في مجال علم الجمال، وتركت الفرصة للآخرين، ولقد وجدت أن هناك من قدم رسالة في الدكتوراه عن علم الجمال عند أبي حيان التوحيدي في جامعة دمشق، وسررت أن كتابي كان المرجع الرئيس لهذه الرسالة.

طبعاً أشيد بدراسات أخرى تتعلق بعلم الجمال عند غير أبي حيان التوحيدي، فهناك الفلاسفة الكبار أيضاً تحدثوا عن الموضوع، ولكني فوجئت أن هذا العالم الذي اعتمد في كتاباته على مراجع لأنه لا يقول كلمة إلا ويذكر قال فلان وقال فلان، إنّ هذا العالم رغم أنه لم يترك إلا عدداً محدوداً من كتبه، بعد أن أحرق معظمها، قدم شيئاً مذهلاً تماماً، واستخلصتُ منه أفكاراً أساسية لعلم الجمال، حتى لعلم الجمال الذي يمكن أن يتمّ تطبيقه اليوم.

المحاضرات والندوات ومئات المقالات والأبحاث كانت ترفد المؤلفات، بل تسرب بعضها إلى هذه المؤلفات التي وجدت طريقها سهلاً سريعاً للنشر عن دور نشر مختلفة في سورية ولبنان والعراق ومصر والمغرب وتونس وليبيا والكويت والإمارات العربية المتحدة الشارقة واليمن. عدا مؤلفات وترجمات صدرت في فرنسا وإنكلترا وألمانيا عن أشهر دور النشر كما أشرت قبل قليل. لم تخرج المؤلفات في مواضيعها عن الفن والإبداع والتاريخ والآثار في مجال التشكيل والعمارة والفكر الجمالي، مع ذلك يمكن تصنيفها ضمن أبواب ثلاثة، باب المعاجم والموسوعات، وباب التاريخ الفني والمعماري، وباب الفلسفة الفنية والجماليات.

في نطاق تاريخ الفن والعمارة، كان أول كتاب جامعي هو «الفن عبر التاريخ»، وكان مخصّصاً للتدريس في المعهد العالي للفنون الجميلة منذ عام 1960، ثم توسّع هذا الكتاب أضعافاً تحت عنوان: «تاريخ الفن والعمارة» ليصبح المقرر الأساس في كلية الفنون الجميلة، جامعة دمشق، وقد أعيد طبعه للمرة التاسعة. وقد صدر بعد ذلك في جزأين وكان القصد من نشره خارج الجامعة تقديمه إلى أكبر عدد من القراء في العالم العربي، بعد أن كان محصوراً في نطاق طلاب جامعة دمشق.

وفي مجال الحديث عن تاريخ الفن التشكيلي في البلاد العربية صدر كتاب «الفن الحديث في البلاد العربية» عن منظمة اليونسكو، وكتاب «رواد الفن في البلاد العربية»، وكتاب «الفن التشكيلي العربي». كان همي بعد تقديم رسالة جامعية ثانية عام 1978 في جامعة السوربون في باريس عن الأسس النظرية للفن

الإسلامي، أن أضع برنامجاً موسعاً لنشر مجموعة من الكتب تتحدث مفصلة عن هذه الأسس الجمالية في مجالات الفن العربي المختلفة، فكان ظهور كتاب «جمالية الفن العربي» في سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، وكتاب «العمارة العربية، الجمالية والوحدة والتنوع» عن المجلس الوطني للثقافة العربية ـ الرباط وطبع في روما، وكتاب «فن الخط العربي» عن دار الفكر ـ دمشق، وكتاب جمالية الزخرفة العربية صدر عن دار مكتبة لبنان ناشرون- بيروت.

وإلى جانب هذه الكتب التحليلية الجمالية للفن العربي الإسلامي بجميع أجناسه، صدرت كتب أخرى متعمقة، في الفن العربي بين الهوية والتبعية، والجمالية الإسلامية في الفن الحديث. والنقد الفني وقراءة الصورة. والحداثة وما بعد الحداثة في الفن، والعمران الثقافي. وقد صدرت عن دار الكاتب العربي في دمشق والقاهرة. ثم أعددت كتاباً موسعاً عن الأصالة في الفن والعمارة، تحت عنوان «خطاب الأصالة»، وقد نشر عن دار الشرق بدمشق.

ولسد النقص في مجال التعريف بآبدتين هامتين لم يصدر عنهما كتاب مرجعي شامل،قمت بإعداد كتابين الأول عن الجامع الأموي الكبير في دمشق، والثاني عن الجامع الكبير في صنعاء. صدر الكتاب الأول بحجم كبير ملون عن دار طلاس بثلاث طبعات بالعربية والفرنسية والإنكليزية. وصدر الكتاب الثاني عن منظمة اليونسكو في طبعة أنيقة ملونة.

وفي كتاب «الجامع الأموي»، عرضت نتائج الدراسة الأثرية التي قمت بها سعياً لتأكيد أصالة الجامع الذي اكتفى كغيره من المساجد الأولى باستعمال مخلفات المباني السابقة، وأبنت اختلاف عمارته عن مخطط المعبد الروماني. وأكدت على آراء العلماء، من أن الكنيسة كانت في هيكل المعبد السابق، ولم تكن قد أنشئت محدثة، وأن قواعد المآذن الحالية، كانت هي الصوامع المخصصة للآذان التي أنشئت بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك مع باقي أجزاء المسجد، مما يختلف كثيراً عن مخطط المعبد الذي كان مشابهاً لمعبد معاصر أنشئ في موقع حصن سليمان في غربي سورية.

الجامع الأموي بدمشق

وفي جامع صنعاء تم اكتشاف زخارف تعود إلى عهد الرسول (ص)، لم يتحدث عنها الباحثون قبلاً، وأوضحت تطور تصميم الجامع والإضافات التي تمت فيه عبر العصور اللاحقة لإنشائه.

وإذا كان لهاتين الآبدتين نصيب الظهور في كتابين مستقلين، فإن الحديث عن الأوابد المعمارية الأكثر شهرة، وعن فن التصوير، بدا في كتابي عن الفن الإسلامي، وهو كتاب موسع وشامل ومزين بصور مكبرة لأهم الأوابد والفنون، وقد صدر في ألف صفحة مزينة بالصور عن دار طلاس في طبعتين متتاليتين.

لم يقتصر اهتمامي بالعمارة الإسلامية على صدور الموسوعات والمعاجم والكتب الأخرى، فلقد لبيت طلب المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم في الرباط، بإعداد كتاب عن تطوير العمارة الإسلامية صدر بثلاث لغات. وكتاب آخر عن تطوير فن العمارة.

وكانت منظمة اليونسكو أي المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم قد كلفتني بعدد من الكتب أشرت إليها، وكان آخرها كتاب «الفن الإسلامي» الذي صدر باللغة الفرنسية والإنكليزية عن دار فلاماريون في باريس، مزيناً بصور جديدة للمباني التي تمت دراستها، وقد تعاونا في هذا الكتاب مع الباحث الشهير مايكل روجرز الأستاذ في جامعة لندن.

في كتبي الجامعية (الفن عبر التاريخ، اتجاهات الفنون المعاصرة، الفن والعمارة في العالم) تحدثنا عن جميع مراحل الفن والعمارة في العالم، بما يفيد الدارس ويساعده للرجوع إلى مصدر عربي موسع عن تاريخ الفن والعمارة، وكان علي أن أكون موضوعياً، فقدمت منهاجاً معرفياً أكاديمياً ثم توسعت في موضوعين كان اهتمامي بهما كبيراً، حتى إنني قدمت بهما رسالتين جامعيتين تابعتهما بكتب متعددة. الموضوع الأول هو أثر العرب في الفن الحديث، وفيه جعلت المناخ الجمالي العربي مصدراً أساسياً من مصادر مدارس الفن الحديث في العالم. والموضوع الثاني، هو فلسفة العمارة والفن، فلقد تبين لي أن وراء هذه الإبداعات العربية الإسلامية، يكمن فكراً جمالياً لا بد من إيضاحه، من أني شديد الإعجاب باتجاهات الفن الحديث التي استمدت مواضيعها وأساليبها من الشرق. وقدمت هذا في كتابي «أثر العرب في الفن الحديث» ثم في «الاستشراق والفن» ثم إني شديد التعلق بالفلسفة الجمالية العربية، وقد أفردت لها عدداً من مؤلفاتي «جمالية الفن العربي» «جمالية الخط العربي»، «العمارة العربية، الجمالية، الوحدة والتنوع»، «مصور الزخرفة العربية».

كان مشروعي الثقافي يشمل دراسة الفنون والعمارة والبحث في أسسها الجمالية مما أسس عندي مبادئ لعلم جمال عربي، يقف إلى جانب فلسفات جمالية تناولت فنون الغرب والشرق، واعتقد أن دراسة هذه المبادئ من الباحثين سيغني هذا العلم الوليد.

في كتبي الفنية انتقل من الخاص وهو النشاط الفني، إلى العام وهو البناء الثقافي القومي، فالفن بوصفه نشاطاً إبداعياً يؤسس لحضارة المستقبل، والتراث

الفني والمعماري يمثل حضارة الماضي، ومهمة العمل الإبداعي أن يقوي أواصر العمل الثقافي بشموليته في الماضي والحاضر، وهذا ما نعنيه بالأصالة، فليس من مستقبل دون ماضٍ، لأن الزمن واحد، والعطاء الإنساني مستمر مع هذا الزمن الواحد. هي سلسلة من العطاءات تتراكم في محطة الماضي لكي تسمى تراثاً، وتمتد مع الإبداع إلى المستقبل حاملة بذور تلك العطاءات، والإنسان المنتمي للتاريخ والحضارة، حاضر في جميع آنات الزمن، الماضي والحاضر والمستقبل. والماضي ليس زمناً ميتاً، بل هو حي وخالد ماثل في هذا التراث.

لقد كانت دراساتي تأسيساً لفهم علمي لمظاهر الحضارة التي نرى آثارها على أرضنا العربية، ولقد دعمت المكتشفات الأثرية قناعتي بأصالة هذه الحضارة في مجال الفن والعمارة، كما في مجال الثقافة والعلم، وكانت دعوتي في كتابي «خطاب الأصالة في الفن والعمارة» مبنية على دراستي لهذه الآثار واهتمامي في معالجة حمايتها، وتقريب المسافة بينها وبين المتلقي، سواء أكان جمهوراً أو كان اختصاصياً أو مبدعاً. فالطريق إلى تحقيق الأصالة يمر من خلال معالم التراث الذي شاركت في بنائه أجيالنا المتعاقبة. لقد حاول جماعة من المفكرين والفنانين في الغرب أطلقوا على أنفسهم اسم المستقبليين أو الحداثيين التخلي عن الماضي وقطع كل صلة تربطهم بالتراث، فوقعوا في عدمية تائهة حتى أعلن الفلاسفة سقوط الحضارة الغربية بسبب هذه العدمية. وما نراه اليوم من مفاهيم «بعد الحداثة» يبشر بعودة إلى الجذور من خلال التاريخ والتراث.

البحث عن الجمالية العربية، أو الإسلامية بصورة أعمّ، لم يظهر على ساحة النظريات الفلسفية بصورة مستقلّة، ومع ذلك فإن التنقيب بين صفحات مخطوطات المفكرين من أمثال ابن سينا والفارابي والتوحيدي وابن عربي يجعل احتمال استقراء جمالية خاصة بالفنون العربية الإسلامية، تقوم على الكمال وليس على الأذواق، أمراً ممكناً، وهذا ما تمّ لي بعد قراءة ما بقي من آثار أبي حيان التوحيدي. لا يقوم الجمال في المفهوم العربي، على مقاييس الجمال الإنساني الرياضي، بل على مقاييس مطلقة، تبدّت في الخروج عن الطبيعة وعدم الخضوع للواقع المادي، فكان الفن العربي، روحاني النزعة متحرّراً من تأثير الواقع.

ولقد فسر سابقاً علماء الجمال هذا الفن على أنه بدائي، لأنه لم يصل إلى الكمال الرياضي، ولكنهم عندما وجدوا أنفسهم أمام فنون حديثة خرجت كلياً عن القاعدة والقانون، عادوا لتمجيد الفن العربي الإسلامي، ومجدوا الفن الإفريقي والفن الاوقيانوسي والفن الصيني، ثم الفن العربي. وتبين لهم أنّ وراء كل فن فلسفة متميزة.

تبدو مسائل الفن العربي هي ذاتها مسائل الفكر العربي، ذلك أن الفن موقف فكري يقدم بصيغة مبتكرة طريفة هي غير الصيغة الكتابية، وحتى هذه الصيغة فإنها فنية عند العرب خلافاً لأمثالها في لغات العالم. ولقد خرجت الصيغ الفنية عند العرب عن الأشكال التشبيهية المادية المحدودة إلى الأشكال المطلقة، وتساءل علماء الجمال التقليديون في الغرب كيف يفسر هذا النوع من الإبداع، لقد كان الحكم على هذا الفن ظالماً، إذ جعل زخرفة عفوية وتزويقاً، وكان سبب هذا الحكم غياب المفهوم الجمالي العربي في ذهن علماء الجمال، بل وفي ذهن المبدع العربي الذي اندفع نحو الفن الغربي متخلياً عن فن لم يفهم بُعدَه الجمالي وفلسفته، هكذا اشترك المبدع العربي في التخلي عن فنه لسوء فهمه جمالية هذا الفن.وعندما تحدثت عن ضرورة العودة إلى أصولنا الفنية، والتحرر من المؤثرات الغربية،أدركت أن هذه الدعوة تحتاج إلى دعم أساسي يقوم على إبراز الفلسفة الجمالية التي قام عليها الفن العربي الإسلامي، فليس من المقبول أن ندافع عن الفن التقليدي على أساس علم الجمال الغربي، فالذين فعلوا ذلك من النقاد والمستشرقين، وصلوا إلى حافة النفي الكامل لوجود فن إبداعي إسلامي، ولكن ظهور تيارات فنية غربية لا تقوم على أساس علم الجمال الغربي التقليدي ذاته، شكك في أهلية هذا العلم لأن يكون علماً لجميع الفنون، فكان لا بد من البحث عن أسس جمالية لكل فن من فنون العالم، ومنها الفن العربي الإسلامي، ومع أن بعض المستشرقين قدموا دراسات موسعة في هذا المجال، إلا أنها لم تستوعب الفكر الإسلامي استيعاباً كافياً ليكّون الفلسفة الجمالية لهذا الفن المختلف والمتميز عن جميع مظاهر الفنون العالمية.

ليس علم الجمال العربي الذي نحاول تأسيسه نظرية فلسفية، بل هو استقراء لمقومات الفن العربي الإسلامي، وإذا كانت وظيفة هذا العلم أن يساعدنا على فهم

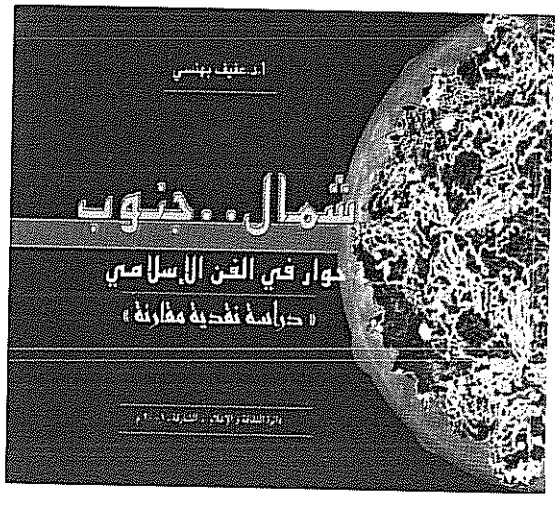

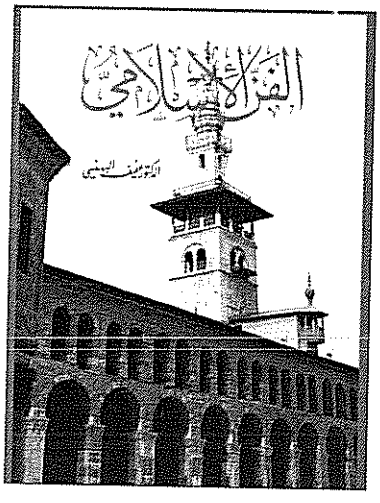

أسرار الجمالية العربية في الفن والعمارة، فإنه أيضاً يحدد معالم شخصية الفن الحديث في الحاضر والمستقبل، ولا يتم بناء النهضة الفنية بمجرد تقليد أشكال التراث، وإنما يتحقق بالانتماء الواعي لمفهوم هذا التراث، والفنان المعاصر الذي أراد أن يسهم في بناء شخصية أصيلة في الفن، لا بد أن يعيش أولاً في مناخ الأسس النظرية والفلسفية لفنه التقليدي.

وعندما أتحدث عن الفن التقليدي فإنني لا أعني به الفن الإسلامي فقط، بل أعني الفن الذي ازدهر على هذه الأرض الواسعة منذ فجر التاريخ، وكان الفن الإسلامي ولا شك ذروة في تطور هذا الفن وتطور تلك الحضارة، والمكتشفات التي تمت في سورية خلال العقدين الأخيرين، قد أكدت عراقة الفن وخصوصيته في هذه المنطقة.

في كتابه «عفيف البهنسي والجمالية العربية» يستفيض الدكتور عزت السيد احمد في الحديث عن علم الجمال العربي بمفهوم الدكتور البهنسي، فيكتب:

«البحث في مذهب عفيف البهنسي الجمالي بحثٌ طويلٌ ومتشابك وربَّما يصحُّ القول إنَّه معقَّدٌ، ولا غرابة في القول إنَّهُ يحتاج إلى مساحات أوسع بكثير من المساحة المحدودة المتاحة بَيْنَ دفتي هذا الكتاب. على الرَّغمِ من الجهود الجليلة الكبيرة التي

شهدنا للدكتور عفيف البهنسي في فلسفة الفن والجمال، التي نافت على ستين كتاباً كما أشرنا فإنَّهُ لم يحظ بعد بما يستحقُ من عناية واهتمام في قراءة فكره واستنباط معالمه. كتبت عنه بعض الموسوعات والمعاجم مثل «الموسوعةُ الفلسطينيَّة»، و«الموسوعة الموجزة» التي أعدّها حسان بدر الدين الكاتب، و«معجم أعضاء اتحاد الكتاب العرب» الذي أعده أديب عزت، ومعجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين الذي أعدّه عبد القادر عياش، ومعجم «لاروس الموسوعي الكبير» في مادَّة سورية. وقد أجريت معه بعض الحوارات، وكتبت عنه بعض المقالات. ولكنَّهَا على أيِّ حالٍ تظل أقلَّ بكثير مما قدَّمه البهنسي، وأقلَّ بكثيرٍ مما يستحقّه وما بذَله من جهود».

قد لا يكون في بعض كتب البهنسي من جديد أو ما يعبِّر عن خصوصيَّته وفكره، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، فثَمَّةَ من كتبه ما كان للتَّأريخ أو التَّعليم، والتأريخ والتعليم قد لا ينطوي أحياناً على رؤية المفكر وخصوصيته، ولكن النِّسبة الأكبر من كتبه ضمَّت بَيْنَ دفَّتيها فكره ورؤاه ومواقفه في فلسفة الفنِّ والجمال.

لَعَلَّ الأمانة تقتضي الإشارة إلى أنَّ الهاجس الذي استولى على فكر البهنسي توزع أكثر ما توزَّع على موضوعين:

أولهما الجماليَّات العربيَّة الإسلاميَّة بما اتصل بها من براعة وأصالة وتأثير في الحضارات الأخرى وخاصَّة الغربيَّة منها.

ثانيهما الكشف عن المعالم الفنيَّة والجماليَّة في الآثار التي خلفها أجدادنا العرب وهي موضوع آخر وإن لم ينفصل نوعاً ما عن الفلسفة الجماليَّة.».

وعن سمات فلسفة الفن العربي يقول د. البهنسي:

يحاول بابا دوبولو في كتابه الضخم عن «الفن الإسلامي» أن يربط جمالية الفن الإسلامي بالذرائعية التي عرضتها جماعة الأشعرية. ويحاول ماسينيون الربط بين الصوفية والفن الإسلامي. ويسعى بعض الباحثين العرب ربط جمالية الفن الإسلامي بأفكار أخوان الصفا وخلان الوفا[33]. ويتفق مؤرخو الفن الإسلامي وبخاصة أوليغ

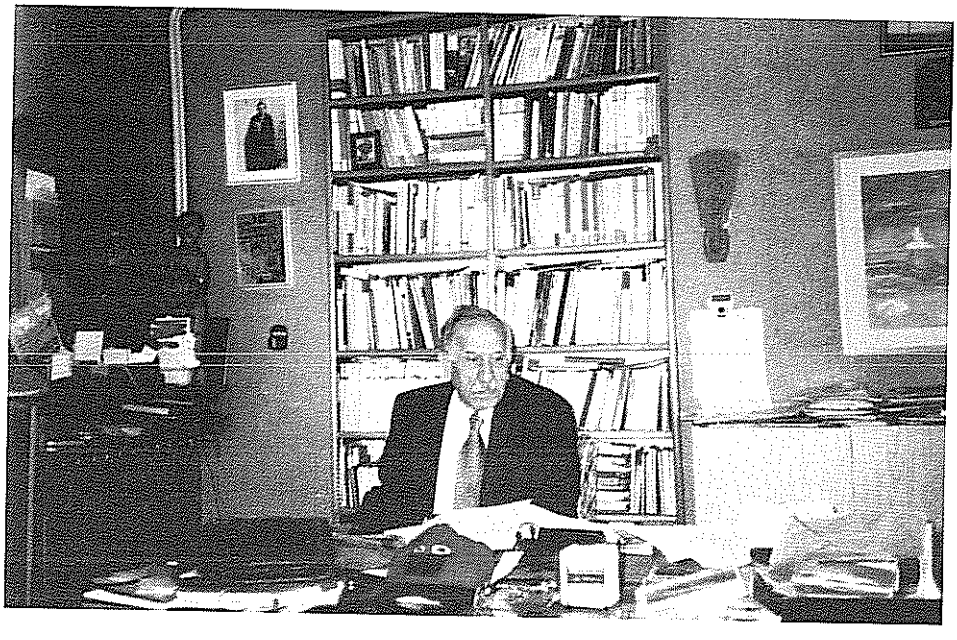

في مكتبه المنزلي

غرابار على علاقة فن التصوير الإسلامي بالفكر الإسلامي، وقد توسّعت في تأكيد هذه العلاقة في أكثر كتبي المرجعية، مع الانطلاق من رفض لفكرة المنع التي وردت في الحديث الشريف والتي صحح مضمونها الفقهاء مثل أبي علي الفارسي، فالفن الإسلامي مرتبط بمبدأ وحدة الوجود الذي ورد في فكر ابن عربي، فنحن لا نصوّر الأشياء من حيث واقعها المنفرد بل من حيث حقيقتها كوحدة متضامنة مع الكلي والمطلق، ومبدأ هذا التفسير الإيمان بوحدة الله وبعدم مماثلته لأي محدد أو نسبي.

فلسفة الفن أو جمالية الفن هي جانب من جوانب الفلسفة العامة تناولها الفلاسفة حتى أصبحت اختصاصاً على يد بومغارتن. وكان عماد هذه الفلسفة منذ عهد أفلاطون هو الإنسان كمقياس للجمال والكمال والجلال، وبقيت هذه الخلفية الفكرية للفن بجميع أشكاله السمعية والبصرية،الثابتة والمتحركة، هي ذاتها على الرغم من ظهور مدارس ونزعات فنية رفضت الواقع ورفضت المقاييس الإنسانية، واكتفت بالتعبير عن الموقف إزاء حالة أو شكل. ولم يكن بمقدور هذا التحول المفاجئ في ماهية العمل الفني الذي اتجه مخالفاً معطيات الفن التقليدي،

جعل علم الجمال غير ذي نفع، بل أزال مسوّغ وجوده عندما أقام فناً إشكالياً لا يخضع إلى أي معيار جمالي. وأصبح لا بد من التساؤل: هل نبحث عن فن مطابق لعلم الجمال،أم نبحث عن فلسفة مطابقة للفن؟

ومن حقنا أن نتساءل إذا كان التصوير التشبيهي مقبولا في الإسلام فلماذا كان محوراً ومسطحاً دون بعد ثالث، كثيفاً لا يترك مجالاً أو فراغاً دونما زخرفة أو رسم ؟ ثم ما مفهوم المنظور في هذا التصوير ؟

استطاع الفن العربي الإسلامي أن يصور الأشياء بأسلوب فني متميز، على أنه لم يصور الأشياء كما هي، وإنما صورها كما يراها .ولم يكن على خطأ، فالفن الحديث، ومنذ أكثر من مئة عام، مازال يسير في هذا الاتجاه، مبتعداً أكثر فأكثر عن الجمال الطبيعي، الجمال بذاته، ساعياً وراء الجمال الفني،الجمال المبدَع.

ثم إن اتجاه الفن العربي نحو الجمال الفني قام على المعرفة الحدسية، وليس المعرفة الحسية كما يتم في الغرب. في المعرفة الحدسية يختلط الحس بالعقل. وهي إذ تتجه لإدراك الجوهر، تجتاز هذه الحدود العرضية والمادية لكي تستقر في عالم المطلق.

لقد كان همي أن أعالج المسألة الأولى في فن التصوير وهي المنظور، هذا العلم الذي وطد دعائم الفن في الغرب منذ عصر النهضة وكان عماد الباحثين في جمالية الفن الغربي. كان المنظور الرياضي تطبيقاً صرفاً لعلم الضوء وقد خضع لقواعد ثابتة فرضت نفسها على الفنانين خلال أربعة قرون مستمرة. وهكذا تخلت جميع الأساليب الفنية التي ظهرت بعد الانطباعية عن المنظور الرياضي.

لقد بدت جمالية الفن الإسلامي أكثر وضوحاً بعد هذا الانقلاب الفني، وأصبح صحيحاً القول إن لكل فن منظوراً. ومن خلال فهمنا لهذا المنظور نستطيع أن ندخل إلى تفاصيل الجمالية التي يقوم عليها أي فن من الفنون. أصبح بإمكاننا مثلاً تحليل منظور الفن الهندي، ومنظور الفن الصيني، ومنظور الفن المصري، ثم منظور الفن الإسلامي.

المنظور العربي الإسلامي روحي يختلف عن المنظور الرياضي، فالكون كله، الإنسان والطبيعة، هما من خلق الله بحسب العقيدة الإسلامية. والأشياء في هذا الكون إنما تُرى من خلال عين الله المطلقة التي لا تحدها زاوية رؤية ضيقة، والرؤية الإلهية هي شاملة تصدر من جميع الجوانب، ولذلك فإن حزم الرؤية المسلطة على الموضوع متوازية وليست مخروطية كحزم المنظور الرياضي، وهكذا فإن الموضوع لا ينتقل على الصورة كما كان بل إنما ينتقل بواقع جديد ضمن صيغة فنية تتحدى الواقع وحدوده.

كثيراً ما ردَّد بعض النقاد، أن إملاء الفراغ في التصوير الإسلامي وبخاصة في المنمنمات، يعود إلى سعي المصور إلى عدم ترك حيز يشغله الشيطان،وهذا تفسير ساذج. إذا تذكّرنا تفسيرنا لأشعة الرؤية في الفن الإسلامي، وهي متوازية تصدر عن رؤية إلهية شاملة، وتسقط على جميع الأشياء التي ينقلها المصوِّر مكثّفة على صفحة واحدة، نرى أن الفراغات في الصورة تشغلها مساقط الأشياء التي تنحدر منها الأشعة، ويقوم المصور بتنسيق هذه المساقط وتلوينها.

أريد أن أصل إلى القول إن الحديث عن الفن العربي إنما يقصد به الفن الذي ظهر ضمن حدود الأرض العربية من الخليج إلى الأطلسي، والذي تكون تحت لواء الفكر الإسلامي الذي وسم الفن في جميع الأقطار الإسلامية بميسم واحد، دون أن تمس هذه الوحدة التعدديَة في الأساليب بحسب الحضارات المختلفة التي تعاقبت على هذه المناطق. يعتمد بناء الجمالية العربية على فهم واسع وعميق لفلسفة الفن التي تحدث عنها بشكل مباشر أو غير مباشر المفكرون العرب والمسلمون، وهي تعتمد على مقارنة علمية بين مفهوم هذه الجمالية ومفهوم الجمالية التي تحدث عنها الغرب منذ بومغارتن وهيغل وحتى بابيه وأدرنو. لقد تعرّفنا على علم الجمال من خلال ما كتبه هؤلاء الفلاسفة، واعتقد البعض أن هذا العلم يشمل الكلام عن جميع الجماليات في العالم، الجمالية الصينية والهندية والعربية والإفريقية والمكسيكية. وعندما عجز علم الجمال الغربي أن يتابع بحثه في مجال الفن الحديث، توقف عاجزاً عن تطبيق قواعده الأكاديمية على فن يقوم على الحرية المطلقة والذاتية والصدفية. هكذا أصبح فضاء علم الجمال فارغاً وكان

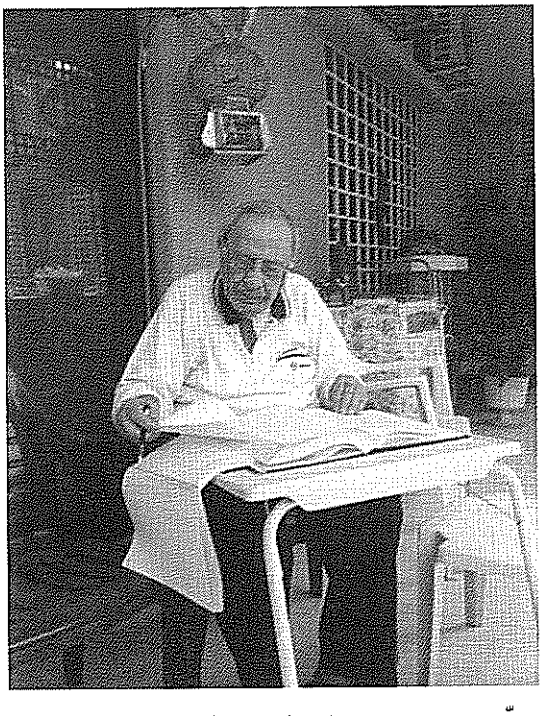

لا بد أن نعيد النظر في قواعد علم الجمال على أسس مختلفة بتنوع الحضارات وتطورها.

ولعلي اجتزت شوطاً في التأكيد على ضرورة الاهتمام بالجمالية العربية، وبمبادرة الكتابة فيها، وكان هذا الموضوع قد انطلق واسعاً متشعباً بعد أداء رسالتي الجامعية الثانية، وهكذا أصدرت كتباً مستقلّة عن جماليات التصوير، والخط والزخرفة، والعمارة، وأصدرت كتاباً مستقلاً تحت عنوان «خطاب الأصالة في الفن والعمارة» وضّحت فيه حضارة الهوية الجمالية العربية. من المؤكد أن البحث في الجمالية لا يقتصر على جهد واحد، ولكنني سعيت إلى وضع اللبنات الأساسية لهذا العلم، بعد أن قرأت جيداً محاولات التعريف به من الباحثين العالميين، من أمثال بابا دوبولو، وأولغ غرابار. وقدمت وجهات النظر في الأسس التي قامت عليها هذه الدراسات، مع تقديري للجهد الأكاديمي الذي دفع هؤلاء لبيان الخصوصية الجمالية في الفن الإسلامي.

إن ما قدمته من منطلقات في مجال علم الجمال العربي، يبقى دافعاً لدراسات أخرى تتفق أو تختلف مع أبحاثنا ولكنها ستكون مادة هامة لتكوين علم جمال، يعتمد على آراء ونظريات مختلفة، كما هو الأمر في علم الجمال الغربي.

الفصل السادس عشر - ممارسة فن التصوير والنحت

استهواني فن التصوير منذ حداثة سني، وشاركني صديقي رجائي الصفدي بإهدائي حاملة اللوحات وعلب الألوان، واستمرت صداقتي حميمة معه بانقطاع في مغتربه في الدار البيضاء في المغرب، وأنجزت عدداً من اللوحات ابتدأتها بصورة ذاتية، وعندما مضيت إلى باريس ساعياً للحصول على الدكتوراه في تاريخ الفن، كنت أدرس الرسم والتلوين في معهد أندره لوت وبتوجيهه، إلى جانب متابعتي للمحاضرات التي كانت تلقى في معهد اللوفر أو طالباً في معهد الفن وعلم الآثار التابع لجامعة باريس حيث أتممت دراستي للحصول على درجة الدكتوراه. وشاركت في أكثر المعارض الفنية السنوية ولم أقم معرضاً خاصاً لأن الفن عندي كان هواية لعلها تستوعب تطلعاتي وخيالاتي وأبحاثي التشكيلية.

إذا كان لي أن أتحدث عن أسلوبي الفني، فلقد كنت شديد الارتباط بالنزعة التعبيرية، وكان إمامي في هذا الاتجاه أعمال الفنان فان غوخ الذي كتبت عنه وترجمت قصة حياته التي كتبها ارفنغ ستون.

ثم انتقلت إلى التجريدية وعُرفت لدى النقاد بهذه النزعة، ولكنني اليوم أتجه إلى الحروفية الافتراضية، وفيها سعيت إلى إبراز جمالية الخط وليس مضمون الحرف، وكان لتشكيل الصيغ وقع موسيقى أردت التعبير عن الحركة من خلاله. وما زلت أحتفظ بعدد كبير من أعمالي، أطل عليها لكي أستريح من عناء البحث والتأليف، وسعياً إلى إثارتي لتجديد نشاطي الإبداعي.

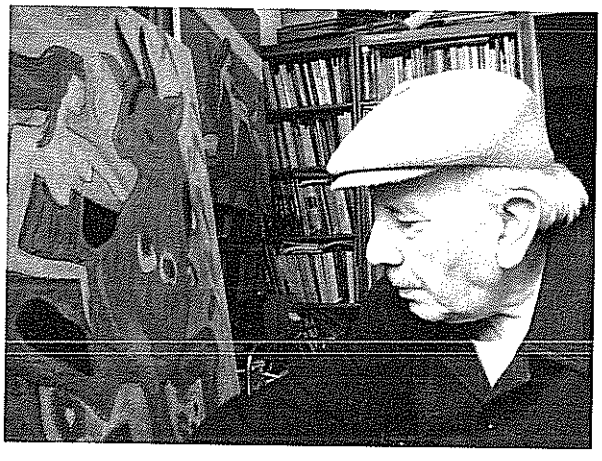

في مرسمه المنزلي

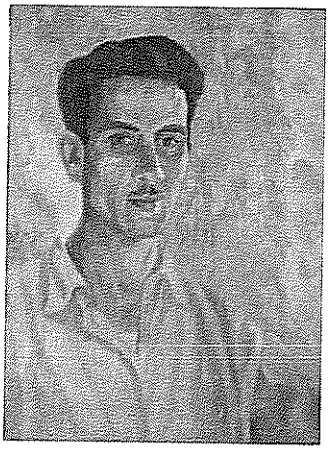

صورة ذاتية

في مجال النحت لم أخرج عن الواقعية التعبيرية في التماثيل الشخصية التي انتشرت في الحدائق العامة بدمشق، وفي المؤسسات الرسمية تمثل الأعلام التاريخيين: الجاحظ وابن سينا والفارابي وغيرهم. وكذلك بعض الأعلام المعاصرين أمثال محمد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية حالياً) والقاص الشعبي حكمت محسن المعروف باسم أبو رشدي.

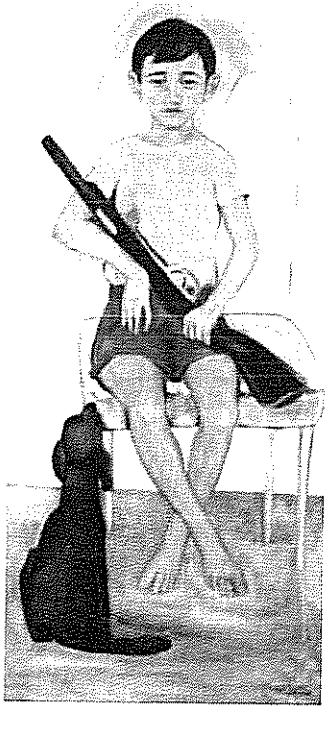

إياد – 1968

سيكون باستطاعة الصورة الرقمية عبر الشاشة بوسائلها الجديدة التي تجاوزت الرقعة الثابتة (ورقة أو لوحة)، أن تدخل البيوت كلها، وتخاطب الأعمار والأجناس على اختلاف مستوياتهم في الثقافة والوعي، فقد أصبح القمر الصناعي يقدم المتحف الافتراضي على أوسع نطاق وبوقت واحد إلى جميع القارات. أليس هذا الانتشار المتكافئ دليلاً على تحقيق عالمية الصورة،

حكمت محسن
(الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون)

الأستاذ الرئيس محمد كرد علي
(مجمع اللغة العربية بدمشق)

ليس بوصفها لغة فقط، بل بوصفها موجودة في كل بيت من بيوت البشر في العالم. ألا يحقق ذلك تواصلاً إنسانياً ومعرفياً يقوي الأواصر، ويحقق حواراً مستديماً، يحد من التفاوت والتعارض والصدام؟

ستقوم الصورة عبر الشاشة بدور عالمي أكثر فاعلية من دورها التقليدي، وستصبح أكثر ضرورة بعد أن أوحت الحداثوية بانهيارها ونهايتها. في الألفية الثالثة ستعود الصورة إلى الحضور في متحف افتراضي مستمر متحول وشامل حاملة إشارات ورؤى وخصائص متميزة ومتعددة بتعدد ملايين الإرساليات التلفزيونية والمعلوماتية، التي لم تعد محصورة في غرفة مغلقة، بل انتقلت إلى جيوبنا وناقلاتنا.

قناعتي بأهمية المتحف الافتراضي دفعتني أن أقدم أعمالي الفنية عن طريق الانترنيت تعويضاً عن إقامة معرض فني لا أرغب فيه.

وكان للشعر دوره في الحديث عن تجربته التشكيلية، ومما قاله فيها شعراً:

1977

أقلاميَ الملونة...حضنتها كغانيةٌ
راقصتها..على أديم لوحة مترامية
حاورتها بلهجة العشاق وزن القافيه
خططتها. بلا كساء أوقناع عاريه
خلقت منها كائناً بلا جسوم فانيه
أسطورة من الرسوم صغتها بثانيه

لوحات فضائية – من ديوان– أبيات على صفحة الجبين

في إطار حديث الفنان ممدوح قشلان عن الدكتور عفيف البهنسي تطرق إلى جانب عمله الإبداعي التشكيلي، في مجالي التصوير والنحت، وفي التصميم، فقال: عندما تزور معرض «إحياء الذاكرة التشكيلية» في المتحف الوطني بدمشق، ضمن

الفارابي والدكتور عفيف البهنسي (عام....)

ابن النفيس

الكندي

إطار احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008 تستوقفك عشرات اللوحات المعروضة. من هذه اللوحات المعروضة ثلاث لوحات تحمل اسم عفيف البهنسي،

وتتميز عن جميع لوحات المعرض فقد كان فناناً منتجاً ومبدعاً زامل الفنانيين الرواد الأوائل، وأصبح أحدهم بل أصبح مسؤولاً عنهم بحكم منصبه المرتبط بالفنون: مديراً للفنون الجميلة، وهكذا وجد نفسه مؤسساً أساسياً ورائداً يقود الحركة الفنية التشكيلية وتطورها.

برز اسم عفيف البهنسي فناناً منتجاً مبدعاً ثم مسؤولاً ناجحاً وادارياً راعياً للجميع. مارس الفن التشكيلي في مجالاته المختلفة من الرسم والتصوير بأنواعه وألوانه وأعماله في تلك الحقبة موزعة في المتحف الوطني وبعض المؤسسات والمجموعات الخاصة ومارس النحت المجسم والبارز، وله فيه انتاج غزير جسد عبره أعلام التاريخ مثل الجاحظ و الفارابي و ابن سينا و ابن النفيس و الكندي و زكي الأرسوزي و عادلة بيهم و محمد كرد علي و حكمت محسن و زنوبيا ملكة تدمر.. الخ. أعماله النحتية هذه تزيّن المباني والمؤسّسات التي تحمل الأسماء المذكورة. ومارس تصميم الشعارات وله فيها إنتاج ذاخر وبصمة ذاتية.

مختارات من المتحف الافتراضي

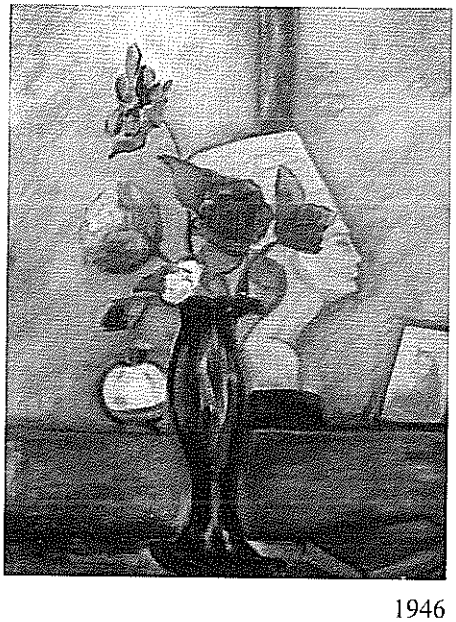

1946

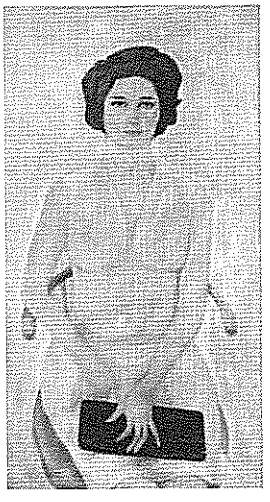

1955

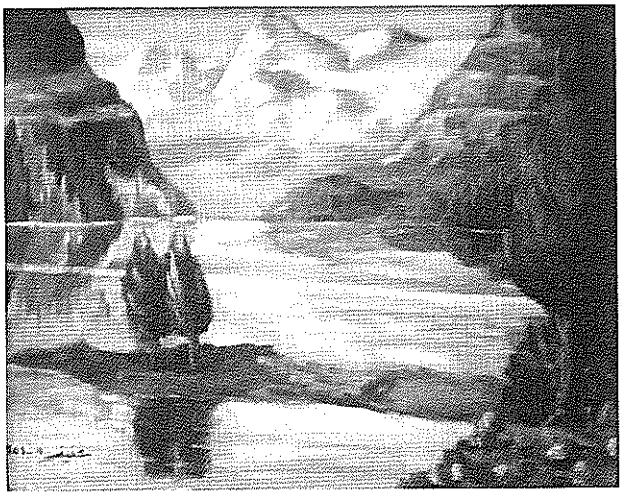

1951

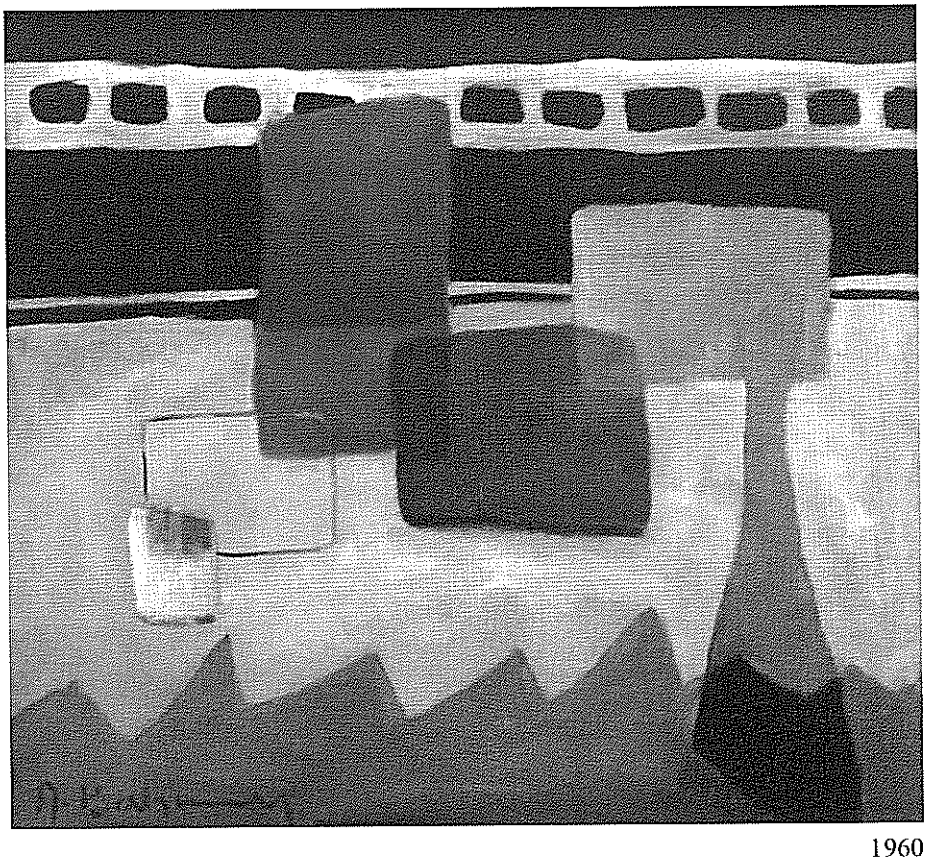

1960

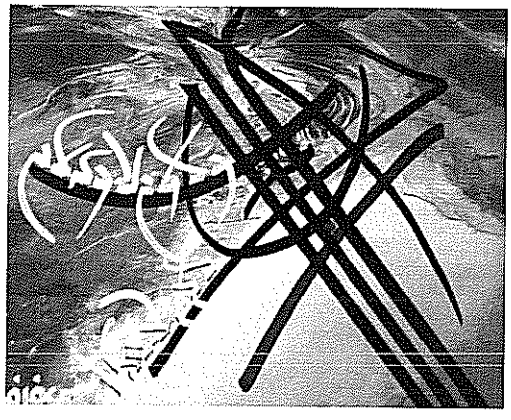

1990

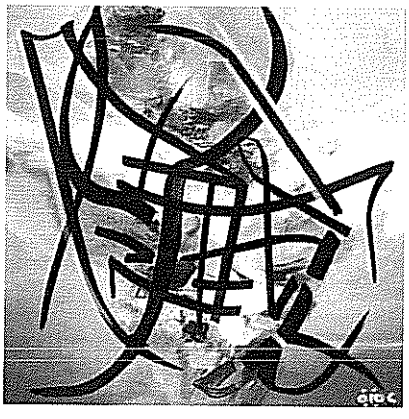

1990

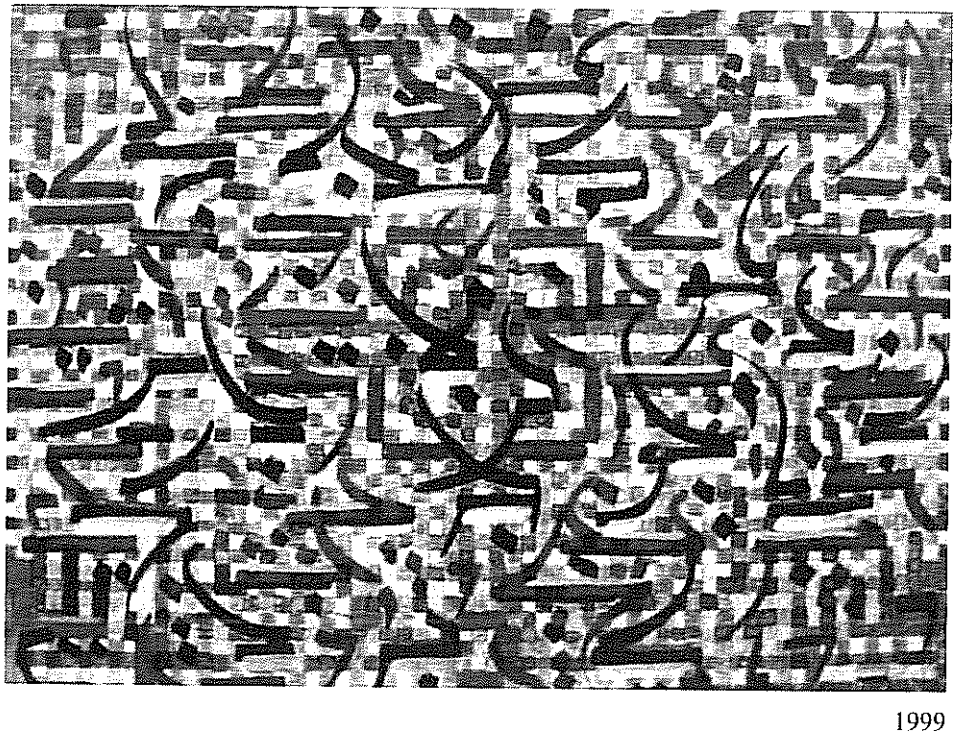

1999

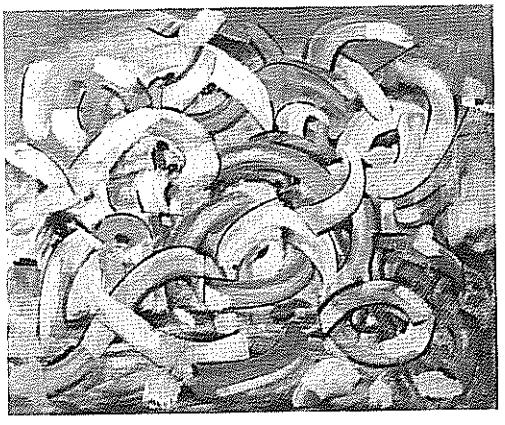

2010

2000

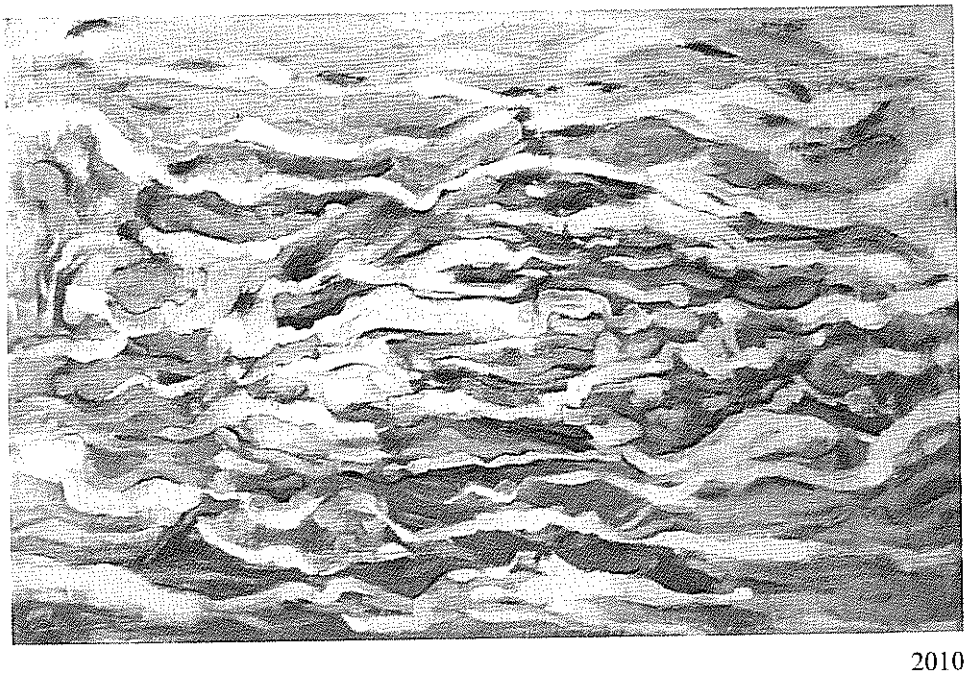

2010

2015

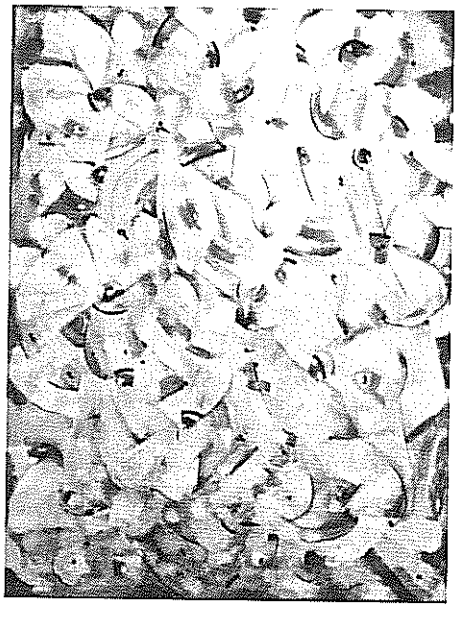

2015

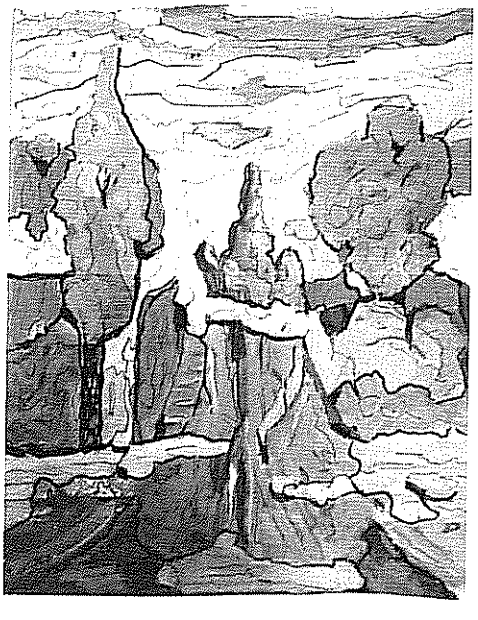

2015

الباب الرابع - شهادات معاصرين

الفصل السابع عشر - الإنسان والأسرة

الفصل الثامن عشر - رسائل

الفصل السابع عشر – الإنسان والأسرة

كثيرة هي الوقائع التي تشير إلى العمق الإنساني والأخلاقي للدكتور عفيف البهنسي منها الأثر الذي تركه في أعماقه ما تعرض له الفنان لؤي كيالي من أذى نفسي بليغ إثر مقالة نقدية متحاملة عنه، وهي الحادثة التي رددها الدكتور البهنسي مرات لا تحصى مؤكداً كل مرة على أن النقد يجب أن يكون أخلاقياً. ومنها أيضاً موقفه الحاسم المنطلق من دوافع أخلاقية إنسانية تجاه أحد المدرسين الأجانب، وكذلك مفهومه الإداري الذي كان يؤكد على مكافأة المجتهد بدل عقاب المقصر، وإلى ذلك غيريته التي دفعته إلى التبرع بكثير من الكتب والأعمال الفنية التي أهديت إليه شخصياً إلى الهيئات الثقافية الرسمية لتبقى في متناول الجميع، ومعها نحو خمسة آلاف كتاب من كتبه الشخصية قدمها هدية لمكتبة الأسد وهي في غالبيتها كتب اختصاصية، وقدم إلى المركز الثقافي العربي وإلى المديرية العامة للآثار والمتاحف لوحات وكتباً، وقد خصصت المديرية العامة للآثار والمتاحف جناحاً خاصاً للكتب المهداة من قبله.

وفي صفحات هذا الكتاب كثير من الشهادات عن الأصالة الإنسانية والأخلاقية للدكتور البهنسي ويمكن أن نضيف إليها ما كتبه د. عزت السيد أحمد الذي لازمه وقتاً طويلاً أثناء إعداده لكتابه عنه، وشاركه بحوارات طويلة عن الجوانب العديدة في حياته وأفكاره وقناعاته.

يقول الدكتور عزت:

لا أدري لماذا ينتابني شعور بالتحيّز لصاحبي، وبأنني أتمادى في وصفه مثالياً، مع أنه في مذكراته الخاصة التي ما زالت سريّة، يعترف أنه ما زال في بداية

الطريق للتعرف على حقيقة الإنسان،وأسرار الواقع الاجتماعي، وخفايا الطبيعة. وأن أخطاءه لم تكن إلا نتيجة مغامراته في خوض الخفايا والأسرار دون تحفظ أو خشية.

ففي نطاق الإنسان عرف بعد عقبات كثيرة أن كل إنسان عالم متفرد يريد أن يستوعب الكون كله، وأن المجتمع مؤلف من شخصانيات متفردة مستقلة، ليس الاتحاد والتعاون سهلاً بينها. واستفاد من تجاربه أن فهم الآخر يبدأ من الاعتراف به وتسويغ مواقفه، مهما كانت مخالفة أو معارضة.

وفي نطاق الواقع الاجتماعي آمن بالتغيير ضمن حدود الحرية.

وفي عالم الطبيعة وجد نفسه أمام الله وجبروته، فكان يبحث عن الإعجاز في تكوين عناصر الحياة والوجود، فلم يجد أبلغ من صناعة هذا المطلق الأجل، الذي حقق الكمال والجلال والجمال في الطبيعة؛ فهل كان على خطأ؟!»

لقد قيل إن الأخطاء تتناسب طرداً مع العمل، وقيل أيضاً أن ما هو خطأ هنا صواب هناك، لذلك لم يكن صاحبي يخشى الخطأ لأنه لم يكن يخشى الخطر. فإذا قيل إنه شجاع مغامر، فلم يكن ذلك على حساب الحق والصواب، بل على حساب الأحكام التي تصدر عن حسد أو حقد، وهي حالات أصبحت مألوفة في مجتمع يتسابق باتجاه الكسب الأوفر والجهد الأقل، مستخفاً بكل عمل تأسيسي.

ومع أني على وفاق مع صاحبي في آرائه لأنني من أكثر الناس معرفة به ومن أكثرهم ثقة بأفكاره وأعماله، فإنني أقول «جل من لا يخطئ». ولو أتيح لي أن أقرأ سريرته، لوقفت على اعترافات بالخطأ، لا يخفف منها إلا شهادات التقدير التي أحرزها، والأوسمة الرفيعة التي حملها من عشرات الدول مع ميداليات التكريم، هذه الوثائق التي يحتفظ بها في خزائنه وقليل من الناس من اطلع عليها، لعلها علامة ثقة بشجاعته في اختراق المخاطر والمواقع.

مع أسرته - زوجته ميسون وأولاده: إياد وأنس ويولا وكنان وعمر

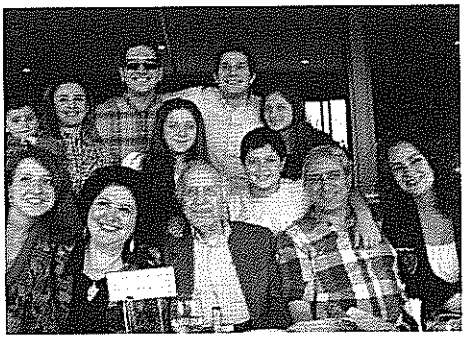

الأبناء والأحفاد يحتفلون بيوم ميلاده

أمام مرآة عطائه كنت أحاوره بهدوء، وظل صامتاً، ثم لم يلبث أن خرج من المرآة ليدخل بيته في شارع الروضة قريباً من مبنى وزارة الثقافة حيث كان مديراً للفنون الجميلة، في بيته حيث مكتبه ومكتبته، وحيث أقلامه وريشه ومؤلفاته ولوحاته، ولكنه كعادته، لم يكن متلهفاً للكتابة بقدر لهفته لأولاده: إياد وأنس ويولا وكنان وعمر، وعلى رأسهم زوجه المصورة التشكيلية ميسون الجزائري وكان عليه أن يترك المجال واسعاً لزوجه، لكي تأخذ حقها في ممارسة اختصاصها الذي تفوقت فيه منذ أن كانت طالبة في كلية الفنون الجميلة بدمشق ومارست التصوير مشاركة في أكثر المعارض الفنية، كما مارست التدريس الفني. وقد خطبتها - كما يقول-بوساطة خالته هدية. وتزوجنا بتاريخ 1972/7/27 وكان شهر العسل في بولونيا. وكانت ملهمتي وخير مربية لأولادي.

لقد كان أباً قبل أن يكون باحثاً أو أديباً أو فناناً، وأولاده الأربعة وبنته الوحيدة هم عالمه ومستقبله وهمه، وليس من حقي أن أنكر عاطفة أي أب نحو أولاده، ولكني لن أنسى رعايته اليومية بمتابعة دراستهم وتشجيعهم وبمراقبة سلوكهم ضمن حدود الحرية والثقة والحب، حتى حصلوا على أعلى مراتب المعرفة الاختصاصية والألقاب الجامعية. وليس من اعتزاز يتمتع به الأهل أغنى من اعتزازهم بوصول الابناء إياد وأنس ويولا وكنان وعمر، إلى أعلى مستويات العلم والمعرفة .بدراستهم في الجامعات الامريكية، مما أكسبهم اتقان لغة عالمية، وحصولهم على درجة الدكتوراه من جامعات أمريكا، حيث اختص إياد بالإتصالات من جامعة كليفورنيا

الأحفاد

- لوس أنجلوس، واختص أنس بالصناعة الدوائية من جامعة ماساتشوسيت للصيدلة في بوسطن، واختص كنان بنظم المعلومات الإدارية من جامعة نورإيسترن في بوسطن. واختص عمر بعلوم الحاسوب من معهد كوينزي والجامعة الأمريكية في دبي، واختصت يولا باللغة الانكليزية من جامعة دمشق.

وأنا أشهد بأن حب الأبناء وتقديرهم لأبيهم كان انعكاساً لهذه الرعاية وهذا الحب الصادق، وأعرف أن الأب القدوة يساعد أبناءه على رسم مستقبلهم وتحقيقه.

وتزوج إياد من هادية الترك وأنجبا آية وعفيف وسدرة. ثم تزوج أنس من ديانا زيدان وأنجبا جود، وكانت يولا قد تزوجت من الدكتور غسان الطويل ولهما بنتان تالا ويارا. وتزوج عمر من تارا عزيز وله منها توأمان.

لملمتُ أطراف القصيد كي أكون قادراً ... على الكلام واثقاً من ورْقتي وريشتي
سكبتُ من عيني دموعاً صِغتها رسالة ... كتبتها مسترسلاً معبّراً عن وحشتي
بدأتها منادياً بجملة «إبني الحبيبْ ... صورت فيها خفْقتي، رسمتها بريشتي
أحسست أنّي حاضنٌ هذا الذي ناديته ... أو حاملٌ على يميني مهجتي أو فلذتي
«إبني الحبيب» لم تعد عبارةً قولاً يقال ... بل دعوة من الفؤاد، خفقتي من نبضتي
أوفدتهم، وكان قلبي راعشاً من فرقةٍ ... قد باعدتْ روحي التي أودعتها صبابتي
وعدت نفسي باللقاء ظافراً بنصرهم ... ناشدت ساعاتِ اللقاءِ أن تدوم نشوتي

من ديوان أبيات على جبهة الجبهين

الفصل الثامن عشر - رسائل

أخي الأستاذ عفيف بك:

تحياتي الأخوية وأشواقي الحارة، ورجائي أن تكونوا أنتم والسيدة الفاضلة بصحة جيدة في مطلع هذا العام الذي أرجو أن يكون سعيداً وممتعاً لكل ما ترجون لكم ولمديرية الفنون الزاهرة.

وقد انقطعت عني أخبار نشاطكم الفني، والذنب في ذلك يعود على تقصيري في الكتابة إليكم، إلا أنني على ثقة في أن هذا النشاط على أشده. وما من أحد يجهل ما لكم من تأثير في الحياة الفنية في بلادنا العزيزة، وما قمتم به من خدمات نحو الفن وأهله. المعارض في داخل البلاد وفي خارجها والكتب والمؤلفات والنشرات الفنية، والمكافآت والحوافز وغير ذلك من الأمور التي كانت لها أصداء بعيدة.

ومنذ ذلك أن أحد الباحثين الفنيين واسمه جاك فوراني اتصل بي، وطلب مني مصادر وصوراً من لوحات الفنانين السوريين المعاصرين، لأنه يريد أن يصدر بحثاً مؤخراً في الفن السوري، ومدى تأثره من الفن العربي، ومقدار الأصالة التي تتبدى في آثاره، وصلته العميقة بالوسط السوري.

وللأسف إنني لا أمتلك شيئاً من الوثائق عن كل ذلك، لأنني تركت جميع ما لدي من الوثائق في دمشق، ولا يمكن أن تصل لها يدي. وقد فكرت بكم.. فإذا كان متوفراً لديكم بعض الوثائق والأبحاث ذات الطابع العام التي تبين ماهية الفن السوري، وتطوره، وتعطي صورة صادقة عن أعلامه وحملة لوائه، أو عن

إنتاجهم، وبعض الصور الجيدة في هذا الإنتاج، سواء أكان ذلك باللغة العربية أو إحدى اللغات الأجنبية، أكون لكم شاكراً كل الشكر، ومعتذراً كل الاعتذار عن هذا الإزعاج، إلا أنه ليس لنا أية حيلة عندما تسنح المناسبة في التعريف بأقدار عبقريات بلادنا وإسهامها في مضمار الإنتاج والابتكار.

وتحياتي الأخوية الصادقة إلى جميع زملائكم، وإلى أصدقائنا الفنانين شورى وحماد، وجلال، وفاتح، وغيرهم.

وختاماً تفضلوا بقبول شكري سلفاً، وذكرياتي الصادقة، وأشواقي الأخوية.

باريس في 11 كانون الثاني 1966

المخلص

سليم عبد الحق

❖ ❖ ❖ ❖

عزيزي الدكتور عفيف بهنسي

تحية طيبة وبعد.. فلقد كانت مفاجأة جد سعيدة يوم تلقيت هديتك النفيسة التي تتضمن ثلاثة كتب من مؤلفاتك الغزيرة شكلاً ومضموناً وعكفت على الفور أطالع أثر العرب في الفن الحديث وما كدت أشرع في قراءته حتى واصلت المتعة إلى النهاية فلك مني التهنئة والإعجاب والشكر الجزيل. كذلك جلت بضع جولات بين مصطلحات معجم الفنون وما أشد حاجتنا جميعاً إلى هذا المؤلف الضخم الذي لاشك قد استغرق منك جهداً ومكابدة حتى يظهر في مثل هذه الصورة الجادة الواعية. أما الكتاب الثالث عن تاريخ الفن فلم أشرع بعد في قراءته، وإن كنت قد تصفحته توطئة لمطالعته في أقرب وقت.

أخي

أشكرك على مبادرتك بخلق هذه الصلة التي أرجو أن تنمو وتضطرد وعسى أن أظفر بلقائك إذا ما حللت بمصر..

كذلك أشعر بالامتنان الشديد لنسخة مكتوبكم إلى منظمة اليونيسكو العربية، أولاً لتفضلكم بإرسالها لي، وثانياً لما تضمنته من تحليل وتقويم أتشرف بأن يكون كتابي هو موضوعه.

وإني أتفق معكم في كل ما ورد بتقريركم من ملاحظات وعلى الأخص أهمية تحديد الموضوعات بعناوين لا بأرقام اعتماداً على ما جاء بالفهرس. وبادرت على الفور بإدخال هذا التعديل على الجزء الرابع المتصل بحضارة العراق القديم.

أما ما يتصل بثبت المراجع وفهارس الأعلام فقد آثرت أن تظهر في خاتمة الفن المصري (بالجزء الثالث) منعاً للتكرار، أعني أن تكون كل حضارة قائمة بذاتها من حيث ثبت مراجعها.

وقد خامرتني فكرة جمع المصطلحات التقنية والفنية في نهاية كل حضارة.

أكرّر شكري. مع فائق التقدير والاحترام

القاهرة في 10 /1972/12

ثروت عكاشة

❖ ❖ ❖ ❖

حضرة الصديق العزيز والأخ الكريم الأستاذ الدكتور عفيف البهنسي

حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإنه ليسعدني ويشرفني أن أتقدم إليكم بخالص عبارات التهنئة والتقدير على إثر تكريمكم في حفل بهيج أقامته على شرفكم وزارة الثقافة، وتكريمكم من قبل كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، فهنيئاً لكم وألف مبارك على هذا التكريم، فأنتم أهل له، لأن مساهماتكم في البحث في مجالات الفن والعمارة وعلم الآثار تُعَدُ علامة بارزة ومضيئة في تاريخ البحث والكشف وعلوم الآثار والمتاحف والفن في سورية والبلاد العربية. ولن أنسى الذكريات الجميلة التي عشناها مع بعضنا طوال الخمس وعشرين سنة الماضية حيث كنتم نعم الصديق والأخ العزيز والعالم القدير الذي لا يتأخر في تقديم المساهمة والمشورة والرأي الصائب، ولا سيما عندما كنتم رئيساً لمجلس إدارة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول إرسيكا الذي أدرتم اجتماعاته بكل حنكة ودراية، فاستطعنا تحقيق العديد من المكاسب التي أفادت المركز كثيراً ومهدت له الطريق لمسيرة طويلة اتسمت بالنجاح والتوفيق، والحمد لله.

أشعر اليوم بسعادة غامرة وارتياح كبير لأن التكريم شمل أحد رجالات العلم القلائل في عالمنا الإسلامي، فهنيئاً لكم وأطال الله في عمركم ونفع بكم الأجيال الصاعدة من العلماء والباحثين.

وأخيراً لكم مني أحرّ التحيات والتمنيات لكم بالصحة والعافية وطول العمر.

اسطنبول 30 نيسان (ابريل) 2008

أخوكم أكمل الدين إحسان أوغلي

هوامش

1- اغتيل داخل عيادته القريبة من مدرسة «الفرنسيسكان» بتاريخ 6 تموز العام 1940 وقبض على الجناة ونفذ حكم الإعدام ببعضهم شنقاً حتى الموت.

2- «الزعيم» رتبة عسكرية وهي التسمية السابقة لرتبة «العميد» حالياً

3- تسلم الدكتور نور الدين الأتاسي رئاسة الدولة بين 25 شباط 1966 و13 تشرين الأول 1970

4- يذكر المؤرخ د. سامي مروان مبيض في كتابه: «تاريخ دمشق المنسي أربع حكايات 1916-1936» الصادر عن دار الريس العام 2016 ص138 ما لفظه حرفياً: «.. رفض أحد طلاّب الجامعة السورية من عائلة السباعي الحمصية العريقة، أن يتسلّم شهادة القانون بحضور الرئيس العقيد أديب الشيشكلي. قال الشاب الثائر يومها إنه يرفض تسلّم شهادة في القانون من دولة لا تعترف بالقانون... وغضب الرئيس وأمر الجيش باقتحام الحرم الجامعي... واعتقال الشاب المعارض ومن يقف وراءه من الطلبة والأساتذة....» لذلك اقتضى التنويه للأمانة العلمية.

5- «الدحل» كرات زجاجية صغيرة شفافة في نواتها لون صريح ثلاثي الأبعاد يميزها عن بعضها البعض، كانت منتشرة حتى وقت قريب بشكل واسع كلعبة شعبية بين الصبيان في الحارات والشوارع وباحات المدارس «أحياناً».

6- المكتبة العربية.

7- صاحبها هو المحقق الأديب الراحل أحمد عبيد وقد أغلقت أبوابها إلى الأبد بعد وفاة نجليه الأستاذ رجاء والدكتور زاهر عبيد.

8- لصاحبها السيد سمعان حداد وقد أغلقت المكتبة أبوابها نهائياً بعد وفاة صاحبها وتتابع ابنته مهنة النشر في مكان آخر.

9- لصاحبها الراحل محمد حسين النوري ومايزال أنجاله يتابعون رسالة والدهم الفكرية والثقافية.

10- يذكر الأستاذ الأديب عيسى فتوح في كتابه «أديبات عربيات» أنها انتقلت إلى جوار ربها وهي في الـ /32/ من عمرها لذلك اقتضى التنويه.

11- هو حامد باشا الوادي.

12- في أواخر عام 1949، تسلم خالد العظم رئاسة الحكومة في الجمهورية السورية. وكانت العلاقات مع الحكومة اللبنانية بين شد وجذب منذ حصول كلا البلدين على استقلالهما قبل ست سنوات. وسبب توتر العلاقات كان شعور السوريين بالغبن من هيمنة الرأسمال اللبناني على الاقتصاد في سورية ولبنان معا. وذلك بسبب الوحدة الجمركية بين البلدين. فقد كانت الجمارك المشتركة مرؤوسة دائماً من قبل مدير لبناني، وكانت الحكومة اللبنانية ترفض تداول رئاسة الهيئة بين البلدين. وغالبا ما كان المدير اللبناني يتجاهل مصلحة السوريين في عملية الاستيراد والتصدير. ولأن المرفأ المشترك كان في بيروت، ولأن سورية لم تكن تملك مرفأ مستقلا، كان اللبنانيون أقدر على التحكم بهذه العملية، التي غالبا ما تترك أثرها في اقتصاد الدولتين معا، خصوصا إذا أضفنا ذلك أن اللبنانيين كانوا يتمتعون بميزة حصرية الوكالات الأجنبية لكل من سورية ولبنان. وارتأى العظم أن من العدل أن يتم تعميم الخير على الشعبين السوري واللبناني، ماداما يملكان إدارة جمركية موحدة، ومادامت البرجوازية اللبنانية تلعب دورها بالأصالة عن نفسها والنيابة عن شقيقتها السورية. ومن هنا كانت فكرة العظم قيام وحدة اقتصادية بين البلدين. ولتحقيق ذلك طلب من وزير اقتصاده معروف الدواليبي أن يجتمع مع قادة الرأي الاقتصادي في سورية لأخذ رأيهم. وبالفعل اجتمع الدواليبي مع خبراء اقتصاديين ومع ممثلي الغرف التجارية والصناعية والتجارية لمدة أيام في جامعة دمشق. ووصل الجميع إلى رأي موحد: إما وحدة اقتصادية ونقدية يخلص لها البلدان وإما انفصال عاجل يكون فيه كل من البلدين حرا في إتباع السبيل الذي يناسبه. وقرر العظم أن يرسل إلى الحكومة اللبنانية مذكرة يعرض عليها فيها رأي حكومته في مسألة الوحدة الاقتصادية ويطلب من نظيره اللبناني رياض الصلح الرد في مهلة معقولة. وشرح العظم في مذكرته أن من أسباب الضعف والاضطراب اللذين منيت بهما المصالح المشتركة ارتكازها

على اتفاقات مؤقتة قصيرة الأمد، محدودة النطاق وسعي الحكومتين عند أي خلاف إلى حلول مؤقتة جزئية للقضايا الأساسية والطارئة. وجاء رد الرئيس الصلح سلبياً، ملاحظاً أن حكومته لا يسعها التسليم بمحتوى المذكرة السورية التي وصفها بأنها اتخذت شكل إنذار. وفي اليوم التالي أصدرت حكومة العظم مرسوما بفصل الجمارك السورية عن اللبنانية وتأسيس مديرية عامة للجمارك مرتبطة بوزارة المالية. ولتعزيز الموقف السوري، قررت حكومة العظم أيضا إصلاحات نقدية جذرية، بتطبيق أنظمة القطع على العمليات التجارية بين سورية ولبنان، وعدم السماح بتدفق القطع السوري إلى لبنان لتبديله بالليرة اللبنانية لتسديد قيمة البضائع التي تشتريها سورية. وهو ما أدى إلى هبوط الليرة السورية وارتفاع قيمة الليرة اللبنانية. ثم قررت الحكومة منع نقل البضائع من لبنان إلى سورية باستثناء البضائع العابرة (الترانزيت) والبضائع المعفاة من الجمارك والمحروقات. وصدر ذلك بالمرسوم التشريعي رقم 71 لعام 1950. (عن شبكة فولتير)

13- كان القاضي عبد الوهاب الأزرق رئيساً للمحكمة العسكرية، وقد عرف بنزاهته وحيويته وحزمه وسعة معرفته القانونية.

14- مالاغا أو مالقة (بالإسبانية: Málaga) هي مدينة إسبانية قديمة واقعة في جنوب البلاد وهي عاصمة مقاطعة مالاغا في منطقة أندلوسيا. تطل على البحر المتوسط وهي أهم ميناء إسباني بعد برشلونة. تحيط بها الجبال، أسست عام 1000 ق.م على يد الفينيقيين الذين سموها مالاكة. هذا الاسم مشتق في الغالب من كلمة ملح بالفينيقية حيث كانت الأسماك تملح تلقائيا على موانئها. استوطنها التجار الفينيقيون ووصفوها بأنها ضوء الليل وذلك لانعكاس ضوء القمر على شاطئها المطل على البحر الأبيض المتوسط. وبنوا قلعة فيها. اشتهرت مالاغا باسم مالقة أيام الحكم الإسلامي لإسبانيا الذي استمر مابين 94 و892 هجري، وقامت بدورٍ تاريخي كبير في البناء السياسي والاقتصادي لدولة الإسلام في الأندلس.

15- ألكسندر بابادوبولو Alexander Papadopoulou (1916-1996) عالم جمال من أهم اختصاصيي الفن الإسلامي في العالم. ولد في مدينة كييف من أب

يوناني مهاجر وأم روسية. وهاجر مع عائلته الى استانبول إثر الثورة البلشفية، ليستقر سنة 1927 في القاهرة ومن ثم في باريس منذ بداية السبعينات، بعد انجازه دراسة دكتوراه عن المنمنمات الإسلامية، تعد حتى اليوم أغنى وأعمق المراجع المتوافرة في هذا المجال. قام عام 1975 بتأسيس قسم علم جمال الفن الإسلامي ومركز الأبحاث التابع له في جامعة السوربون.

16- تولى حقيبة وزارة الثقافة منذ تأسيسها، وحتى مغادرة الدكتور البهنسي لها، وفق التسلسل، وحسب ما ورد في موقع وزارة الثقافة، كل من: فتحي رضوان 1958- صلاح الدين البيطار 1958- رياض المالكي 1958- ثابت العريس 1960- ثروت عكاشة 1961- عزت النص 1961- أحمد السمان 1961- فؤاد العادل 1961- عبد السلام العجيلي 1962- عمر شخاشيرو 1962- جبرائيل بشور 1962- سامي الجندي 1963- شبلي العيسمي 1963- أسعد محفل 1964- سليمان الخش 1964- أسعد درقاوي 1966- جميل شيا 1966- زهير عقاد 1967- سهيل الغزي 1968- فوزي كيالي 1970- د .نجاح العطار (1976-2000). ويلفت الانتباه هنا أن غياب اسم أمجد الطرابلسي الذي قدّم كتاب «الفن التشكيلي في الإقليم الشمالي» بصفة وزير الثقافة والإرشاد القومي. الذي تذكر الموسوعة العربية أنه عين وزيراً للتربية والثقافة والتعليم العالي في الإقليم السوري، من عام 1958 إلى عام 1961. في حين يقدمه لقاء صحفي نشر في مجلة «الجيل» في تشرين أول (أكتوبر) 1958 على أنه وزير التربية والتعليم.

17- أديب وناقد. أحد المشاركين في المؤتمر التأسيسي الأول لحزب البعث العربي الذي أقيم في مقهى الرشيد الصيفي بدمشق العام 1947. مؤسس جريدة تشرين السورية. أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة الموقف الأدبي. انتقل إلى جوار ربه العام 1983.

18- الدكتور سليم عادل عبد الحق (1913- 1992) أحد أهم العاملين في مجال الآثار في سورية، أوفد للدراسة في فرنسا حيث حصل على الإجازة في تاريخ الفن، وأتبعها بدبلوم من معهد اللوفر في الفن والآثار، ودرس في الوقت ذاته هندسة تخطيط المدن حيث حصل على شهادة الدكتوراه، وبعد عودته من

فرنسا عام 1945، عُيّن محافظاً عاماً للمتحف الوطني بدمشق خلفاً للأمير جعفر الحسني الذي كان قد تولّى إدارة المتحف المذكور، وقام بإنشاء نواته الأولى عام 1935، وفي عام 1950 تم تعيينه مديراً عاماً للآثار،حيث حقق على مدى السنوات التالية إنجازات كبيرة في المجالات المتعددة للآثار والمتاحف حتى عام 1966 حين اختارته منظمة اليونسكو للإشراف على مشاريعها الأثرية والثقافية. والى جانب بحوثه في الآثار والمتاحف، قدّم كتابات عميقة في مجال الفن التشكيلي، تترجم ثقافة واسعة، وفهماً متطوراً. نال وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى. إضافة إلى أوسمة رفيعة من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وبلجيكا والدانمارك.

19- أقيم «المعرض السنوي» لأول مرة عام 1950 تحت اسم «معرض الرسم اليدوي» وهو ما يجعله أحد أقدم المعارض الدورية العربية، وقامت بتنظيمه آنذاك وزارة المعارف (حل محلها اليوم وزارتا التربية والتعليم العالي)، ومديرية الآثار العامة المديرية العامة للآثار والمتاحف حالياً. ومع تأسيس وزارة الثقافة في عهد الوحدة السورية ـ المصرية (الجمهورية العربية المتحدة) عام 1958 انتقلت مسؤولية تنظيم المعرض إلى مديرية الفنون التشكيلية والتطبيقية فيها، تلك التي تحولت في نهاية عام 1966 إلى مديرية الفنون الجميلة. وفي عام 1959 قُسم المعرض إلى معرضين: «معرض الربيع» في حلب، و«معرض الخريف» في دمشق. وقد أعادت المديرية بعد بضع سنوات دمج المعرضين في معرض واحد، استمر ـ كما بدأ ـ بتقديم صورة متكاملة وشاملة عن المشهد التشكيلي السوري بسبب حرص الفنانين باختلاف اتجاهاتهم الفنية ومدارسهم وأجيالهم على المشاركة، ما أدى إلى استمرار نمو أهمية المعرض التي بلغت ذروتها في الثمانينات، حيث صار يقام تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية، ودمج فيه معرضاً سنوياً كانت تقيمه نقابة الفنون الجميلة (إتحاد الفنانين التشكيليين السوريين حالياً) تحت عنوان «تحية إلى ثورة الثامن من آذار»، ودخلت في إطاره أقسام جديدة كالخط العربي والتصوير الضوئي،وصار أشبه ما يكون بالمهرجان التشكيلي تتوزع معارضه على عدة صالات وعدة أيام. اعتمدت المعارض الثمانية الأولى أسلوب الجوائز كتعبير

عن دعم الدولة للفن التشكيلي، فقدمت جوائز مالية إلى الفائزين الثلاثة الأوائل في التصوير والنحت، ولم يكن هذا الشكل من الدعم يحظى برضا كثير من الفنانين، ففي عام 1956 تأسست «رابطة الفنانين السورية للرسم والنحت»، واستقطبت الفنانين من جمعيتي «السورية للفنون» التي كانت تأسست عام 1950، و«جمعية محبي الفنون الجميلة» وقد تأسست عام 1952، وكان من أهم أعمال الرابطة أن طالبت بإلغاء الجوائز في المعارض الرسمية، وأن طرحت لأول مرة فكرة إقامة معرضي الربيع والخريف. وهذا ما حدث فعلاً حيث جاء إلغاء مبدأ الجوائز في المعرض السنوي بعد عام واحد من تأسيس «رابطة الفنانين السورية للرسم والنحت»، التي طالبت بهذا الإلغاء، وهو ما يسمح بالاعتقاد أن الفنانين، وعلى الأقل المنتسبين إلى الرابطة، لم يكونوا موافقين على مبدأ الجوائز، وخاصة في ظل الجدل القائم آنذاك بين مناصري التيارات التقليدية، ومناصري التيارات الحديثة. وقد تحول أسلوب دعم الدولة للفن التشكيلي منذ عام 1959 (وهو العام الذي أقيم فيه لأول مرة معرضا الربيع في حلب، والخريف في دمشق) من منح الجوائز إلى اقتناء الأعمال المشاركة من قبل المؤسسات الثقافية والتعليمية والاقتصادية، تشجيعاً للفنانين بداية، ومن ثم لضرورة احتفاظ الدولة بجزء هام من نتاجها الإبداعي ليكون في المستقبل نواة «متحف الفن الحديث»، الحلم القديم المتجدد للفنانين التشكيليين،وللمثقفين عموماً. وقد بلغت موجة الاقتناء أوجها عام 1999 حين رفعت وزارة الثقافة ثمن الأعمال الفنية المنتقاة إلى أرقام غير مسبوقة، ومنها الأعمال الفائزة في بينالي المحبة الذي أقيم قبل المعرض السنوي ببضعة أشهر. كان لهذه السياسة الثقافية ـ الاقتصادية أثرها المباشر في سوق الأعمال الفنية السورية. وخاصة في العقدين الأخيرين من القرن العشرين اللذين شهدا افتتاح الكثير من صالات العرض الخاصة ومحال بيع الأعمال الفنية، وقد مثّل الثمن الذي تدفعه وزارة الثقافة معياراً يصعب التراجع عنه، مما منح الأعمال التشكيلية السورية قيمتها المادية العادلة إلى حد كبير، وشجع المزيد من الفنانين على العمل والعرض، وحمى الفن التشكيل السوري من المضاربات التجارية التي كان يمارسها تجار اللوحات الفنية

في الجوار، وقد ساهمت تلك السياسة في تملك الدولة لمجموعة هامة من الأعمال الفنية ذات القيمة الإبداعية والثقافية والتاريخية، التي تمثل مخزوناً ثقافياً هاماً لأي دولة، وقد اقتنيت هذه المجموعة لغايتين بآن واحد، أولاها تشجيع الفن التشكيلي، وثانيهما تكوين نواة لمتحف الفن الحديث، المشروع الذي خطا خطوتين هامتين باختيار التصميم عبر مسابقة عالمية، وتخصيص الأرض التي سيشاد عليها.

20- يشير دليل معرض 1961 إلى أن لجنة المعارض والمقتنيات مؤلفة من: د. سليم عادل عبد الحق المدير العام للآثار والمتاحف، أ. نجاة قصاب حسن مدير الفنون، أ. عفيف البهنسي مدير الفنون التشكيلية، أ. محمود جلال وكيل المعهد العالي للفنون الجميلة، أ. حسن كمال محافظ المتحف الحديث، أ. نصير شورى عن المجلس الأعلى للفنون.

21- توفي توفيق طارق عام 1940 قبل أن ينهي لوحة «معركة حطين» فأتمها نيابة عنه تلميذه زهير الصبان، وأصيبت اللوحة بعدة رصاصات حين قصف الفرنسيون مدينة دمشق خلال فترة الانتداب، فقام الفنان رشاد قصيباتي بترميمها، وبناء على طلب الرئيس حافظ الأسد عُلقّت في القاعة التي يستقبل بها ضيوفه، فكانت موضع اهتمام واستفسار عدد من السياسيين والإعلاميين مما منحها شهرة واسعة. وهي اليوم في القاعة التي يستقبل بها الرئيس بشار الأسد ضيوفه في قصر الشعب.

22- أديب وروائي مصري ووزير ثقافة سابق. تولى منصب السكرتير العام لمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسوية. اغتيل في نيقوسيا بتاريخ 8/2/1978م/ على أيدي فلسطينيين متطرفين بزعامة «أبو نضال». من أشهر أعماله الروائية: «بين الأطلال اذكريني» التي قدمت كفيلم سينمائي.

23- فايز منصور، ضابط طيار اشتهر بشجاعته، شارك في التصدي لاعتداءات الطيران الإسرائيلي على لبنان إلى أن استشهد في إحدى المعارك الجوية، ورفع بعد استشهاده إلى رتبة عقيد وسمي أحد أكبر شوارع دمشق باسمه، وأطلق اسمه على ثانوية في حي المزّة في دمشق.

24- قاد الرئيس حافظ الأسد الحركة التصحيحية في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1970، وخلال الأشهر التالية تم إقرار دستور للبلاد بعد استفتاء عام، وتشكيل مجلس الشعب وترشيح الرئيس حافظ الأسد لرئاسة الجمهورية.

25- عالم آثار وأحد المهتمين العالميين الكبار بالفن التدمري. نال شرف الشهادة على أيدي عصابات داعش الإجرامية بصورة وحشية، وذلك في المدينة الأثرية تدمر التي أدمن حبها بتاريخ 18/8/2015م. نال بعد استشهاده وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة بموجب المرسوم الجمهوري رقم (229) الصادر عن السيد الرئيس بشار الأسد.

26- فيليب حتي (1886- 1978) أحد أهم المؤرخين العرب، ولد في بلدة شملا - جبل لبنان، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وأسس عام 1926 قسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة برنستون إحدى أقدم الجامعات الأمريكية فأقام مركزا للدراسات العربية وما يتصل بها من تاريخ وآداب واقتصاد وعلوم، وأنشأ مكتبة عربية إسلامية في الجامعة تعنى بجمع المخطوطات والوثائق العربية ونشرها .وبفضل جهوده ضمت المكتبة 5500 مخطوطة عربية وعمل لها فهرسا باللغتين العربية والإنجليزية حتى يسهل الاستفادة منها، وهذه المكتبة تعد من أغنى المكتبات الأمريكية ومن أكثرها جذبا للأساتذة والباحثين في هذه الدراسات. عمل في الجامعة الأمريكية ببيروت أستاذا للتاريخ العربي، وتخرج على يديه عدد من رجال الأدب والفكر والتاريخ من أمثال: جبرائيل جبور، وقسطنطين زريق، وأنيس فريحة، وفؤاد صرّوف، وغيرهم ممن تولوا قيادة الحركة الفكرية في لبنان، وتجاوزت شهرتهم وتأثيرهم حدود لبنان إلى كثير من بلدان العالم العربي. وقد تميز فيليب حتّي بأنه كان مؤرخا غزير الإنتاج ملتزما بالموضوعية وأسس المنهج العلمي، ويعد كتابه «تاريخ العرب» أشهر مؤلفاته وأكثرها رواجا، وهو يضم ستة أقسام رئيسة، منذ عصر ما قبل الإسلام، حتى الحكم العثماني. وقد استقى مادة كتابه من نحو ألف مصدر من مصادر التاريخ في لغات مختلفة ذكرها كلها في الهوامش،وقد لقي هذا الكتاب تقديرا واسعا من المتخصصين في الولايات المتحدة الأمريكية، وعدّوا صاحبه نجح في تقديم العرب وحضارتهم للعالم الغربي في ثوب قشيب،وبالمقابل وجه

إليه بعض الباحثين كثيرا من النقد واتهموا صاحبه بعدم الحياد في عرض بعض الموضوعات وإساءة استخدام بعض المصطلحات.

27- في عام 1987 كلفت بإعداد تحقيق صحفي عن أعمال الترميم في قلعة دمشق، وكنت حينذاك صحفياً في قسم الاقتصاد والتنمية في صحيفة الثورة، ولفت انتباهي يومها حماسة مهندسي مؤسسة الإسكان العسكرية للمشروع، وكيف دفعهم تعاونهم مع العاملين في المديرية العامة للآثار والمتاحف إلى عشق هذا العمل الجديد عليهم، وكان ثمة خلاف علمي عن برج أوسط كان موجوداً في الواجهة الغربية، لكن لم يكن هناك أي دليل معماري عليه، وبعد نشر التحقيق الذي استغرق إعداده بضعة أسابيع وعدة زيارات توثقت خلالها علاقتي مع العاملين في المشروع، اتصل بي أحد المهندسين ليخبرني فرحاً أنهم عثروا على البرج الأوسط، والمقصود عثورهم على أساسات البرج التي تم كشفها، فحسم ذلك الخلاف العلمي. وقبل ذلك دعاني أحد المهندسين لمشاهدة أعمال تشييد البرج الثامن، ومن الأعلى أراني الممر الذي يفصل بين المحال التجارية لسوق الحميدية، وسور القلعة الشمالي، وهو كما أشار الدكتور عفيف متفاوت العرض لكنه مناسب تماماً لأن يكون سوقاً سياحياً، حيث يمكن للمحال التجارية أن تفتح أبوابها عليه، وقد أشرت في التحقيق الصحفي لهذا الأمر في فقرة حملت عنوان «سوق القلعة» وقلت إنّ هذه السوق غير موجودة حالياً، إلا أنه من الممكن أن يوجد بسهولة .وفي هذه الحال سيكون معلماً سياحياً هاماً في دمشق.

28- للتوسع انظر كتاب «نساء وعشيقات في حياة مشاهير وزعماء سورية» لمؤلفه هاني الخيِّر الصادر في دمشق العام 1996.

29- أمها هي السيدة سنية مردم التي انتقلت إلى جوار ربها صباح السبت 24 تموز العام 1920 بمرض الحمى اثر ولادتها عليه أي بعد مرور سنة من زواجها من السياسي السوري المحنك خالد العظم.

30- تعود بدايات المتحف الوطني إلى عام 1919، وكان مقره المدرسة العادلية ويشرف عليه ويديره وينفق عليه من موازنته المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية حالياً). وفي الثامن من آذار عام 1928 صدر قرار بمنحه الشخصية

الحقوقية والاستقلال. وأثناء الحكم الوطني عام 1936 شيد البناء الحالي للمتحف،الذي استكمل تشييد أقسامه في مراحل مختلفة.

31- باولو ماتييه (1940 روما) أستاذ الآثار وتاريخ الفن في الشرق الأدنى القديم في جامعة لاسابينزا- روما، يُعرّف عن نفسه بالقول«نصفي إيطالي ونصفي الآخر سوري» مستوحياً قول الأسكندر الأكبر: «وطني الثاني سورية»، الذي سبق أن استلهمه كل عالم أثار عمل في سورية، أو درس حضاراتها، حتى تحول إلى القول الشهير: «لكل إنسان في العالم وطنان:وطنه الأصلي وسورية» ونسب إلى عدد من علماء الآثار، في دلالة على الدور الذي لعبته سورية في ولادة الحضارات الإنسانية. وهو الدور الذي أكده اكتشاف إبلا الذي وضع سورية الداخلية في ذات المكانة الحضارية لمنطقة مابين النهرين ووادي النيل. وقد أمضى ماتييه جزءاً كبيراً من حياته العلمية في سورية منذ قدم إليها في المرة الأولى مطلع الستينات، ومنذ عام 1964 بدأ التنقيب في تل مرديخ على بعد 55 كم من الجنوب الغربي لمدينة حلب موفداً من جامعته لاسابينزا ليكتشف بعد سنوات من التنقيب المضني المملكة المختبئة تحت التل، وليرتبط أسم إبلا باسمه. وكان هذا الاكتشاف بمثابة العثور على الحلقة المفقودة التي طالما تساءل علماء الآثار عن مكان وجودها، لتزيل في الأوساط العلمية علامات الاستفهام عن ذلك الفراغ الحضاري المستغرب في البقعة الأرضية الممتازة الواقعة بين أوغاريت وحلب وماري ودمشق وغيرها من المدن الحضارية المشهورة. وعندما سئل ماتييه عن أسعد لحظات حياته أجاب: «إنها اللحظات التي وجدت فيها نفسي وجهاً لوجه أمام أعظم اكتشافات أثرية في القرن العشرين، يوم وجدت نفسي أمام أرشيف المكتبة الملكية التي تتألف من الألواح الطينية المكتوبة بخط مسماري».

32- يقع قصر العظم جنوبي الجامع الأموي بدمشق على مساحة تزيد عن خمسة آلاف وخمسمائة متراً مربعاً، ويقسم إلى جناحين رئيسيين الحرملك المخصص للنساء، والسلملك وهو جناح الضيوف. شيده والي دمشق أسعد باشا العظم عام 1749 مقراً لسكنه. ويذكر البديري الحلاق في مذكراته أن الوالي «جلب عواميد الرخام من بصرى وخرب سوق مسجد الأقصاب واستولى على كل ما فيه من أحجار وأخشاب، وكلما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشاني

يرسل فيأتي بها إن رضي صاحبها أو أبى». وقد تم تحويله بعد الاستقلال إلى متحف التقاليد الشعبية، وافتتحه رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي يوم الاثنين الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) عام 1954 بحضور رسمي ودبلوماسي واسع. ويضم المتحف شخصيات من الجص بالحجم الطبيعي قام بتصميمها الفنان محمود جلال.

33- هم جماعة من الفلاسفة والمفكرين والمستبصرين جمعتهم المحبة والفكر الموحد. ظهروا في بغداد في القرن العاشر الميلادي. وقد بلغ عدد رسائلهم (52) رسالة.

بطاقة السيرة الذاتية للدكتور عفيف البهنسي

- ولد عفيف البهنسي في دمشق 1928 (17 نيسان) في حي الشهداء - السبكي.
- درس في دمشق جميع مراحل الدراسة.
- حصل على إجازة دار المعلمين.
- حصل على الإجازة في الحقوق من جامعة دمشق.
- حصل على دبلوم العلوم الإدارية من جامعة دمشق عام 1950.
- درس الفن في معهد أندره لوت في باريس.
- درس تاريخ الفن والعمارة في معهد الفن والآثار.
- حصل على الدكتوراه في تاريخ الفن من جامعة باريس السوربون عام 1964 بدرجة مشرف جداً.
- حصل على دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة باريس الأولى السوربون عام 1978 بدرجة مشرف جداً.
- أولاده : د .إياد ود . أنس،د .كنان، المهندس عمر، الكاتبة واالشاعرة يولا . لأسرة البهنسي مشجرة نسب وتاريخ محفوظة في مكتبة الأسد.

الوظائف

- أول مدير للفنون الجميلة (الفنون التشكيلية والتطبيقية سابقاً) في وزارة الثقافة 1958 -1971
- المدير العام للآثار والمتاحف 1971 – 1989
- أستاذ محاضر في تاريخ الفن والعمارة منذ 1960 في جامعة دمشق.
- أستاذ تاريخ الفن والعمارة في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق. دراسات عليا.
- أستاذ تاريخ الفن والعمارة في كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق.
- أستاذ في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق دراسات عليا.
- أستاذ في قسم الآثار بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق.

جامعات حاضر فيها

- جامعة دمشق؛ كية الفنون الجميلة، كلية العمارة، كلية الآداب في قسم الآثار.
- جامعة اليرموك الأردن - إربد . - الجامعة الأردنية عمان. - جامعة الكويت. -

جامعة قطر (الدوحة) - جامعة تونس. - جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس - أمريكا U.C.L.A دورة كاملة. - جامعة سان دياغو - كاليفورنيا - أمريكا. - جامعة سيدني (استراليا). - جامعة مالبورن (استراليا). - جامعة هارفرد – (بوسطن M I T) في الولايات المتحدة. - جامعة كامبردج (إنكلترا). - جامعة أكسفورد (إنكلترا). - جامعة الجزائر - مدرسة الفنون الجميلة العليا. - جامعة طوكيو- جامعة باريس - معهد الفنون والآثار. - جامعة باريس (السوربون - قاعة ريشيليو). - جامعة روما (كلية الآداب برعاية وزير الثقافة الإيطالي). - المجمع الثقافي في أبو ظبي. - جامعة صنعاء (كلية الآداب). - جامعة الملك سعود (الرياض - دورة تدريسية). - كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس - الجماهيرية الليبية). - كلية الهندسة (جامعة الفاتح - طرابلس). - جامعة حلب - معهد التراث العربي 1995. - معهد الترميم الإقليمي اليونسكو (بغداد - دورة تدريسية 1973م). - معهد الآثار الألماني (ميونيخ - ألمانيا).
- جامعة البحر المتوسط (أقدينيز) انتاليا - تركيا 2000م - الجامعة الأمريكية (الشارقة - الإمارات العربية).

أستاذ محاضر في مراكز ثقافية

- المركز الثقافي الدولي في الحمامات - تونس- مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - اسطنبول- لجنة يوم القدس - عمان- المركز الثقافي الملكي - عمان- المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة- المجلس القومي للثقافة العربية - الرباط- متحف سرسق في بيروت 1969م- متحف دالهم - برلين - ألمانيا
- دار الحكمة – تونس - قرطاج- المركز الثقافي العربي في باريس.

مصادر عن إنتاجه وحياته

- الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني - المجلد الرابع - ص 781.
- الموسوعة الموجزة (حرف العين) إعداد حسان بدر الدين الكاتب.
- أعضاء اتحاد الكتاب العرب - إعداد أديب عزت (طبعات عدة).
- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين - إعداد عبد القادر عياش - دمشق 1985م.
- جريدة القبس - الكويت العدد 5723/1988م إعداد صفي الدين الزعبي.
- مجلة الجيل - بيروت - إعداد د. رياض عصمت.

- لاروس الكبير الموسوعي - مجلد 11 - تحت اسم سورية.
- مجلة بناة الأجيال العدد 1 - 1996م.
- مجلة العربي - مرفأ الذاكرة - أمام مرآة الذات 511// 6/2001م.
- مجلة المعرفة - مع الدكتور عفيف البهنسي - إعداد وحوار عبير عوض - العدد 475/2003
- كتاب (المبدعون) - إعداد غسان كلاس.
- كتاب المذاهب الجمالية - تأليف عزت السيد أحمد - جامعة تشرين.
- صفحات كثيرة في مواقع الانترنت.

عضو ومؤسس

- نقابة الفنون الجميلة، مؤسس وأول نقيب للفنون الجميلة 1969.
- اتحاد الكتاب العرب - مؤسس وعضو منذ عام 1968.
- الجمعية التعاونية السكنية للفنون الجميلة، مؤسس لبناءين ضخمين مع مراسم للفنانين مع إعفاء من قيمة الأرض.
- كلية الفنون الجميلة، وكانت معهداً إذ استصدر قراراً بتأسيس الكلية في القاهرة والاتفاق على تكليف مجموعة من الأساتذة المصريين وعميد، ووضع أنظمة المعهد. بوصفه عضوا في مجلس الكلية.
- مراكز الفنون التشكيلية والتطبيقية في سورية؛ دمشق وحماة وحلب وحمص.
- جمعية أصدقاء دمشق وكان أول اجتماع في القاعة الشامية بدمشق عام 1973. ورئيس مجلس إدارة الجمعية.
- معهد الفنون التطبيقية: إحداث وبناء المعهد في قلعة دمشق.
- معهد الآثار والمتاحف: إحداث وبناء المعهد في قلعة دمشق.
- عدد من المتاحف وأبنية المتاحف في سورية؛ متحف الطب والعلوم في دمشق، متحف الخط العربي بدمشق، متحف دمشق التاريخي، مركز الوثائق التاريخية، متحف الفن الحديث بحلب، متحف التقاليد الشعبية بحلب، متحف الرقة، متحف دير الزور وبناء مقر ضخم، بناء متحف السويداء الجديد، بناء متحف حماة الجديد، متحف اللاذقية، متحف أرواد، متحف حمص، متحف بصرى، متحف التقاليد في تدمر.

رئاسة تحرير مجلات

1. رئيس تحرير مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية من عام 1971. 1988 دمشق.
2. عضو لجنة تحرير مجلة Moukarnas الصادر عن مؤسسة آغا خان - بوسطن - الولايات المتحدة الأمريكية.
3. عضو هيئة تحرير مجلة الحياة التشكيلية - وزارة الثقافة - دمشق.
4. رئيس تحرير فخري لمجلة Art، (لندن 3 .Vol 1987)
5. رئيس تحرير فخري مجلة L'oeil (سويسرا 337 .N 1983 Aout)
6. المدير المسؤول ، مجلة أصدقاء دمشق.

الممارسة الفنية

- درس الفن في باريس بإشراف اندره لوت..
- شارك في معارض فنية وطنية وعالمية.
- له أعمال زيتية في المتاحف.
- له أعمال نحتية من البرونز في دمشق وهي:

1 - تمثال الجاحظ (حديقة الجاحظ - متحف بغداد - متحف دمشق).
2 - تمثال الفارابي (حديقة الفارابي في المزة).
3 - تمثال ابن سينا (حديقة ابن سينا - شارع الجلاء).
4 - ميدالية ابن النفيس (مستشفى ابن النفيس).
5 - ميدالية الكندي (سينما الكندي).
6 - تمثال زكي الأرسوزي (اتحاد الكتاب العرب- حديقة الأرسوزي).
7 - ميدالية عادلة بيهم (مدرسة دوحة الأدب).
8 - تمثال محمد كرد علي (مجمع اللغة العربية).
9 - ميدالية حكمت محسن (مبنى الإذاعة والتلفزيون).
10 - ميدالية زنوبيا ملكة تدمر (متحف دمشق).

تصميم الشعارات الفنية

- شعار المجلس الأعلى للعلوم.
- شعار المركز الثقافي العربي بدمشق.

- شعار نقابة الفنون الجميلة.
- شعار مدينة دمشق.
- شعار الإذاعة والتلفزيون.
- شعار المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية.
- شعار القرن الهجري الخامس عشر.
- شعار مؤتمر الآثار الفلسطينية.
- شارك في الإشراف على تصميم الطوابع البريدية (1960 - 1983).
- شارك في تصميم العملة الورقية المتداولة في سورية (1973 - 1999).
- شارك في تصميم وتنفيذ صرح الشهيد في دمشق.
- شارك في تصميم وتنفيذ بانوراما حرب تشرين التحريرية.
- شارك في تصميم متحف السويداء - دير الزور- حماة - درعا.

برامج الإذاعة والتلفزيون التي أعدها

- برنامج إذاعي أسبوعي استمر منذ عام 1960 إلى عام 1965م.
- برنامج تلفزيوني أسبوعي من عام 1965م إلى عام 1968م مع ناديا الغزي.
- برنامج إذاعي يومي من عام 1983 إلى عام 1988 تحت اسم سورية اليوم.

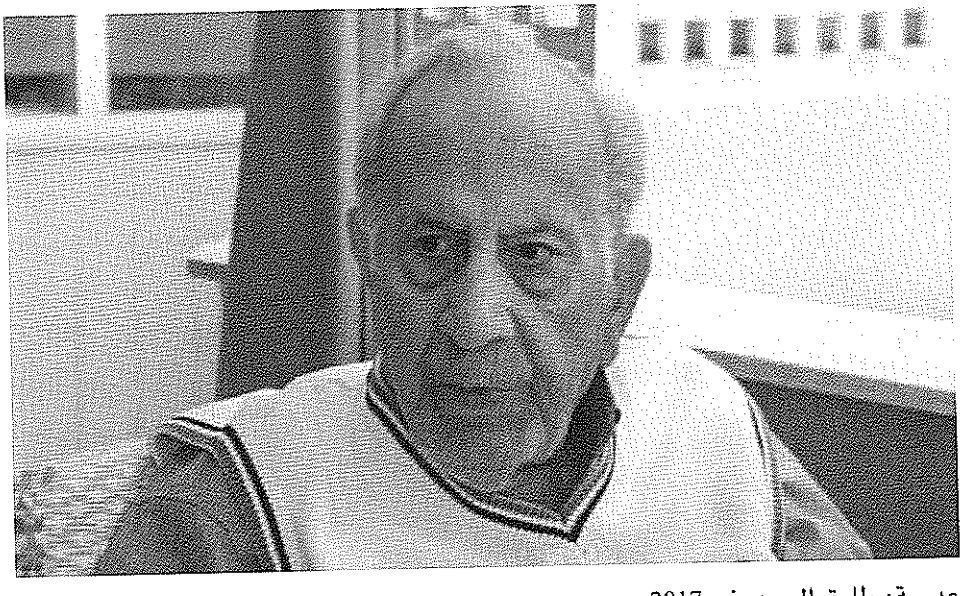

عدسة: طارق السعدوني 2017

كلمة أخيرة

خلاصة تجربة حياتية – وثيقة وطن

أنا سعيد جداً أن تكون محدثي فيما يتعلّق بهذا الكتاب الذي أتوسّم أن يكون فعلاً مصدراً هاماً لتاريخ هذا الوطن، وكما قلت سابقاً أن الشواهد التي اكتشفناها تؤكّد تماماً أن هذا الوطن لم يبنَ أبداً عاطفياً، فلكل إنسان الحقّ أن يفتخر بوطنه لأنه عاش على أرضه وفي ظلّ سمائه، ولكن الذي أريد أن أقوله بأني أنسجم في حديثي وفي روايتي مع ما شاهدته خلال عملي في نطاق الآثار، وأراه ينسجم تماماً مع الخطة التي تقوم بها «مؤسسة وثيقة وطن».

كلمة «وثيقة» هي التي أتمسّك بها، لأننا اكتشفنا من الوثائق ما لا يمكن دحضه، ولا يمكن تأويله. هذه النقطة هامّة جداً، ولذلك فإن حديثي الذي سجّلته مع الأستاذ سعد القاسم هو حديث من شاهد ومن فعل ومن اشتغل ومن ساهم في إعادة رسم وثيقة هذا الوطن.. سورية.

خلال حديثي تحدّثت في كثير من النبذ الصغيرة التي تؤكّد أنّ العصر الذي عشته كان عصراً متقلباً، كان شديد التطور وشديد التحوّل أيضاً، أنا عشت في منطقة في دمشق لم يكن فيها ماء ولا كهرباء، لذلك أردت أن أسرد أيضاً أنني مررت بعصور متطوّرة بسرعة خارقة، وهذا أيضاً يؤكّد أن المؤسّسة التي تقوم بـ «وثيقة وطن» تريد فعلاً أن تسجّل كيف تمّ هذا التحوّل.

قلتُ إني عشت في عصر لا يوجد فيه «راديو» ولا «تلفزيون»، وكان الهاتف حالة نادرة جداً، وكانت أكثر البيوت بلا ماء. ومن حسن حظي أنني أعيش اليوم بعد تسعين سنة لكي أحدثك عن ظروف هذا التحوّل منذ بدايته حتى اليوم.

أريد أن أعبّر عن شكري للأستاذ سعد القاسم لأنني وجدت أنه يلمّ إلماماً كاملاً بالمراحل التي تمّت في حياتي، وكانت أسئلته مساعدة لي كي أعبّر عما شاهدته وفعلته خلال هذا العمر الذي أراه أطول من عمر آخرين، وأنا لا أدري متى سينتهي هذا العمر، ولكنني أعتقد أنني بهذا الكتاب، سوف أكون مستمراً في الحياة، لن أموت مادام هناك من يسجّل تاريخ حياتي بهذا الشكل الذي كنت فيه جندياً بسيطاً في بناء هذا الوطن.

ملاحظة:

سوف ينشر على موقع مؤسسة وثيقة وطن وقائع الندوة الفكرية التي أقيمت لتكريم الدكتور عفيف البهنسي، وغيرها من الوثائق المتعلقة به وبإنجازاته، ومنها قائمة كتبه وأبحاثه المنشورة، والأوسمة والجوائز التي نالها، والتي لم يتّسع المجال لنشرها في هذا الكتاب.

المؤلف: سعد القاسم

ولد سعد القاسم في دمشق عام 1953 ونال إجازة من كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق عام 1981 وأول دبلوم دراسات عليا تمنحه الكلية عام (1987). عمل محررا في صحيفة «الثورة» منذ عام 1981، ونائباً لرئيس قسمها الاقتصادي (1982-1991) ورئيسا لقسمها الثقافي (1991-1995) ومديراً لتحرير مجلة «التشكيلي السوري» الصادرة عن نقابة الفنون الجميلة في سورية (1993-1995) وعضوا في هيئة تحرير مجلة «الحياة التشكيلية» (1999). وفي هيئة تحرير مجلة «الفنون الجميلة» -2010) (2003، وأعد الفقرة التشكيلية في برنامج «المجلة الثقافية» في التلفزيون العربي السوري (1995-2003) - شارك في تحرير عدد من الكتب منها: «مسيرة انجازات»، «الإعلام السوري وحرب الخليج»، «دمشق الشام»، «فاتح المدرس»، «نساء سورية»، «صميم الشريف». وكتب النص النقدي لكتاب «الكلام عليكم» عن تجربة رسام الكاريكاتير «رائد خليل».كتب النص المتعلق بالفن التشكيلي والعمارة في سورية في «الموسوعة العربية». أعد الألبوم التذكاري للعيد الذهبي للتلفزيون العربي السوري، وألف كتاب «نزار صابور: الإنسان - اللوحة» (2015). وكتاب «نذير نبعه - الإنسان والفنان المعلم» (2016) بالإشتراك مع طلال معلا. رأس تحرير مجلة «فنون» (مجلة الإذاعة والتلفزيون) مابين عامي (1995-2003). عين عضوا في لجنة رقابة الأعمال الدرامية في التلفزيون (2003) وسمي مديرا للقناة الفضائية السورية (2003-2004) والقناة الأولى (2004) ثم عاد ليرأس تحرير مجلة «فنون» منذ مطلع عام (2005 وحتى الشهر التاسع 2008). رأس تحرير موقع «آرت سورية» الالكتروني (2008-2009). سمي معاونا لمدير مديرية الإنتاج التلفزيوني في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون وقارئاً للنصوص فيها (2009) فمديراً لقناة «سورية دراما» منذ الشهر الخامس 2010 وحتى إحالته على التقاعد مطلع عام (2014). شارك في عدد من المعارض وصمم إعلانات وأغلفة كتب وشعارات منها شعار مكتبة الأسد، شعار فرقة الموسيقا الشرقية، شعار شركة التأمين اليمنية، وأشرف على تصميم شعارات القناة الفضائية (2003) والقناة الأولى (2004) ونور الشام (2011) وقناة سورية دراما (2013) . أنتخب عضواً مستقلاً إلى المؤتمر الأول لاتحاد الصحفيين السوريين (1990)، وإلى المؤتمر الرابع (2006) ثم إلى مجلس الإتحاد، وإلى المؤتمر الخامس (2012)، وأنتخب عضواً في مجلس إدارة

نقابة الفنون الجميلة (1998-2000)، ونائباً لنقيب الفنون الجميلة (2000-2010). قدم عددا كبيرا من المحاضرات عن الفن التشكيلي وشارك في عدد من الندوات منها ندوة بينالي المحبة الأول (1995) وندوة بينالي الشارقة (2003) وندوة المنمنمات والزخارف الإسلامية في الجزائر (2007). نسق وأدار عدة ندوات حول الفن التشكيلي من بينها : ندوات في دمشق وندوتي بينالي المحبة الثالث (1999) والخامس (2003) وشارك في عضوية عدد كبير من اللجان منها : لجنة تحكيم معرض السادس من تشرين -2004) (1998 - اللجنة العليا للمقتنيات والمعارض في وزارة الثقافة (منذ عام 1999 حتى الآن) - لجنة تحكيم بينالي المحبة الثالث (1999) - لجنة تحكيم مسابقة المركز الثقافي الاسباني «ثيربانتيس» عام 2000 - اللجنة الاستشارية الفنية للمؤسسة العامة للمعارض والأسواق الدولية (معرض دمشق الدولي) من 2001 وحتى 2012 - لجنة اختيار طلاب كلية الفنون الجميلة للعام الدراسي (2001-2002) - اللجنة التنظيمية العليا لمهرجان دمشق السينمائي (2001) - لجنة تحكيم معرض منتدى المرأة والتنمية (2003) - لجنة تحكيم معرض الكاريكاتير العالمي الأول في سورية (2005) والسادس (2010) والثالث عشر(2017) - لجنة القبول لملتقى الشباب السوري (2005) ومجلس أمناء دار الأسد للثقافة والفنون (2006-2014). ولجنة تحكيم جائزة (أدونيا) للدراما التلفزيونية (2009-2010) - ومجلس إدارة المؤسسة العامة للإنتاج الإذاعي والتلفزيوني (2012) - ولجنة جائزتي الدولة التقديرية والتشجيعية (2013 - 2014 -2015 -2017) - ومجلس إدارة المركز الوطني للفنون البصرية (2013-2016) - ولجنة تحكيم مهرجان سينما الشباب (2015)- رأس لجنة القبول في نقابة الفنون الجميلة ولجنة تحكيم معرض الفنانين الشباب (2000-2010). مدرس مادتي تاريخ الفن وعلم الجمال في المعهد العالي للموسيقا (2003-2009) ومنذ (2015). وفي المعهد العالي للفنون المسرحية (منذ عام 1999 وحتى الآن). له عمود صحفي صباح كل ثلاثاء في صحيفة «الثورة» منذ عام 2010. وبرنامج تلفزيوني أسبوعي عن الفنانين التشكيليين على قناة «سورية دراما» منذ عام (2015) بعنوان «ملونون». سمي رئيساً لتحرير مجلة «الحياة التشكيلية» (2016). أنتخب رئيساً لجمعية الباحثين والنقاد التشكيليين في «إتحاد الفنانين التشكيليين السوريين» خلال اجتماعها التأسيسي - تشرين الأول 2016 برئاسة الدكتور عفيف البهنسي بعد إعتذار الدكتور البهنسي الذي سُمي بإجماع المشاركين رئيساً فخرياً للجمعية.

مذكّرات عفيف البهنسي

إعداد وحوار سعد القاسم

«كلمة وثيقة هي التي أتمسّك بها، لأننا اكتشفنا من الوثائق ما لا يمكن دحضه، ولا يمكن تأويله. هذه النقطة هامة جداً، ولذلك فإن حديثي الذي سجّلته مع الأستاذ سعد القاسم هو حديث من شاهد ومن فعل ومن اشتغل ومن ساهم في إعادة رسم وثيقة هذا الوطن.. سورية.

خلال حديثي تحدّثت في كثير من النبذ الصغيرة التي تؤكّد أن العصر الذي عشته كان عصراً متقلّباً، كان شديد التطور وشديد التحوّل أيضاً. أنا عشت في منطقة في دمشق لم يكن فيها ماء ولا كهرباء، لذلك أردت أن أسرد أيضاً أنني مررت بعصور متطوّرة بسرعة خارقة، وهذا أيضاً يؤكّد أن المؤسّسة التي تقوم بـ «وثيقة وطن» تريد فعلاً أن تسجّل كيف تم هذا التحوّل.»

الدكتور عفيف البهنسي

ISBN 978-9933-0-0449-1

9 789933 004491

مؤسسة وثيقة وطن